سيّد قطب

خصائص التصوّر الإسلامي ومقوّماته

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة في المنهج

«إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ»

تحديد « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته[1] » . . . مسألة ضرورية ، لأسباب كثيرة :

ضرورية لأنه لابد للمسلم من تفسير شامل للوجود ، ، يتعامل على أساسه مع هذا الوجود . . لابد من تفسير يقرّب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التى يتعامل معها ، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق : حقيقة الألوهية . وحقيقة العبودية (وهذه تشتمل على حقيقة الكون . وحقيقة الحياة . وحقيقة الإنسان) . . وما بينها جميعاً من تعامل وارتباط .

وضرورية لأنه لابد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان فى هذا الوجود الكونى، وغاية وجوده الإنسانى . . فمن هذه المعرفة يتبين دور « الإنسان» فى «الكون» وحدود اختصاصاته كذلك . وحدود علاقته بخالقه وخالق هذا الكون جميعاً .

وضرورية لأنه بناء على ذلك التفسير الشامل ، وعلى معرفة حقيقة مركز الإنسان فى الوجود الكونى وغاية وجوده الإنسانى ، يتحدد منهج حياته ، ونوع النظام الذى يحقق هذا المنهج . فنوع النظام الذى يحكم الحياة الإنسانية رهين بذلك التفسير الشامل ، ولا بد أن ينبثق منه انبثاقاً ذاتياً وإلا كان نظاماً مفتعلاً ، قريب

---

(١) هذا البحث هو الذى سبق الوعد بإخراجه تحت عنوان : « فكرة الإسلام عن الله والكون والحياة والإنسان » .

الجذور ، سريع الذبول . والفترة التى يقدر له فيها البقاء ، هى فترة شقاء «للإنسان»، كما أنها فترة صدام بين هذا النظام وبين الفطرة البشرية ، وحاجات «الإنسان » الحقيقية ! الأمرالذى ينطبق اليوم على جميع الأنظمة فى الأرض كلها ـ بلا استثناء ـ وبخاصة فى الأمم التى تسمى « متقدمة [1] ! »

وضرورية لأن هذا الدين جاء لينشئ أمة ذات طابع خاص متميز متفرد . وهى فى الوقت ذاته أمة جاءت لقيادة البشرية ، وتحقيق منهج الله فى الأرض ، وإنقاذ البشرية مما كانت تعانيه من القيادات الضالة ، والمناهج الضالة ، والتصورات الضالة ـ وهو ما تعانى اليوم مثله مع اختلاف فى الصور والأشكال ـ وإدراك المسلم لطبيعة التصور الإسلامى ، وخصائصه ومقاومته ، هو الذى يكفل له أن يكون عنصراً صالحاً فى بناء هذه الأمة ، ذات الطابع الخاص المتفرد المتميز ، وعنصراً قادراً على القيادة والإنقاذ . فالتصور الاعتقادى هو أداة التوجيه الكبرى ، إلى جانب النظام الواقعى الذى ينبثق منه ، ويقوم على أساسه ، ويتناول النشاط الفردى كله ، والنشاط الجماعى كله ، فى شتى حقول النشاط الإنسانى .

* * *

ولقد كان القرآن الكريم قد قدم للناس هذا التفسير الشامل ، فى الصورة الكاملة، التى تقابل كل عناصر الكينونة الإنسانية ، وتلبى كل جوانبها ، وتتعامل مع كل مقوماتها . . تتعامل مع « الحس » و « الفكر » و « البديهة » و «البصيرة» . . . ومع سائر عناصر الإدراك البشرى ، والكينونة البشرية بوجه عام ـ كما تتعامل مع الواقع المادى للإنسان ، هذا الواقع الذى ينشئه وضعه الكونى ـ فى الأسلوب الذى يخاطب ، ويوحى ، ويوجه كل عناصر هذه الكينونة متجمعة ، فى تناسق ، هو تناسق الفطرة كما خرجت من يد بارئها سبحانه !

وبهذا التصور المستمد مباشرة من القرآن ، تكيفت الجماعة المسلمة الأولى . تكيفت ذلك التكيف الفريد . وتسلمت قيادة البشرية ، وقادتها تلك القيادة الفريدة ، التى لم تعرف لها البشرية ـ من قبل ولا من بعد ـ نظيراً . وحققت فى حياة

---

(١) راجع كتاب « الإنسان ذلك المجهول » تأليف دكتور ألكسيس كاريل ، وكتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » لصاحب هذا البحث .

البشرية ـ سواء فى عالم الضمير والشعور ، أو فى عالم الحركة والواقع ـ ذلك النموذج الفذ الذى لم يعهده التاريخ . وكان القرآن هو المرجع الأول لتلك الجماعة . فمنه انبثقت هى ذاتها . . وكانت أعجب ظاهرة فى تاريخ الحياة البشرية : ظاهرة انبثاق أمة من خلال نصوص كتاب ! وبه عاشت . وعليه اعتمدت فى الدرجة الأولى . باعتبار أن « السنة » ليست شيئاً آخر سوى الثمرة الكاملة النموذجية للتوجيه القرآنى . كما لخصتها عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهى تُسأَل عن خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتجيب تلك الإجابة الجامعة الصادقة العميقة : « كان خلقه القرآن» . . (أخرجه النسائى)

* * *

ولكن الناس بعدوا عن القرآن ، وعن أسلوبه الخاص ، وعن الحياة فى ظلاله ، وعن ملابسة الأحداث والمقوّمات التى يشابه جوُّها الجوَّ الذى تنزّل فيه القرآن . . وملابسةُ هذه الأحداث والمقوّمات ، وتَنسُّمُ جوها الواقعى ، هو وحده الذى يجعل هذا القرآن مُدرَكاً وموحياً كذلك . فالقرآن لا يدركه حق إدراكه من يعيش خالى البال من مكابدة الجهد والجهاد لاستئناف حياة إسلامية حقيقية ، ومن معاناة هذا الأمر العسير الشاق ، وجرائره وتضحياته وآلامه ، ومعاناة المشاعر المختلفة التى تصاحب تلك المكابدة فى عالم الواقع ، فى مواجهة الجاهلية فى أى زمان !

إن المسألة ـ فى إدراك مدلولات هذا القرآن و إيحاءاته ـ ليست هى فهم ألفاظه وعباراته ، ليست هى « تفسير » القرآن ـ كما اعتدنا أن نقول ! المسألة ليست هذه . إنما هى استعداد النفس برصيد من المشاعر والمدركات والتجارب ، تشابه المشاعر والمدركات والتجارب التى صاحبت نزوله ، وصاحبت حياة الجماعة المسلمة وهى تتلقاه فى خضم المعترك . . معترك الجهاد . . جهاد النفس وجهاد الناس . جهاد الشهوات وجهاد الأعداء . والبذل والتضحية . والخوف والرجاء . والضعف والقوة. والعثرة والنهوض . . جو مكة ، والدعوة الناشئة ، والقلة والضعف ، والغربة بين الناس . . جو الشِّعب والحصار ، والجوع والخوف ، والاضطهاد والمطاردة ، والانقطاع إلا عن الله . . ثم جو المدينة : جو النشأة الأولى للمجتمع

المسلم ، بين الكيد والنفاق ، والتنظيم والكفاح .. جو « بدر » و « أحد » و«الخندق » و « الحديبية » . وجو « الفتح » ، و « حنين » و « تبوك » .. وجو نشأة الأمة المسلمة ونشأة نظامها الاجتماعى والاحتكاك الحى بين المشاعر والمصالح والمبادئ فى ثنايا النشأة وفى خلال التنظيم .

فى هذا الجو الذى تنزلت فيه آيات القرآن حية نابضة واقعية .. كان للكلمات وللعبارات دلالاتها و إيحاءاتها .. وفى مثل هذا الجو الذى يصاحب محاولة استئناف الحياة الإسلامية من جديد يفتح القرآن كنوزه للقلوب ، ويمنح أسراره ، ويشيع عطره ، ويكون فيه هدى ونور ..

لقد كانوا يومئذ يدركون حقيقة قول الله لهم :

« يَمنُّون عليك أن أسلموا . قل : لا تمنّوا علىّ إسلاَمكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » ..

(الحجرات : ١٧)

وحقيقة قول الله لهم :

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون . واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب . واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض، تخافون أن يتخطفكم الناس . فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » .

(الأنفال : ٢٤ـ٢٦)

وحقيقة قول الله لهم :

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » ..

(آل عمران : ١٢٣)

وحقيقة قول الله لهم :

«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ

منكم شهداء . والله لايحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تَمَنَّـوْنَ الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » . . .

(آل عمران : ١٣٩ ـ ١٤٣)

وحقيقة قول الله لهم :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة . ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وَليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا . وذلك جزاء الكافرين » . .

(التوبة : ٢٥ ، ٢٦) .

وحقيقة قول الله لهم :

« لتبلَوُن فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعُنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً . وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » . .

(آل عمران : ١٨٦) .

كانوا يدركون حقيقة قول الله لهم فى هذا كله ، لأنه كان يحدثهم عن واقعيات فى حياتهم عاشوها ، وعن ذكريات فى نفوسهم لم تغب معالمها ، وعن ملابسات لم يبعد بها الزمن ، فهى تعيش فى ذات الجيل . .

والذين يعانون اليوم وغداً مثل هذه الملابسات ، هم الذين يدركون معانى القرآن وإيحاءاته . وهم الذين يتذوقون حقائق التصور الإسلامى كما جاء بها القرآن . لأن لها رصيداً حاضراً فى مشاعرهم وفى تجاربهم ، يتلقونها به ، ويدركونها على ضوئه . . وهم قليل . .

ومن ثم لم يكن بد ـ وقد بعد الناس عن القرآن ببعدهم عن الحياة الواقعية فى مثل جوه ـ أن نقدم لهم حقائق : « التصور الإسلامى » عن الله والكون والحياة والإنسان من خلال النصوص القرآنية ، مصحوبة بالشرح والتوجيه ، والتجميع والتبويب . لايغنى هذا غناء القرآن فى مخاطبة القلوب والعقول . ولكن ليصل الناس بالقرآن ـ

على قدر الإمكان ـ وليساعدهم على أن يتذوقوه ، ويلتمسوا فيه بأنفسهم حقائق التصور الإسلامى الكبير !

على أننا نحب أن ننبه هنا إلى حقيقة أساسية كبيرة . . إننا لا نبغى بالتماس حقائق التصور الإسلامى ، مجرد المعرفة الثقافية . لا نبغى إنشاء فصل فى المكتبة الإسلامية ، يضاف إلى ما عرف من قبل باسم « الفلسفة الإسلامية » . كلا ! إننا لانهدف إلى مجرد « المعرفة » الباردة ، التى تتعامل مع الأذهان ، وتحسب فى رصيد «الثقافة » ! إن هذا الهدف فى اعتبارنا لايستحق عناء الجهد فيه ! إنه هدف تافه رخيص ! إنما نحن نبتغى « الحركة » من وراء « المعرفة » . نبتغى أن تستحيل هذه المعرفة قوة دافعة ، لتحقيق مدلولها فى عالم الواقع . نبتغى استجاشة ضمير «الإنسان» لتحقيق غاية وجوده الإنسانى ، كما يرسمها هذا التصور الربانى . نبتغى أن ترجع البشرية إلى ربها ، وإلى منهجه الذى أراده لها ، وإلى الحياة الكريمة الرفيعة التى تتفق مع الكرامة التى كتبها الله للإنسان ، والتى تحققت فى فترة من فترات التاريخ ، على ضوء هذا التصور ، عندما استحال واقعاً فى الأرض ، يتمثل فى أمة ، تقود البشرية إلى الخير والصلاح والنماء .

* * *

ولقد وقع ـ فى طور من أطوار التاريخ الإسلامى ـ أن احتكت الحياة الإسلامية الأصلية ، المنبثقة من التصور الإسلامى الصحيح ، بألوان الحياة الأخرى التى وجدها الإسلام فى البلاد المفتوحة ، وفيما وراءها كذلك . ثم بالثقافات السائدة فى تلك البلاد .

واشتغل الناس فى الرقعة الإسلامية ـ وقد خلت حياتهم من هموم الجهاد ، واستسلموا لموجات الرخاء . . وجدّت فى الوقت ذاته فى حياتهم من جراء الأحداث السياسية وغيرها مشكلات للتفكير والرأى والمذهبية ـ كان بعضها فى وقت مبكر منذ الخلاف المشهور بين على ومعاوية ـ اشتغل الناس بالفلسفة الإغريقية وبالمباحث اللاهوتية التى تجمعت حول المسيحية ، والتى ترجمت إلى اللغة العربية . . ونشأ عن هذا الاشتغال الذى لايخلو من طابع الترف العقلى فى عهد العباسيين وفى الأندلس

أيضاً ، انحرافات واتجاهات غريبة على التصور الإسلامى الأصيل . التصور الذى جاء ابتداء لإنقاذ البشرية من مثل هذه الانحرافات ، ومن مثل هذه الاتجاهات ، وردها إلى التصور الإسلامى الإيجابى الواقعى ، الذى يدفع بالطاقة كلها إلى مجال الحياة ، للبناء والتعمير ، والارتفاع والتطهير . ويصون الطاقة أن تنفق فى الثرثرة . كما يصون الإدراك البشرى أن يطوح به فى التيه بلا دليل .

ووجد جماعة من علماء المسلمين أن لابد من مواجهة آثار هذا الاحتكاك ، وهذا الانحراف ، بردود و إيضاحات وجدل حول ذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته . وحول القضاء والقدر . وحول عمل الإنسان وجزائه ، وحول المعصية والتوبة . . إلى آخر المباحث التى ثار حولها الجدل فى تاريخ الفكر الإسلامى ! ووجدت الفرق المختلفة خوارج وشيعة ومرجئة . قدرية وجبرية . سنية ومعتزلة . . . . إلى آخر هذه الأسماء .

كذلك وجد بين المفكرين المسلمين من فتن بالفلسفة الإغريقية ـ وبخاصة شروح فلسفة أرسطو ـ أو المعلم الأول كما كانوا يسمونه ـ وبالمباحث اللاهوتية ـ « الميتافيزيقية » ـ وظنوا أن « الفكر الإسلامى » لا يستكمل مظاهر نضوجه واكتماله ، أو مظاهر أبهته وعظمته ، إلا إذا ارتدى هذا الزى ـ زى التفلسف والفلسفة ـ وكانت له فيه مؤلفات ! وكما يفتن منا اليوم ناس بأزياء التفكير الغربية ، فكذلك كانت فتنتهم بتلك الأزياء وقتها . فحاولوا إنشاء « فلسفة إسلامية » كالفلسفة الإغريقية . وحاولوا إنشاء « علم الكلام » على نسق المباحث اللاهوتية مبنية على منطق أرسطو !

وبدلاً من صياغة « التصور الإسلامى » فى قالب ذاتى مستقل ، وفق طبيعته الكلية ، التى تخاطب الكينونة البشرية جملة ، بكل مقوماتها وطاقاتها ، ولاتخاطب « الفكر البشرى » وحده خطاباً بارداً مصبوباً فى قالب المنطق الذهنى . . بدلاً من هذا فإنهم استعاروا « القالب » الفلسفى ليصبوا فيه « التصور الإسلامى » ، كما استعاروا بعض التصورات الفلسفية ذاتها ، وحاولوا أن يوفقوا بينها وبين التصور الإسلامى . . أما المصطلحات فقد كادت تكون كلها مستعارة !

ولما كانت هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة ، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة ، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات

الصغيرة المضطربة المفتعلة التى تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية . . فقد بدت « الفلسفة الإسلامية » ـ كما سميت ـ نشازاً كاملاً فى لحن العقيدة المتناسق! ونشأ من هذه المحاولات تخليط كثير ، شاب صفاء التصور الإسلامى ، وصغر مساحته ، وأصابه بالسطحية .

ذلك مع التعقيد والجفاف والتخليط . مما جعل تلك « الفلسفة الإسلامية » ومعها مباحث علم الكلام غريبة غربة كاملة على الإسلام ، وطبيعته ، وحقيقته ، ومنهجه ، وأسلوبه !

وأنا أعلم أن هذا الكلام سيقابل بالدهشة ـ على الأقل ! ـ سواء من كثير من المشتغلين عندنا بما يسمى « الفلسفة الإسلامية » أو من المشتغلين بالمباحث الفلسفية بصفة عامة . . ولكنى أقرره ، وأنا على يقين جازم بأن « التصور الإسلامى » لن يخلص من التشويه والانحراف والمسخ ، إلا حين نلقى عنه جملة بكل ما أطلق عليه اسم « الفلسفة الإسلامية » . وبكل مباحث « علم الكلام » وبكل ما ثار من الجدل بين الفرق الإسلامية المختلفة فى شتى العصور أيضاً ! ثم نعود إلى القرآن الكريم ، نستمد منه مباشرة « مقومات التصور الإسلامى » . مع بيان « خصائصه» التى تفرده من بين سائر التصورات . ولا بأس من بعض الموازنات ـ التى توضح هذه الخصائص ـ مع التصورات الأخرى ـ أما مقومات هذا التصور فيجب أن تستقى من القرآن مباشرة ، وتصاغ صياغة مستقلة . . تماماً .

ولعله مما يحتم هذا المنهج الذى أشرنا إليه أن ندرك ثلاث حقائق هامة :

الأولى : أن أول ما وصل إلى العالم الإسلامى من مخلفات الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحى ، وكان له أثر فى توجيه الجدل بين الفرق المختلفة وتلوينه ، لم يكن سوى شروح متأخرة للفلسفة الإغريقية ، منقولة نقلاً مشوها مضطرباً فى لغة سقيمة . مما ينشأ عنه اضطراب كثير فى نقل هذه الشروح !

والثانية : أن عملية التوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامى كانت تنم عن سذاجة كبيرة ، وجهل بطبيعة الفلسفة الإغريقية ، وعناصرها الوثنية العميقة ، وعدم استقامتها على نظام فكرى واحد ، وأساس منهجى واحد . مما

يخالف النظرة الإسلامية ومنابعها الأصيلة . . فالفلسفة الإغريقية نشأت فى وسط وثنى مشحون بالأساطير ، واستمدت جذورها من هذه الوثنية ومن هذه الأساطير ، ولم تخل من العناصر الوثنية الأسطورية قط . فمن السذاجة والعبث ـ كان ـ محاولة التوفيق بينها وبين التصور الإسلامى القائم على أساس « التوحيد » المطلق العميق التجريد . . ولكن المشتغلين بالفلسفة والجدل من المسلمين ، فهموا ـ خطأ ـ تحت تأثير ما نقل إليهم من الشروح المتأخرة المتأثرة بالمسيحية أن « الحكماء» ـ وهم فلاسفة الإغريق ـ لا يمكن أن يكونوا وثنيين ، ولا يمكن أن يحيدوا عن التوحيد ! ومن ثم التزموا عملية توفيق متعسفة بين كلام « الحكماء» وبين العقيدة الإسلامية . ومن هذه المحاولة كان ما يسمى « الفلسفة الإسلامية » !

والثالثة : أن المشكلات الواقعية فى العالم الإسلامى ـ تلك التى أثارت ذلك الجدل منذ مقتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ قد انحرفت بتأويلات النصوص القرآنية ، وبالأفهام والمفهومات انحرافاً شديداً . فلما بدأت المباحث لتأييد وجهات النظر المختلفة ، كانت تبحث عما يؤيدها من الفلسفات والمباحث اللاهوتية ، بحثاً مغرضاً فى الغالب ومن ثم لم تعد تلك المصادر ـ فى ظل تلك الخلافات ـ تصلح أساساً للتفكير الإسلامى الخالص ، الذى ينبغى أن يتلقى مقوماته ومفهوماته من النص القرآنى الثابت ، فى جو خالص من عقابيل تلك الخلافات التاريخية . ومن ثم يحسن عزل ذلك التراث جملة ! عن مفهومنا الأصيل للإسلام ، ودراسته دراسة تاريخية بحتة ، لبيان زوايا الانحراف فيه ، وأسباب هذا الانحراف ، وتجنب نظائرها فيما نصوغه اليوم من مفهوم التصور الإسلامى ، ومن أوضاع وأشكال ومقومات النظام الإسلامى أيضاً . .

* * *

وولقد سارت مناهج الفكر الغربى فى طريقها الخاص . مستمدة ابتداء من الفكر الإغريقى وما فيه من لوثة الوثنية ، ثم مستمدة أخيراً من عدائها للكنيسة ، وللتفكير الكنسى فى الغالب !

وكان الطابع العام لهذا الفكر منذ عصر النهضة ، وهو معارضة الكنيسة

الكاثوليكية وتصوراتها . ثم ـ فيما بعد ـ معارضة الكنيسة إطلاقاً ، ومعارضة التصور الدينى جملة . . والتصوراتُ الكنسية ـ بصفة عامة ـ لم تكن فى يوم من الأيام تمثل النصرانية الحقيقية . فإن الملابسات التى صاحبت نشأة النصرانية فى ظل الدولة الرومانية الوثنية ، ثم التى صاحبت دخول الدولة الرومانية فى النصرانية قد جنت على النصرانية الحقة جناية كبرى ، وحرفتها تحريفاً شديداً . حرفتها ابتداء بما أدخلت فيها من رواسب الوثنية الرومانية . ثم بما أضافته الكنيسة والمجامع بعد ذلك من التأويلات والإضافات التى ضمت ـ مع الأسف ـ إلى الأصل الإلهى فى النصرانية ، لمجاراة الأحداث السياسية ، والاختلافات المذهبية ، ولمحاولة تجميع المذاهب وتجميع القطاعات المتعارضة فى الدولة الرومانية فى مذهب واحد يرضى عنه الجميع[1] ! مما جعل « النصرانية » تعبيراً عن « التصور الكنسى » أكثر مما هى تعبير عن الديانة النصرانية المنزلة من عند الله .

ثم كان من جراء احتضان الكنيسة لهذه التصورات المنحرفة ، ومن جراء احتضانها كذلك لكثير من المعلومات الخاطئة أو الناقصة عن الكون ـ مما هو من شأن البحوث والدراسات والتجارب البشرية ـ أن وقفت موقفاً عدائيا خشنا من العلماء الطبيعيين حين قاموا يصححون هذه المعلومات « البشرية » الخاطئة أو الناقصة . ولم تكتف بالهجوم الفكرى عليهم ، بل استخدمت سلطانهم المادى ببشاعة ، فى التنكيل بكل المخالفين لتصوراتها الدينية والعلمية على السواء !

ومنذ ذلك التاريخ ، وإلى اليوم ، اتخذ « الفكر الأوربى » موقفاً عدائيا لا من الأفكار والتصورات الكنسية التى كانت سائدة يومذاك ، بل من الأفكار والتصورات الدينية على الإطلاق . بل تجاوز العداء الأفكار والتصورات الدينية إلى منهج التفكير الدينى بجملته ! واتجه الفكر الأوربى إلى ابتداع مناهج ومذاهب للتفكير ، الغرض الأساسى منها هو معارضة منهج الفكر الدينى ، والتخلص من سلطان الكنيسة ، بالتخلص من إله الكنيسة ! ومن كل ما يتعلق به من أفكار ومن مناهج للتفكير أيضاً » وكمن العداء للدين وللمنهج الدينى ، لا فى الموضوعات والفلسفات

---

(١) يراجع كتاب « الدعوة إلى الإسلام » تأليف « ت . و . أرنولد » الترجمة العربية ص ٥٢ .

والمذاهب التى أنشأها الفكر الأوربى ، بل فى صميم هذا الفكر ، وفى صميم المناهج التى يتخذها للمعرفة .

ومن ثم لم يعد نتاج الفكر الأوربى ، ولا مناهج التفكير الأوربية تصلح لأن تتخذ أساساً للفكر الإسلامى ، ولا لتجديد هذا الفكر ـ كما يعبر بعض المفكرين المسلمين أنفسهم . . وسيرى قارئ هذا البحث ـ بعد الفراغ منه ـ أنه لاسبيل لاستعارة مناهج الفكر الغربى ، ولا استعارة نتاج هذا الفكر الذى قام على أساس هذه المناهج ، للفكر الإسلامى !

* * *

منهجنا إذن فى هذا البحث عن : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » أن نستلهم القرآن الكريم مباشرة ـ بَعد الحياة فى ظلال القرآن طويلاً ـ وأن نستحضر ـ بقدر الإمكان ـ الجو الذى تنزلت فيه كلمات الله للبشر ، والملابسات الاعتقادية والاجتماعية والسياسية التى كانت البشرية تتيه فيها وقت أن جاءها هذا الهدى . ثم التيه الذى ضلت فيه بعد انحرافها عن الهدى الإلهى !

ومنهجنا فى استلهام القرآن الكريم ، ألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً . لامقررات عقلية ولا مقررات شعورية ـ من رواسب الثقافات التى لم نستقها من القرآن ذاته ـ نحاكم إليها نصوصه ، أو نستلهم معانى هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة .

لقد جاء النص القرآنى ـ ابتداء ـ لينشئ المقررات الصحيحة التى يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر ، وأن تقوم عليها حياتهم . وأقل ما يستحقه هذا التفضل من العلى الكبير ، وهذه الرعاية من الله ذى الجلال ـ وهو الغنى عن العالمين ـ أن يتلقوها وقد فرّغوا لها قلوبهم وعقولهم من كل غبش دخيل ، ليقوم تصورهم الجديد نظيفاً من كل رواسب الجاهليات ـ قديمها وحديثها على السواء ـ مستمدا من تعليم الله وحده. لا من ظنون البشر ، التى لاتغنى من الحق شيئاً !

ليست هناك إذن مقررات سابقة نحاكم إليها كتاب الله تعالى . إنما نحن نستمد مقرراتنا من هذا الكتاب ابتداء ، ونقيم على هذه المقررات تصوراتنا ومقرراتنا ! وهذا ـ

وحده ـ هو المنهج الصحيح ، فى مواجهة القرآن الكريم ، وفى استلهامه خصائص التصور الإسلامى ومقوّماته .

* * *

ثم إننا لا نحاول استعارة « القالب الفلسفى » فى عرض حقائق « التصور الإسلامى » اقتناعاً منا بأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين طبيعة « الموضوع » وطبيعة «القالب». وأن الموضوع يتأثر بالقالب . وقد تتغير طبيعته ويلحقها التشويه ، إذا عرض فى قالب ، فى طبيعته وفى تاريخه عداء وجفوة وغربة عن طبيعته ! الأمر المتحقق فى موضوع التصور الإسلامى والقالب الفلسفى . والذى يدركه من يتذوق حقيقة هذا التصور كما هى معروضة فى النص القرآنى ! .

نحن نخالف « إقبال» فى محاولته صياغة التصور الإسلامى فى قالب فلسفى ، مستعار من القوالب المعروفة عند هيجل من « العقليين المثاليين » وعند أوجست كونت من « الوضعيين الحسيين » .

إن العقيدة ـ إطلاقاً ـ والعقيدة الإسلامية ـ بوجه خاص ـ تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص ، وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع واللمسة المباشرة والإيحاء . الإيحاء بالحقائق الكبيرة ، التى لاتتمثل كلها فى العبارة . ولكن توحى بها العبارة . كما يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها . ولا يخاطب « الفكر » وحده فى الكائن البشرى . . أما الفلسفة فلها أسلوب آخر . إذ هى تحاول أن تحصر الحقيقة فى العبارة . ولما كان نوع الحقائق التى تتصدى لها يستحيل أن ينحصر فى منطوق العبارة ـ فضلاً عن أن جوانب أساسية من هذه الحقائق هى بطبيعتها أكبر من المجال الذى يعمل فيه « الفكر » البشرى[١] ـ فإن الفلسفة تنتهى حتماً إلى التعقيد والتخليط والجفاف ، كلما حاولت أن تتناول مسائل العقيدة !

ومن ثم لم يكن للفلسفة دور يذكر فى الحياة البشرية العامة ، ولم تدفع بالبشرية

---

(١) يراجع فى هذا الكتاب فصل : « الربانية » .

إلى الأمام شيئاً مما دفعتها العقيدة ، التى تقدمت البشرية على حدائها فى تيه الزمن ، وظلام الطريق .

لابد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة ، إذ أن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها ، ويطفئ إشعاعها وإيحاءها ، ويقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية الكثيرة .

ومن هنا يبدو التعقيد والجفاف والنقص والانحراف فى كل المباحث التى تحاول عرض العقيدة بهذا الأسلوب الغريب على طبيعتها ، وفى هذا القالب الذى يضيق عنها .

ولسنا حريصين على أن تكون هناك « فلسفة إسلامية » ! لسنا حريصين على أن يوجد هذا الفصل فى الفكر الإسلامى ، ولا أن يوجد هذا القالب فى قوالب الأداء الإسلامية ! فهذا لا ينقص الإسلام شيئاً فى نظرنا ، ولا ينقص « الفكر الإسلامى » . بل يدل دلالة قوية على أصالته ونقائه وتميزه !

* * *

وكلمة أخرى فى المنهج الذى نتوخاه فى هذا البحث أيضاً . .

إننا لانستحضر أمامنا انحرافاً معيناً من انحرافات الفكر الإسلامى ، أو الواقع الإسلامى ، ثم ندعه يستغرق اهتمامنا كله . بحيث يصبح الرد عليه وتصحيحه هو المحرك الكلى لنا فيما نبذله من جهد فى تقرير « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته» . . إنما نحن نحاول تقرير حقائق هذا التصور ـ فى ذاتها ـ كما جاء بها القرآن الكريم ، كاملة شاملة ، متوازنة متناسقة ، تناسق هذا الكون وتوازنه ، وتناسق هذه الفطرة وتوازنها .

ذلك أن استحضار انحراف معين ، أو نقص معين ، والاستغراق فى دفعه ، وصياغة حقائق التصور الإسلامى للرد عليه . . منهج شديد الخطر ، وله معقباته فى إنشاء انحراف جديد فى التصور الإسلامى لدفع انحراف قديم . . والانحراف انحراف على كل حال !!!

ونحن نجد نماذج من هذا الخطر فى البحوث التى تكتب بقصد « الدفاع » عن

الإسلام فى وجه المهاجمين له ، الطاعنين فيه ، من المستشرقين والملحدين قديماً وحديثاً . كما نجد نماذج منه فى البحوث التى تكتب للرد على انحراف معين ، فى بيئة معينة ، فى زمان معين !

يتعمد بعض الصليبيين والصهيونيين مثلاً أن يتهم الإسلام بأنه دين السيف ، وأنه انتشر بحد السيف . . فيقوم منا مدافعون عن الإسلام يدفعون عنه هذا «الاتهام»! وبينما هم مشتطون فى حماسة « الدفاع » يسقطون قيمة « الجهاد » فى الإسلام ، ويضيقون نطاقه ويعتذرون عن كل حركة من حركاته ، بأنها كانت لمجرد «الدفاع» ! ـ بمعناه الاصطلاحى الحاضر الضيق ! ـ وينسون أن للإسلام ـ بوصفه المنهج الإلهى الأخير للبشرية ـ حقه الأصيل فى أن يقيم « نظامه » الخاص فى الأرض ، لتستمتع البشرية كلها بخيرات هذا « النظام » . . ويستمتع كل فرد ـ فى داخل هذا النظام ـ بحرية العقيدة التى يختارها ، حيث « لا إكراه فى الدين » من ناحية العقيدة . . أما إقامة « النظام الإسلامى » ليظلل البشرية كلها ممن يعتنقون عقيدة الإسلام وممن لا يعتنقونها ، فتقتضى الجهاد لإنشاء هذا النظام وصيانته ، وترك الناس أحراراً فى عقائدهم الخاصة فى نطاقه . ولا يتم ذلك إلا بإقامة سلطان خير وقانون خير ونظام خير يحسب حسابه كل من يفكر فى الاعتداء على حرية الدعوة وحرية الاعتقاد فى الأرض !

وليس هذا إلا نموذجاً واحداً من التشويه للتصور الإسلامى ، فى حماسة الدفاع عنه ضد هجوم ماكر ، على جانب من جوانبه !

أما البحوث التى كتبت للرد على انحراف معين ، فأنشأت هى بدورها انحرافاً آخر ، فأقرب ما نتمثل به فى هذا الخصوص ، توجيهات الأستاذ الإمام الشيخ « محمد عبده » . ومحاضرات « إقبال » فى موضوع : « تجديد الفكر الدينى فى الإسلام »[1] .

لقد واجه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، بيئة فكرية جامدة ، أغلقت باب «الاجتهاد » وأنكرت على « العقل » دوره فى فهم شريعة الله واستنباط الأحكام منها ، واكتفت بالكتب التى ألفها المتأخرون فى عصور الجمود العقلى وهى ـ فى الوقت ذاته ـ

---

(١) ترجمة الأستاذ عباس محمود .

تعتمد على الخرافات والتصورات الدينية العامية ! كما واجه فترة كان « العقل » فيها يعبد فى أوربا ويتخذه أهلها إلهاً ، وخاصة بعد الفتوحات العلمية التى حصل فيها العلم على انتصارات عظيمة ، وبعد فترة كذلك من سيادة الفلسفة العقلية التى تؤله العقل ! وذلك مع هجوم من المستشرقين على التصور الإسلامى ، وعقيدة القضاء والقدر فيه ، وتعطيل العقل البشرى والجهد البشرى عن الإيجابية فى الحياة بسبب هذه العقيدة . . . إلخ . فلما أراد أن يواجه هذه البيئة الخاصة ، بإثبات قيمة « العقل » تجاه « النص » . وإحياء فكرة «الاجتهاد » ومحاربة الخرافة والجهل والعامية فى « الفكر الإسلامى » . . ثم إثبات أن الإسلام جعل للعقل قيمته وعمله فى الدين والحياة ، وليس ـ كما يزعم « الإفرنج » أنه قضى على المسلمين « بالجبر » المطلق وفقدان « الاختيار » . . لما أراد أن يواجه الجمود العقلى فى الشرق ، والفتنة بالعقل فى الغرب ، جعل « العقل » البشرى ندًّا للوحى فى هداية الإنسان ، ولم يقف به عند أن يكون جهازاً ـ من أجهزة ـ فى الكائن البشرى ، يتلقى الوحى . ومنع أن يقع خلاف ما بين مفهوم العقل وما يجىء به الوحى . ولم يقف بالعقل عند أن يدرك ما يدركه ، ويسلم بما هو فوق إدراكه ، بما أنه ـ هو والكينونة الإنسانية بجملتها ـ غير كلى ولا مطلق ، ومحدود بحدود الزمان والمكان ، بينما الوحى يتناول حقائق مطلقة فى بعض الأحيان كحقيقة الألوهية ، وكيفية تعلق الإرادة الإلهية بخلق الحوادث . . وليس على العقل إلا التسليم بهذه الكليات المطلقة ، التى لا سبيل له إلى إدراكها [1] ! . . وساق حجة تبدو منطقية ، ولكنها من فعل الرغبة فى تقويم ذلك الانحراف البيئىّ الخاص الذى يحتقر العقل ويهمل دوره . . قال رحمه الله فى رسالة التوحيد :

« فالوحى بالرسالة الإلهيّة أثر من اثار الله . والعقل الإنسانى أثر أيضاً من آثار الله فى الوجود . وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض ، ولا يعارض بعضها بعضاً» . .

وهذا صحيح فى عمومه . . ولكن يبقى أن الوحى والعقل ليسا ندين . فأحدهما أكبر من الآخر وأشمل . وأحدهما جاء ليكون هو الأصل الذى يرجع إليه الآخر .

---

(١) يراجع فى هذا البحث فصل : الربانية .

والميزان الذى يختبر الآخر عنده مقرراته ومفهوماته وتصوراته . ويصحح به اختلالاته وانحرافاته . فبينهما ـ ولاشك ـ توافق وانسجام . ولكن على هذا الأساس . لا على أساس أنهما ندان متعادلان ، وكفو أحدهما تماماً للآخر ! فضلاً على أن العقل المبرأ من النقص والهوى لا وجود له فى دنيا الواقع ، وإنما هو « مثال » !

وقد تأثر تفسير الأستاذ الإمام لجزء عم بهذه النظرة تأثراً واضحاً . وتفسير تلميذه المرحوم الشيخ رشيد رضا وتفسير تلميذه الأستاذ الشيخ المغربى لجزء « تبارك » حتى صرح مرات بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل ! وهو مبدأ خطر . فإطلاق كلمة « العقل » يرد الأمر إلى شىء غير واقعى ! ـ كما قلنا ـ فهناك عقلى وعقلك وعقل فلان وعقل علان . . وليس هنالك عقل مطلق لا يتناوبه النقص والهوى والشهوة والجهل يحاكم النص القرآنى إلى « مقرراته » . وإذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه العقول الكثيرة ، فإننا ننتهى إلى فوضى !

وقد نشأ هذا كله من الاستغراق فى مواجهة انحراف معين . . ولو أخذ الأمر ـ فى ذاته ـ لعرف للعقل مكانه ومجال عمله بدون غلو ولا إفراط ، وبدون تقصير ولا تفريط كذلك . وعرف للوحى مجاله . وحفظت النسبة بينهما فى مكانها الصحيح . .

إن « العقل » ليس منفيا ولا مطروداً ولا مهملاً فى مجال التلقى عن الوحى ، وفهم ما يتلقى وإدراك ما من شأنه أن يدركه ، مع التسليم بما هو خارج عن مجاله . ولكنه كذلك ليس هو « الحكم » الأخير . وما دام النص مُحكماً ، فالمدلول الصريح للنص من غير تأويل هو الحكم . وعلى العقل أن يتلقى مقرراته هو من مدلول هذا النص الصريح . ويقيم منهجه على أساسه (وفى صلب هذا البحث تفصيل واف للحد المأمون والمنهج الإسلامى المستقيم) .

ولقد واجه « إقبال » فى العالم الشرقى بيئة فكرية « تائهة ! » فى غيبوبة « إشراقات» التصوف « العجمى » كما يسميه ! . . فراعه هذا « الفناء » الذى لا وجود فيه للذاتية الإنسانية . كما راعته « السلبية » التى لا عمل معها للإنسان ولا أثر فى هذه الأرض ـ وليس هذا هو الإسلام بطبيعة الحال ـ كما واجه من ناحية أخرى التفكير الحسى فى المذهب الوضعى ، ومذهب التجريبيين فى العالم الغربى . كذلك واجه ما أعلنه

نيتشه فى « هكذا قال زرادشت » عن مولد الإنسان الأعلى (السوبرمان) وموت الإلّه! وذلك فى تخبطات الصرع التى كتبها نيتشه وسماها بعضهم « فلسفة » ! .

وأراد أن ينفض عن « الفكر الإسلامى » وعن « الحياة الإسلامية » ذلك الضياع والفناء والسلبية . كما أراد أن يثبت للفكر الإسلامى واقعية « التجربة » التى يعتمد عليها المذهب التجريبى ثم المذهب الوضعى !

ولكن النتيجة كانت جموحاً فى إبراز الذاتية الإنسانية ، اضطر معه إلى تأويل بعض النصوص القرآنية تأويلاً تأباه طبيعتها ، كما تأباه طبيعة التصور الإسلامى . لإثبات أن الموت ليس نهاية للتجربة . ولا حتى القيامة . فالتجربة والنمو فى الذات الإنسانية مستمران أيضاً ـ عند إقبال ـ بعد الجنة والنار . مع أن التصور الإسلامى حاسم فى أن الدنيا دار ابتلاء وعمل ، وأن الآخرة دار حساب وجزاء . وليست هنالك فرصة للنفس البشرية للعمل إلا فى هذه الدار . كما أنه لا مجال لعمل جديد فى الدار الآخرة بعد الحساب والجزاء . . ولكن هذا الغلو إنما جاء من الرغبة الجارفة فى إثبات « وجود » الذاتية ، واستمرارها ، أو الـ « أنا » كما استعار إقبال من اصطلاحات هيجل الفلسفية .

ومن ناحية أخرى اضطر إلى إعطاء اصطلاح « التجربة » مدلولاً أوسع مما هو فى «الفكر الغربى » وفى تاريخ هذا الفكر . لكى يمد مجاله إلى « التجربة الروحية » التى يزاولها المسلم ويتذوق بها الحقيقة الكبرى . « فالتجربة » بمعناها الاصطلاحى الفلسفى الغربى ، لا يمكن أن تشمل الجانب الروحى أصلاً ! لأنها نشأت ابتداء لنبذ كل وسائل المعرفة التى لا تعتمد على التجربة الحسية .

ومحاولة استعارة الاصطلاح الغربى ، هى التى قادت إلى هذه المحاولة . التى يتضح فيها الشد والجذب والجفاف أيضًا . حتى مع شاعرية إقبال الحية المتحركة الرفافة !

ولست أبتغى أن أنقص من قدر تلك الجهود العظيمة المثمرة فى إحياء الفكر الإسلامى وإنهاضه التى بذلها الأستاذ الإمام وتلاميذه ، والتى بذلها الشاعر إقبال . . رحمهم الله رحمة واسعة . . وإنما أريد فقط التنبيه إلى أن دفعة الحماسة لمقاومة

انحراف معين ، قد تنشئ هى انحرافاً آخر . وأن الأَوْلى فى منهج البحث الإسلامى ، هو عرض حقائق التصور الإسلامى فى تكاملها الشامل ، وفى تناسقها الهادئ . ووفق طبيعتها الخاصة وأسلوبها الخاص . .

* * *

وأخيراً فإن هذا البحث ليس كتاباً فى « الفلسفة » ولا كتاباً فى « اللاهوت » ولا كتاباً فى « الميتافيزيقا » . . إنه عمل يمليه الواقع . وهو يخاطب الواقع أيضاً . .

لقد جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها من الركام الذى كان ينوء بأفكارها وحياتها ويثقلها . ومن التيه الذى كانت أفكارها وحياتها شاردة فيه . ولينشئ لها تصوراً خاصا متميزاً متفرداً ، وحياة أخرى تسير وفق منهج الله القويم . فإذا بالبشرية كلها اليوم ترتكس إلى التيه وإلى الركام الكريه !

ولقد جاء الإسلام لينشئ أمة ، يسلمها قيادة البشرية ، لتنأى بها عن التيه وعن الركام . . فإذا هذه الأمة اليوم تترك مكان القيادة ، وتترك منهج القيادة ، وتلهث وراء الأمم الضاربة فى التيه ، وفى الركام الكريه !

هذا الكتاب محاولة لتحديد خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ، التى ينبثق منها منهج الحياة الواقعى ـ كما أراده الله ـ ودستور النشاط الفكرى والعلمى والفنى ، الذى لابد أن يستمد من التفسير الشامل الذى يقدمه ذلك التصور الأصيل . وكل بحث فى جانب من جوانب الفكرة الإسلامية أو النظام الإسلامى ، لابد له من أن يرتكن أولاً إلى فكرة الإسلام .

والحاجة إلى جلاء تلك الفكرة هى حاجة العقل والقلب . وحاجة الحياة والواقع . وحاجة الأمة المسلمة والبشرية كلها على السواء .

وهذا القسم الأول من البحث يتناول « خصائص التصور الإسلامى » وسيتناول القسم الثانى : « مقومات التصور الإسلامى » [والله الموفق والهادى والمعين] .

تيه وركام

«أَفَمَنْ يَمْشِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدى ؟
أم من يَمْشِى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟»

جاء الإسلام ، وفى العالم ركام هائل ، من العقائد والتصورات ، والفلسفات ، والأساطير ، والأفكار والأوهام ، والشعائر والتقاليد ، والأوضاع والأحوال . . يختلط فيها الحق بالباطل ، والصحيح بالزائف ، والدين بالخرافة ، والفلسفة بالأسطورة . . والضمير البشرى ـ تحت هذا الركام الهائل ـ يتخبط فى ظلمات وظنون ، لايستقر منها على يقين . والحياة الإنسانية ـ بتأثير هذا الركام الهائل ـ تتخبط فى فساد وانحلال ، وفى ظلم وذل ، وفى شقاء وتعاسة ، لا تليق بالإنسان ، بل لا تليق بقطيع من الحيوان !

وكان التيه الذى لا دليل فيه ، ولا هدى ولا نور ، ولا قرار ولا يقين . . هو ذلك التيه الذى يحيط بتصور البشرية لإلهها وصفاته ، وعلاقته بالكون وعلاقة الكون به ، وحقيقة الإنسان ، ومركزه فى هذا الكون ، وغاية وجوده الإنسانى ، ومنهج تحقيقه لهذه الغاية . . ونوع الصلة بين الله والإنسان على وجه الخصوص . . ومن هذا التيه ومن ذلك الركام كان ينبعث الشر كله فى الحياة الإنسانية ، وفى الأنظمة التى تقوم عليها .

ولم يكن مستطاعاً أن يستقر الضمير البشرى على قرار فى أمر هذا الكون ، وفى أمر نفسه ، وفى غاية وجوده وفى منهج حياته ، وفى الارتباطات التى تقوم بين الإنسان والكون ، والتى تقوم بين أفراده هو وتجمعاته . . لم يكن مستطاعاً أن يستقر الضمير البشرى على قرار فى شىء من هذا كله ، قبل أن يستقر على قرار فى أمر

عقيدته ، وفى أمر تصوره لإلهه ، وقبل أن ينتهى إلى يقين واضح ، فى وسط هذا العماء الطاخى ، وهذا التيه المضل ، وهذا الركام الثقيل .

ولم يكن الأمر كذلك لأن التفكير الدينى كان هو طابع القرون الوسطى ـ كما يقول مفكرو الغرب ، فيتلقف قولتهم هذه ببغاوات الشرق ! ـ كلا . . إنما كان الأمر كذلك لأن هناك حقيقتين أساسيتين ، ملازمتين للحياة البشرية ، وللنفس البشرية ، على كل حال ، وفى كل زمان :

الحقيقة الأولى : أن هذا الإنسان ـ بفطرته ـ لا يملك أن يستقر فى هذا الكون الهائل ذرة تائهة مفلتة ضائعة . فلابد له من رباط معين بهذا الكون ، يضمن له الاستقرار فيه ، ومعرفة مكانه فى هذا الكون الذى يستقر فيه . فلابد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله ، وتفسر له مكانه فيما حوله . فهى ضرورة فطرية شعورية ، لا علاقة لها بملابسات العصر والبيئة . . وسنرى حين يتقدم بنا هذا البحث كم كان شقاء الإنسان وحيرته وضلاله حين أخطأ حقيقة هذا الارتباط ، وحقيقة هذا التفسير.

والحقيقة الأخرى : هى أن هناك تلازماً وثيقاً بين طبيعة التصور الاعتقادى ، وطبيعة النظام الاجتماعى . . تلازماً لا ينفصل ، ولا يتعلق بملابسات العصر والبيئة . . بل إن هناك ماهو أكثر من التلازم . . هناك الانبثاق الذاتى . . فالنظام الاجتماعى هو فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود ، ولمركز الإنسان فيه ووظيفته ، وغاية وجوده الإنسانى . وكل نظام اجتماعى لايقوم على أساس هذا التفسير ، هو نظام مصطنع . لايعيش . وإذا عاش فترة شقى به « الإنسان » ، ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتماً . . فهى ضرورة تنظيمية ، كما أنها ضرورة شعورية .

ولقد كان الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من لدن نوح إلى عيسى . . قد بينوا للناس هذه الحقيقة ، وعرفوهم بإلههم تعريفاً صحيحاً ، وأوضحوا لهم مركز « الإنسان » فى الكون ، وغاية وجوده . . ولكن الانحرافات الدائمة عن هذه الحقيقة ، تحت ضغط الظروف السياسية والشهوات البشرية ، والضعف الإنسانى ، كانت قد غشت تلك الحقيقة ، وأضلت البشرية عنها ، وأهالت عليها ركاماً ثقيلاً

يصعب رفعة بغير رسالة جديدة كاملة شاملة ، ترفع هذا الركام ، وتبدد هذا الظلام ، وتنير هذا التيه ، وتقر التصور الاعتقادى على أساس من الحق الخالص ، وتقيم الحياة الإنسانية على أساس مستقر من ذلك التصور الصحيح . وما كان يمكن أن ينصرف أصحاب التصورات المنحرفة فى الأرض كلها ، وأن ينفكوا عمّا هم فيه ، إلا بهذه الرسالة ، وإلا بهذا الرسول . . وصدق الله العظيم :

« لم يكن الذين كفروا ـ من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » . .

(البينة : ١ ، ٢)

ولايدرك الإنسان ضرورة هذه الرسالة ، وضرورة هذا الانفكاك عن الضلالات التى كانت البشرية تائهة فى ظلماتها ، وضرورة الاستقرار على يقين واضح فى أمر العقيدة . . حتى يطلع على ضخامة ذلك الركام ، وحتى يرتاد ذلك التيه ، من العقائد والتصورات ، والفلسفات والأساطير ، والأفكار والأوهام ، والشعائر والتقاليد ، والأوضاع والأحوال ، التى جاء الإسلام فوجدها ترين على الضمير البشرى فى كل مكان ، وحتى يدرك حقيقة البلبلة والتخليط والتعقيد . التى كانت تتخبط فيها بقايا العقائد السماوية ، التى دخلها التحريف والتأويل ، والإضافات البشرية إلى المصادر الإلهَية ، والتى التبست بالفلسفات والوثنيات والأساطير سواء !

ولما لم يكن قصدنا ـ فى هذا البحث ـ هو عرض هذه التصورات ، إنما هو عرض التصور الإسلامى ، وخصائصه ومقوماته . . فإننا نكتفى بعرض بعض النماذج من التصورات الدينية فى اليهودية والمسيحية ـ كما وصلت إلى عرب الجزيرة ـ وبعض النماذج من التصورات الجاهلية العربية التى جاء الإسلام فواجهها هناك .

* * *

لقد حفلت ديانة بنى إسرائيل ـ اليهودية ـ بالتصورات الوثنية ، وباللوثة القومية على السواء . فبنو إسرائيل ـ وهو يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ـ جاءتهم رسلهم ـ وفى أولهم أبوهم إسرائيل ـ بالتوحيد الخالص ، الذى علمهم إياه أبوهم إبراهيم . ثم جاءهم نبيهم الأكبر موسى ـ عليه السلام ـ بدعوة التوحيد أيضاً

مع الشريعة الموسوية المبنية على أساسه . ولكنهم انحرفوا على مدى الزمن ، وهبطوا فى تصوراتهم إلى الوثنيات ، وأثبتوا فى كتبهم (المقدسة !) وفى صلب (العهد القديم) أساطير وتصورات عن الله ـ سبحانه ـ لاترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإغريق وغيرهم من الوثنيين ، الذين لم يتلقوا رسالة سماوية ، ولا كان لهم من عند الله كتاب . .

ولقد كانت عقيدة التوحيد التى أسسها جدهم إبراهيم ـ عيه السلام ـ عقيدة خالصة ناصعة شاملة متكاملة واجه بها الوثنية مواجهة حاسمة كما صورها القرآن الكريم ، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه قبل أن يموت :

« واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون ؟ قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ! قال : هل يسمعونكم إذا تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ! قال : أفرأيتم ، ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . . رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولاتخزنى يوم يبعثون . يوم لاينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » .

(الشعراء ٦٩ ـ ٨٩)

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه : أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ؟ إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » .

(البقرة ١٣٠ ـ ١٣٣)

ومن هذا التوحيد الخالص ، وهذه العقيدة الناصعة ، وهذا الاعتقاد فى الآخرة انتكس الأحفاد . وظلوا فى انتكاسهم حتى جاءهم موسى عليه السلام بعقيدة التوحيد والتنزيه من جديد . . والقرآن الكريم يذكر أصول هذه العقيدة التى جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ لبنى إسرائيل ، ويذكر تراجعهم عنها :

« وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل : لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً ، وذى القربى واليتامى والمساكين . وقولوا للناس حسناً . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون . وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان . . . » .

(البقرة ٨٣ ـ ٨٥)

« ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور . خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم . قل . : بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .

(البقرة : ٩٢ ـ ٩٣)

ولقد بدأ انحرافهم ، وموسى عليه السلام بين أظهرهم . . من ذلك عبادتهم للعجل الذى صنعه لهم السامرى ، من الذهب الذى حملوه معهم من حلى نساء المصريين . وهو العجل الذى أشير إليه فى الآيات السابقة . . وقبل ذلك كانوا قد مرّوا عقب خروجهم من مصر ، على قوم يعبدون الأصنام ، فطلبوا إلى موسى عليه السلام أن يقيم لهم صنماً يعبدونه !

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . قالوا : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ماهم فيه وباطلٌ ماكانوا يعملون » .

(الأعراف : ١٣٨ ـ ١٣٩)

وكذلك حكى القرآن الكثير عن انحرافهم وسوء تصورهم لله سبحانه وشركهم ووثنيتهم :

« وقالت اليهود عزير ابن الله » . .

(التوبة : ٣٠) .

« وقالت اليهود : يد الله مغلولة : غُلت أيديهم ولُعنوا بما قالوا : بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » . .

(المائدة : ٦٤)

« لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق . ونقول : ذوقوا عذاب الحريق » . .

(آل عمران : ١٨١) .

« وإذ قلتم : ياموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون » .

(البقرة : ٥٥)

ومن لوثة القومية واعتقادهم أن إلهَهم إلَه قومى ! لا يحاسبهم بقانون الأخلاق إلا فى سلوكهم مع بعضهم البعض . أما الغرباء ـ غير اليهود ـ فهو لايحاسبهم معهم على سلوك معيب ! . . من هذه اللوثة كان قولهم الذى حكاه القرآن الكريم :

«ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً . ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

(آل عمران : ٧٥)

وقد تضمنت كتبهم المحرفة أوصافاً لإلَهم لا ترتفع كثيراً على أوصاف الإغريق فى وثنيتهم لآلهتم :

جاء فى الإصحاح الثالث من سفر التكوين : (بعد ارتكاب آدم لخطيئة الأكل من الشجرة . وهى كما يقول كاتب الإصحاح : شجرة معرفة الخير والشر) :

« وسمعنا صوت الرب الإلَه ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار . فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإلَه ، فى وسط شجر الجنة . فنادى الرب الإلَه آدم . وقال له : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك فى الجنة ، فخشيت لأنى عريان ، فاختبأت . فقال من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها؟ . .

« وقال الرب الإله : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا ، عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ! ويأكل ويحيا إلى الأبد . . فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ، ليعمل فى الأرض التى أخذ منها . فطرد الإنسان . وأقام شرقىّ جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب ، لحراسة شجرة الحياة ! » .

وعن سبب الطوفان جاء فى هذا السفر نفسه :

« وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض ، وولد لهم بنات ، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات . فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا . فقال الرب: لا يدين روحى فى الإنسان إلى الأبد . لزيغانه . هو بشر . وتكون أيامه مئة وعشرين سنة . . كان فى الأرض طغاة فى تلك الأيام . . وبعد ذلك أيضاً . إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن أولاداً . هؤلاء هم الجبابرة ، الذين منذ الدهر ذوو اسم ! ! !

«ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض . وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم . فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض . وتأسف فى قلبه . فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء . لأنى حزنت أنى عملتهم . وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب » .

وجاء فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين (بعد ما عمرت الأرض بذرية نوح) :

« وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة . وحدث فى ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا نعمة فى أرض شنعار ، وسكنوا هناك . وقال بعضهم لبعض : هلم نصنع لبناً ونشويه شيا ، فكان لهم اللبن مكان الحجر . وكان لهم الحمر مكان الطين . وقالوا : هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء . ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض . . فنزل الرب المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما . وقال الرب : هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم ، وهذا ابتداؤهم بالعمل . والآن لايمتنع عليهم كل ماينوون أن يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم ، حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض . فكفوا

عن بنيان المدينة . لذلك دعى اسمها (بابل) لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض » !!!

وجاء فى سفر صموئيل الثانى : الإصحاح الرابع والعشرين : «فجعل الرب وباءً فى إسرائيل من الصباح إلى الميعاد . فمات من الشعب ـ من دان إلى بئر سبع ـ سبعون ألف رجل . وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها . فندم الرب عن الشر . فقال للملاك المهلك الشعب : كفى الآن رويدك ! » . .

* * *

ولم تكن الحال مع النصرانية خيراً مما كانت مع اليهودية . بل كان الأمر أدهى وأمر . . عبرت النصرانية إلى الدولة الرومانية الوثنية فى أشد عصور الوثنية والانحلال فى هذه الدولة . ثم أخذت تنتشر حتى استطاعت أن تولى قسطنطين امبراطوراً فى سنة ٣٠٥ ميلادية . ومن ثم دخلت الإمبراطورية الرومانية فى النصرانية . لا لتخضع للنصرانية . ولكن لتخضع النصرانية لوثنيتها العريقة . وفى هذا يقول الكاتب الأمريكى : درابر فى كتابه : « الصراع بين الدين والعلم»

« دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين ، الذين تقلدوا وظائف خطيرة ، ومناصب عالية فى الدولة الرومانية ، بتظاهرهم بالنصرانية . ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين . ولم يخلصوا له يوماً من الأيام . وكذلك كان قسطنطين . . فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً فى آخر عمره سنة ٣٣٧ ميلادية .

« إن الجماعة النصرانية ، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين المُلك ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية ، وتقتلع جرثومتها . وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد ، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء . . هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية ، إذ قضى على منافسه (الوثنية) قضاء باتاً ، ونشر عقائده خالصة بغير غبش .

« وإن هذا الإمبراطور الذى كان عبداً للدنيا ، والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئاً ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين ـ النصرانى

والوثنى ـ أن يوحدهما ويؤلف بينهما . حتى أن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة . ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ونقحت بالعقائد الوثنية القديمة ، وسيخلص الدين النصرانى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها [(١)] » .

ولكن الديانة الجديدة لم تتخلص قط من أدناس الوثنية وأرجاسها ، وتصوراتها الأسطورية ـ كما أمّل النصارى الراسخون ـ فقد ظلت تتلبس بالخلافات السياسية والعنصرية والطائفية ، تلبسها بالأساطير الوثنية والتصورات الفلسفية . ووقع الانقسام فى التصور بغير حد :

قالت فرقة : إن المسيح إنسان محض . وقالت فرقة : إن الأب والابن وروح القدس إن هى إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس . فالله ـ بزعمهم ـ مركب من أقانيم ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ؟ (والابن هو المسيح) فانحدر الله ، الذى هو الأب، فى صورة روح القدس وتجسد فى مريم انساناً ، وولد منها فى صورة يسوع . وفرقة قالت : إن الإبن ليس أزليا كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم ، ولذلك هو دون الأب وخاضع له . وفرقة أنكرت كون روح القدس أقنوماً . . وقرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية ، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ أن الإبن وروح القدس مساويان للأب فى وحدة اللاهوت ، وأن الابن قد ولد منذ الأزل من الأب ، وأن روح القدس منبثق من الأب . . وقرر مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ بأن روح القدس منبثق من الابن أيضاً . فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين . . كذلك ألهت جماعة منهم مريم كما ألّـهو المسيح عيه السلام . .

ويقول الدكتور ألفرد بتلر فى كتابه : « فتح العرب لمصر . ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد » :

« إن ذينك القرنين ـ الخامس والسادس ـ كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين . نضال يذكيه اختلاف فى الجنس ، واختلاف فى الدين . وكان

---

(١) ترجمة الأستاذ السيد أبوالحسن الندوى فى كتابه : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس . إذ كانت علة العلل فى ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوفيسية . وكانت الطائفة الأولى ـ كما يدل عليه اسمها ـ حزب مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاد وكانت تعتقد العقيدة السية الموروثة ـ وهى ازدواج طبيعة المسيح ـ على حين أن الطائفة الأخرى ـ وهى حزب القبط المنوفيسيين ـ أهل مصر ـ كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها ، وتحاربها حرباً عنيفة . فى حماسة هوجاء ، يصعب علينا أن نتصورها ، أو نعرف كنهها فى قوم يعقلون ، بله يؤمنون بالإنجيل !» .

ويقول « سيرت . و . أرنولد » فى كتابه : « الدعوة إلى الإسلام » عن هذا الخلاف ، ومحاولة هرقل لتسويته بمذهب وسط :

« ولقد أفلح جستنيان Justinian قبل الفتح الإسلامى بمئة عام فى أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهراً من مظاهر الوحدة . ولكنها سرعان ما تصدعت بعد موته ، وأصبحت فى حاجة ماسة إلى شعور قومى مشترك ، يربط بين الولايات وحاضرة الدولة . أما هرقل فقد بذل جهوداً لم تصادف نجاحاً كاملاً فى إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية . ولكن ما اتخذه من وسائل عامة فى سبيل التوفيق قد أدى لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلاً من القضاء عليه . ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية . فحاول بتفسيره العقيدة تفسيراً يستعين به على تهدئة النفوس ، أن يقف كل ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات ، وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية ، وبينهم وبين الحكومة المركزية .

« وكان مجمع خلقيدونة قد أعلن فى سنة ٤٥١م « أن المسيح ينبغى أن يُعترف بأنه يتمثل فى طبيعتين ، لا اختلاط بينهما ، ولاتغير ولاتجزؤ ، ولا انفصال . ولايمكن أن ينتفى اختلافهما بسبب اتحادهما . بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها، وتجتمع فى أقنوم واحد ، وجسد واحد ، لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة فى أقنومين . بل متجمعة فى أقنوم واحد : هو ذلك الابن الواحد والله والكلمة .

« وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع . وكانوا لايعترفون فى المسيح إلا بطبيعة واحدة . وقالوا : إنه مركب الأقاليم ، له كل الصفات الإلهَية والبشرية . ولكن المادة التى تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية ، بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم .

« وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص فى مصر والشام ، والبلاد الخارجة عن نطاق الإمبراطورية البيزنطية ، فى الوقت الذى سعى فيه هرقل فى إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة : Monotheletism : ففى الوقت الذى نجد هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين ، إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم فى حياة المسيح البشرية . وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة فى أقنوم واحد . فالمسيح الواحد ، الذى هو ابن الله ، يحقق الجانب الإنسانى ، والجانب الإلهَى . بقوة إلهَية إنسانية واحدة . ومعنى ذلك أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة فى الكلمة المتجسدة .

« لكن هرقل قد لقى المصير الذى انتهى إليه كثيرون جدا ، ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام ، ذلك أن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف مايكون الاحتدام فحسب . بل إن هرقل نفسه قد وصم بالإلحاد ، وجر على نفسه سخط الطائفتين سواء »[1] !

وقد ورد فى القرآن الكريم بعض الاشارات إلى هذه الانحرافات ، ونهى لأهل الكتاب عنها ، وتصحيح حاسم لها ، وبيان لأصل العقيدة النصرانية كما جاءت من عند الله ، قبل التحريف والتأويل :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار . . لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ؟ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم

---

(١) ص ٥٢ من الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم حسن وزميليه .

الآيات ، ثم انظرأنى يؤفكون . قل : أتعبدون من دون الله مالايملك لكم ضرا ولا نفعاً ؟ والله هو السميع العليم . قل : يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل» . . . .

(المائدة : ٧٢ ـ ٧٧) .

« وقالت اليهود عزير ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواهم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله أنى يؤفكون؟» . . .

(التوبة ٣٠) .

« وإذا قال الله : يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ! مايكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته . تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم . وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم . فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . . .

(المائدة : ١١٦ ـ ١١٨)

« وهكذا نرى مدى الانحراف الذى دخل على النصرانية ، من جراء تلك الملابسات التاريخية ، حتى انتهت إلى تلك التصورات الوثنية الأسطورية ، التى دارت عليها الخلافات والمذابح عدة قرون !

* * *

أما الجزيرة العربية التى نزل فيها القرآن ، فقد كانت تعج بركام العقائد والتصورات . ومن بينها ما نقلته من الفرس وما تسرب إليها من اليهودية والمسيحية فى صورتها المنحرفة . . مضافاً إلى وثنيتها الخاصة المتخلفة من الانحرافات فى ملة إبراهيم التى ورثها العرب صحيحة ثم حرفوها ذلك التحريف . والقرآن يشير إلى ذلك الركام كله بوضوح :

زعموا أن الملائكة بنات الله ـ مع كراهيتهم هم للبنات ! ـ ثم عبدوا الملائكة ـ أو تماثيلها الأصنام ـ معتقدين أن لها عند الله شفاعة لا ترد ، وأنهم يتقربون بها إليه سبحانه :

« وجعلوا له من عباده جزءاً . إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ؟! وجعلوا الملائكة ـ الذين هم عباد الرحمن ـ إناثاً . أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم . مالهم بذلك من علم، إن هم إلا يخرصون» . . .

(الزخرف : ١٥ ـ ٢٠)

« ألا لله الدين الخالص . والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لايهدى من هو كاذب كفار . لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء . سبحانه هو الله الواحد القهار» . .

(الزمر : ٣ ـ ٤)

« ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل : أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون » . .

(يونس : ١٨)

وزعموا أن بين الله ـ سبحانه ـ وبين الجنة نسباً . وأن له ـ سبحانه ـ منهم صاحبة. ولدت له الملائكة ! وعبدوا الجن أيضاً . . قال الكلبى فى كتاب الأصنام : « كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن» [١] .

وجاء فى القرآن الكريم عن هذه الأسطورة :

« فاستفتهم : ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون؟.

ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله . وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم ؟ ؟ كيف تحكمون ؟ أفلا تذكّرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجِنّة نسباً ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . سبحان الله عما يصفون » . . .

(الصافات : ١٤٩ ـ ١٥٩)

---

(١) كتاب الأصنام : ص ٣٤

« ويوم يحشرهم جميعاً ، ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون» . . .

(سبأ : ٤٠ ـ ٤١)

وشاعت بينهم عبادة الأصنام إما بوصفها تماثيل للملائكة ، وإما بوصفها تماثيل للأجداد ، وإما لذاتها . وكانت الكعبة ، التى بنيت لعباده الله الواحد ، تعج بالأصنام ، إذ كانت تحتوى على ثلاثمائة وستين صنماً . غير الأصنام الكبرى فى جهات متفرقة . ومنها ما ذكر فى القرآن بالاسم كاللات والعزى ومناة . ومنها هبل الذى نادى أبو سفيان باسمه يوم « أحد» قائلاً : اعلُ هبل !

ومما يدل على أن اللات والعزى ومناة كانت تماثيل للملائكة ما جاء فى القرآن فى سورة النجم :

« أفرأيتم اللاَّت والعُزَّى ، ومنَاةَ الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان ما تمنى ؟ فلله الآخرة والأولى . وكم من مَلَك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئاً . إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » . . .

(النجم : ١٩ ـ ٢٨)

وانحطت عبادة الأصنام فيهم حتى كانوا يعبدون جنس الحجر!

روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال : « كنا نعبد الحجر . فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ! فإذا لم نجد جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ، ثم طفنا به » [١] .

وقال الكلبى فى كتاب الأصنام : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها ، فجعله ربًا ، وجعل ثلاث أثافىَّ لقِدْره . وإذا ارتحل تركه» [٢] .

---

(١) الجامع الصحيح كتاب المغازى .

(٢) الأصنام للكلبى ص ٣٤ .

وعرفوا عبادة الكواكب ـ كما عرفها الفرس من بين عباداتهم ـ قال صاعد : كانت حمير تعبد الشمس . وكنانة القمر . وتميمُ الدبران . ولخمٌ وجذامٌ المشترى . وطيئٌ سهيلاً . وقيسُ الشعرى العبَور . وأسدٌ عطارد »[1] .

وقد جاء عن هذا فى سورة فصلت :

« لا تسجدوا للشمس ولا للقمر . واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » . . .

(فصلت : ٣٧)

وجاء فى سورة النجم :

«وأنه هو رب الشعرى » . . .

(النجم : ٤٩) .

وكثرت الإشارات إلى خلق النجوم والكواكب وربوبية الله سبحانه لها كبقية خلائقه . وذلك لنفى ألوهية الكواكب وعبادتها . .

وعلى العموم فقد تغلغلت عقائد الشرك فى حياتهم . فقامت على أساسها الشعائر الفاسدة ، التى أشار إليها القرآن الكريم فى مواضع كثيرة . . من ذلك جعلهم بعض ثمار الزروع ، وبعض نتاج الأنعام خاصا بهذه الآلهة المدعاة ، لا نصيب فيه لله ـ سبحانه ـ وأحياناً يحرمونها على أنفسهم . أو يحرمون بعضها على إناثهم دون ذكورهم . أو يمنعون ظهور بعض الأنعام على الركوب أو الذبح . وأحيانا يقدمون أبناءهم ذبائح لهذه الآلهة فى نذر . كالذى روى عن نذر عبد المطلب أن يذبح ابنه العاشر ، إن وهُب عشرة أبناء يحمونه . فكان العاشر عبد الله . . ثم افتداه من الآلهة بمئة ناقة ! . . وكان أمر الفتوى فى هذه الشعائر كلها للكواهن والكهان !

وفى هذا يقول القرآن الكريم :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا : هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله . وما كان لله فهو يصل إلى

---

(١) طبقات الأمم لصاعد ص ٤٣٠ (نقلا عن كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) .

شركائهم . ساء ما يحكمون ! وكذلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهُم ، ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه . فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حِجر، لا يطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأنعام حرمت ظهورها . وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ـ افتراء عليه ـ سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصةُ لذكورنا ، ومحرمٌ على أزواجنا . وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء . . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين » . .

(الأنعام : ١٣٦ ـ ١٤٠) .

وكانت فكرة التوحيد الخالص هى أشد الأفكار غرابة عندهم ، هى وفكرة البعث سواء . ذلك مع اعترافهم بوجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه الخالق للسماوات والأرض وما بينهما . ولكنهم ما كانوا يريدون أن يعترفوا بمقتضى الوحدانية هذه وهو أن يكون الحكم لله وحده فى حياتهم وشؤونهم ، وأن يتلقوا منه وحده الحلال والحرام، وأن يكون إليه وحده مرد أمرهم كله فى الدنيا والآخرة . وأن يتحاكموا فى كل شىء إلى شريعته ومنهجه وحده . . الأمر الذى لا يكون بغيره دين ولا إيمان . يدل على ذلك ما حكاه القرآن الكريم من معارضتهم الشديدة لهاتين الحقيقتين :

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىءٌ يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق» . . .

(ص : ٤ ـ ٧) .

« وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم ـ إذا مزقتم كل ممزق ـ إنكم لفى خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبًا أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » . .

(سبأ : ٧ ، ٨)

هذه هى الصورة الشائهة للتصورات فى الجزيرة العربية نضيفها إلى ذلك الركام من بقايا العقائد السماوية المنحرفة ، التى كانت سائدة فى الشرق والغرب ، يوم جاء الإسلام ، فتتجمع منها صورة مكتملة لذلك الركام الثقيل ، الذى كان يجثم على ضمير البشرية فى كل مكان ، والذى كانت تنبثق منه أنظمتهم وأوضاعهم وآدابهم وأخلاقهم كذلك [1] .

ومن ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة ، وتحديد الصورة الصحيحة التى يستقر عليها الضمير البشرى فى حقيقة الألوهية ، وعلاقتها بالخلق، وعلاقة الخلق بها . . فتستقر عليها نظمهم وأوضاعهم ، وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وآدابهم وأخلاقهم كذلك . فما يمكن أن تستقر هذه الأمور كلها ، إلا أن تستقر حقيقة الألوهية ، وتتبين خصائصها واختصاصاتها . وعنى الإسلام عناية خاصة بإيضاح طبيعة الخصائص والصفات الإلهية المتعلقة بالخلق والإرادة والهيمنة والتدبير . . ثم بحقيقة الصلة بين الله والإنسان . . فلقد كان معظم الركام فى ذلك التيه الذى تخبط فيه العقائد والفلسفات ، مما يتعلق بهذا الأمر الخطير الأثر فى الضمير البشرى وفى الحياة الإنسانية كلها .

ولقد جاء الإسلام ـ وهذا ما يستحق الانتباه والتأمل ـ بما يعد تصحيحاً لجميع أنواع البلبلة ، التى وقعت فيها الديانات المحرفة ، والفلسفات الخابطة فى الظلام . وما يعد ردا على جميع الانحرافات والأخطاء التى وقعت فيها تلك الديانات والفلسفات . . سواء ما كان منها قبل الإسلام وما جدّ بعده كذلك . . فكانت هذه الظاهرة العجيبة إحدى الدلائل على مصدر هذا الذين . . المصدر الذى يحيط بكل ما هجس فى خاطر البشرية وكل مايهجس ، ثم يتناوله بالتصحيح والتنقيح !

والذى يراجع ذلك الجهد المتطاول الذى بذله الإسلام لتقرير كلمة الفصل فى ذات الله ـ سبحانه ـ وفى صفاته . وفى علاقته بالخلق وعلاقة الخلق به . .

---

(١) أما التصورات والفلسفات والمذاهب التى وجدت بعد الإسلام ، وبخاصة التى قام عليها الفكر الغربى والحياة الغربية ، والتى تعيش بها البشرية اليوم فى غرب أوروبا وفى شرقها كذلك . . فلم تجئ بخير من هذا الركام . . وسنتناول بعضها بالبيان فى مواضعه المناسبة فى فصول الكتاب .

ذلك الجهد الذى تمثله النصوص الكثيرة ـ كثرة ملحوظة ـ فى القرآن المكى بصفة خاصة ، وفى القرآن كله على وجه العموم . .

الذى يراجع ذلك الجهد المتطاول ، دون أن يراجع ذلك الركام الثقيل ، فى ذلك التيه الشامل ، الذى كانت البشرية كلها تخبط فيه ، والذى ظلت تخبط فيهَ أيضاً كلما انحرفت عن منهج الله أو صدت عنه ، واتبعت السبل ، فتفرقت بها عن سبيله الواحد المستقيم . .

الذى يراجع ذلك الجهد ، دون أن يراجع ذلك الركام ، قد لا يدرك مدى الحاجة إلى كل هذا البيان المؤكد المكرر فى القرآن ، وإلى هذا التدقيق الذى يتتبع كل مسالك الضمير وكل مسالك الحياة .

ولكن مراجعة ذلك الركام تكشف عن ضرورة ذلك الجهد ، كما تكشف عن عظمة الدور الذى جاءت هذه العقيدة لتؤديه فى تحرير الضمير البشرى وإعتاقه ، وفى تحرير الفكر البشرى وإطلاقه ، وفى تحرير الحياة . والحياة تقوم على أساس التصور الاعتقادى كيفما كان .

عندئذ ندرك قيمة هذا التحرر فى إقامة الحياة على منهج سليم قويم ، يستقيم به أمر الحياة البشرية ، وتنجو به الفساد والتخبط ومن الظلم أو الاستذلال . . وندرك قيمة قول عمر ـ رضى الله عنه ـ « ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ فى الإسلام ولم يعرف الجاهلية » . . فالذى يعرف الجاهلية هو الذى يدرك قيمة الإسلام ، ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه ، ونعمة الله المتحققة به .

إن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها ، وبساطة الحقيقة الكبيرة التى تمثلها . . إن هذا كله لا يتجلى للقلب والعقل ، كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية ـ السابقة للإسلام واللاحقة ـ عندئذ تبدو هذه العقيدة رحمة . . رحمة حقيقية . . رحمة للقلب والعقل . ورحمة بالحياة والأحياء . رحمة بما فيها من جمال وبساطة ، ووضوح وتناسق ، وقرب وأنس ، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق . .

وصدق الله العظيم :

« أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ؟ أم من يمشى سويا على صراط مستقيم؟ » .

خصائص التصور الإسلامي

«صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ؟»

للتصور الإسلامى خصائصه المميزة ، التى تفرده من سائر التصورات ، وتجعل له شخصيته المستقلة ، وطبيعته الخاصة ، التى لاتتلبس بتصور آخر ، ولا تستمد من تصور آخر .

هذه الخصائص تتعدد وتتوزع ، ولكنها تتضام وتتجمع عند خاصية واحدة ، هى التى تنبثق منها وترجع إليها سائر الخصائص . . خاصية الربانية . .

إنه تصور ربانى . جاء من عند الله بكل خصائصه ، وبكل مقوماته ، وتلقّاه «الإنسان» كاملاً بخصائصه هذه ومقوماته ، لا ليزيد عليه من عنده شيئاً ، ولا لينقص كذلك منه شيئاً . ولكن ليتكيف هو به وليطبق مقتضياته فى حياته . .

وهو ـ من ثم ـ تصور غير متطور فى ذاته ، إنما تتطور البشرية فى إطاره ، وترتقى فى إدراكه وفى الاستجابة له . وتظل تتطور وترتقى ، وتنمو وتتقدم ، وهذا الإطار يسعها دائماً ، وهذا التصور يقودها دائماً . لأن المصدر الذى أنشأ هذا التصور ، هو نفسه المصدر الذى خلق الإنسان . هو الخالق المدبر ، الذى يعلم طبيعة هذا الإنسان ، وحاجات حياته المتطورة على مدى الزمان . وهو الذى جعل فى هذا التصور من الخصائص ما يلبى هذه الحاجات المتطورة فى داخل هذا الإطار .

وإذا كانت التصورات والمذاهب والأنظمة التى يضعها البشر لأنفسهم ـ فى معزل عن هدى الله ـ تحتاج دائماً إلى التطور فى أصولها ، والتحور فى قواعدها ، والانقلاب أحياناً عليها كلها حين تضيق عن البشرية فى حجمها المتطور ! وفى حاجاتها المتطورة . . إذا كانت تلك التصورات والمذاهب والأنظمة التى هى من صنع البشر ، تتعرض لهذا وتحتاج إليه ، فذلك لأنها من صنع البشر ! البشر القصار النظر ! الذين

لايرون إلا ما هو مكشوف لهم من الأحوال والأوضاع والحاجات فى فترة محدودة من الزمان ، وفى قطاع خاص من الأرض . . رؤية فيها ـ مع هذا ـ قصور الإنسان وجهل الإنسان ، وشهوات الإنسان ، وتأثرات الإنسان . فأما التصور الإسلامى ـ بربانيته ـ فهو يخالف فى أصل تكوينه وفى خصائصه ، تلك التصورات البشرية ، ومن ثم لايحتاج ـ فى ذاته ـ إلى التطور والتغير . . فالذى وضعه يرى بلا حدود من الزمان والمكان . ويعلم بلا عوائق من الجهل والقصور . ويختار بلا تأثر من الشهوات والانفعالات . ومن ثم يضع للكينونة البشرية كلها ، فى جميع أزمانها وأطوارها . . أصلاً ثابتاً تتطور هى فى حدوده وترتقى ، وتنمو وتتقدم دون أن تحتك بجدران هذا الإطار !

إن الحركة قانون من قوانين هذا الكون ـ فيما يبدو ـ وهى كذلك قانون الحياة البشرية ـ بوصفها قطاعاً من الحياة الكونية ـ ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد ، وليست حركة بغير ضابط ولا نظام . فلكل نجم ولكل كوكب فلكه ومداره ، وله كذلك محوره الذى يدور عليه فى هذا المدار . وكذلك الحياة البشرية لا بد لها من محور ثابت ، ولابد لها من فلك تدور فيه . وإلا انتهت إلى الفوضى وإلى الدمار ، كما لو انفلت نجم من مداره ، أو ظل يغير محوره بلا ضابط ولا نظام ! ومن ثَم كان هذا التصور الربانى ثابتاً ، لتدور الحياة البشرية حوله ، وتتحرك فى إطاره . وهو مصنوع بحيث يسعها دائماً ويشدها دائماً . وهى تنمو وترتقى . وهى تتطور وتتحرك إلى الأمام .

وهو ـ من ثم ـ كامل متكامل . لا يقبل تنمية ولا تكميلا ، كما لايقبل « قطع غيار » من خارجه . فهو من صنعة الله ، فلا يتناسق معه ما هو من صنعة غيره . والإنسان لا يملك أن يضيف إليه شيئاً ، ولا يملك أن يعدل فيه شيئاً . إنما هو جاء لضيف إلى الإنسان . لينميه ويعدله ويطوره ويدفع به دائماً إلى الأمام . . جاء ليضيف إلى قلبه وعقله ، وإلى حياته وواقعه . جاء ليوقظ كل طاقات الإنسان واستعداداته ، ويطلقها تعمل فى إيجابية كاملة ، وفى ضبط كذلك وهداية ، وتؤتى أقصى ثمراتها الطيبة ، مصونة من التبدد فى غير ميدانها ، ومن التعطل عن إبراز

مكنونها ، ومن الانحراف عن طبيعتها ووجهتها ، ومن الفساد بأىّ من عوامل الفساد . . وهو لايحتاج ـ فى هذا كله ـ إلى استعارة من خارجه ، ولا إلى دم غير دمه! ولا إلى منهج غير منهجه . بل إنه ليحتم أن يتفرد هو فى حياة البشر ، بمفهوماته وإيحاءاته ومنهجه ووسائله وأدواته . كى تتناسق حياة البشر مع حياة الكون ـ الذى تعيش فى إطاره ـ ولا تصطدم حركتها بحركة الكون فيصيبها العطب والدمار! .

وهو ـ من ثم ـ شامل متوازن منظور فيه إلى كل جوانب الكينونة البشرية أولاً . ومنظور فيه إلى توازن هذه الجوانب وتناسقها أخيراً . ومنظور فيه كذلك إلى جميع أطوار الجنس البشرى ، وإلى توازن هذه الأطوار جميعاً . بما أن صانعه هو صانع هذا الإنسان . . الذى خَلق ، والذى يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير . فليس أمامه ـ سبحانه ـ مجهول بعيد عن آفاق النظر من حياة هذا الجنس ، ومن كل الملابسات التى تحيط بهذه الحياة . . ومن ثم فقد وضع له التصور الصحيح . الشامل لكل جوانب كينونته ، ولكل أطوار حياته . . المتوازن مع كل جوانب كينونته ومع كل أطوار حياته . الواقعى المتناسق مع كينونته ومع كل ظروف حياته .

وهو ـ من ثم ـ الميزان الوحيد الذى يرجع إليه الإنسان فى كل مكان وفى كل زمان، بتصوراته وقيمه ، ومناهجه ونظمه ، وأوضاعه وأحواله ، وأخلاقه وأعماله . . ليعلم أين هو من الحق . وأين هو من الله . وليس هنالك ميزان آخر يرجع إليه ، وليس هنالك مقررات سابقة ولا مقررات لاحقة يرجع إليها فى هذا الشأن . . إنما هو يتلقى قيمه وموازينه من هذا التصور ، ويكيّف بها عقله وقلبه ، ويطبع بها شعوره وسلوكه، ويرجع فى كل أمر يعرض له إلى ذلك الميزان : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلاً » . (النساء : ٥٩)

وفى خاصية التصور الإسلامى الأساسية ـ التى تحدد طبيعته ـ وفى سائر الخصائص التى تنبثق منها . . يرى بوضوح تفرد هذا التصور ، وتميز ملامحه ، ووضوح شخصيته بحيث يصبح من الخطأ المنهجى الأصيل محاولة استعارة أى ميزان، أو أى منهج من مناهج التفكير المتداولة فى الأرض ـ فى عالم البشر ـ للتعامل

بهامع هذا التصور الخاص المستقل الأصيل . أو الاقتباس منها والإضافة إلى ذلك التصور الربانى الكامل الشامل .

وسنرى هذا بوضوح كلما تقدمنا فى هذا البحث . فنكتفى الآن بتقرير هذه القاعدة التى لابد من مراعاتها جيداً فى كل بحث إسلامى ، فى أى قطاع من قطاعات الفكر الإسلامية أو المنهج الإسلامى . . فهذا هومفرق الطريق . .

والآن فلننظر فى هذه الخاصية الأساسية ، وفى الخصائص التى تنبثق منها ، بشىء من البيان والتفصيل . .

الــربَّانيَّــة

«قُلْ : إنَّنى هَدَانى رَبِّى إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم»

الربانية أولى خصائص التصور الإسلامى ، ومصدر هذه الخصائص كذلك . .
فهو تصور اعتقادى موحى به من الله ـ سبحانه ـ ومحصور فى هذا المصدر لا يستمد من غيره . . وذلك تمييزاً من التصورات الفلسفية التى ينشئها الفكر البشرى حول الحقيقة الإلهية ، أو الحقيقة الكونية ، أو الحقيقة الإنسانية ، والارتباطات القائمة بين هذه الحقائق ، وتمييزاً له كذلك من المعتقدات الوثنية ، التى تنشئها المشاعر والأخيلة والأوهام والتصورات البشرية .

ويستطيع الإنسان أن يقول ـ وهو مطمئن ـ : إن التصور الإسلامى هو التصور الاعتقادى الوحيد الباقى بأصله « الربانى » وحقيقته « الربانية » . فالتصورات الاعتقادية السماوية ، التى جاءت بها الديانات قبله ، قد دخلها التحريف ـ فى صورة من الصور ـ كما رأينا . وقد أضيفت إلى أصول الكتب المنزلة ، شروح وتصورات وتأويلات وزيادات ، ومعلومات بشرية ، أدمجت فى صلبها ، فبدلت طبيعتها «الربانية » . وبقى الإسلام ـ وحده ـ محفوظ الأصول ، لم يشب نبعه الأصيل كدر ، ولم يلبس فيه الحق بالباطل . وصدق وعد الله فى شأنه :

« إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » . . .

(الحجر : ٩)

وهذه هى الحقيقة المسلَّمة ، التى تجعل لهذا التصور قيمته الفريدة .

ومفرق الطريق بين التصور الفلسفى والتصور الاعتقادى ـ بصفة عامة ـ أن التصور الفلسفى ينشأ فى الفكر البشرى ـ من صنع هذا الفكر ـ لمحاولة تفسير الوجود

وعلاقة الإنسان به . ولكنه يبقى فى حدود المعرفة الفكرية الباردة . فأما التصور الاعتقادى ـ فى عمومه ـ فهو تصور ينبثق فى الضمير ، ويتفاعل مع المشاعر، ويتلبس بالحياة . فهو وشيجة حية بين الإنسان والوجود . أو بين الإنسان وخالق الوجود .

ثم يتميز التصور الإسلامى بعد ذلك عن التصور الاعتقادى ـ فى عمومه ـ بأنه ـ كما أسلفنا ـ تصور ربانى ، صادر من الله للإنسان . وليس من صنع الإنسان . تتلقاه الكينونه الإنسانية بجملتها من بارئها . وليست الكينونة الإنسانية هى التى تنشئه ، كما تنشئ التصور الوثنى ، أو التصور الفلسفى ـ على اختلاف ما بينهما ـ وعمل الإنسان فيه هو تلقيه وإدراكه والتكيف به ، وتطبيق مقتضياته فى الحياة البشرية .

وينص المصدر الإلهى الذى جاءنا بهذا التصور ـ وهو القرآن الكريم ـ على أنه كله من عند الله . هبة للإنسان من لدنه ، ورحمة له من عنده . وأن الفكر البشرى ـ ممثلاً ابتداءً فى فكر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو فكر الرسل كلهم ـ باعتبار أنهم جميعاً أرسلوا بهذا التصور فى أصله ـ لم يشارك فى إنشائه . وإنما تلقاه تلقياً ، ليهتدى به ويهدى . وأن هذه الهداية عطية من الله كذلك ، يشرح لها الصدور . وأن وظيفة الرسول ـ أى رسول ـ فى شأن هذا التصور ، هى مجرد النقل الدقيق ، والتبليغ الأمين ، وعدم خلط الوحى الذى يوحى إليه من عند الله بأى تفكير بشرى ـ أو كما يسميه الله سبحانه بالهوى ! أما هداية القلوب به ، وشرح الصدور له ، فأمر خارج عن اختصاص الرسول ، ومرده إلى الله وحده فى النهاية :

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا . ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » . . .

(الشورى : ٥٢ ـ ٥٣)

« والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى » . . .

(النجم : ١ ـ ٤)

« ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » . . .

(الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧)

«يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك . وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . . .

(المائدة : ٦٧)

« إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء . وهو أعلم بالمهتدين» . . .

(القصص : ٥٦)

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد فى السماء » . . .

(الأنعام : ١٢٥)

وهذا التوكيد على مصدر هذا التصور ، هو الذى يعطيه قيمته الأساسية ، وقيمته الكبرى . . فهو وحده مناط الثقة فى أنه التصور المبرأ من النقص ، المبرأ من الجهل ، المبرأ من الهوى . . هذه الخصائص المصاحبة لكل عمل بشرى ، والتى نراها مجسمة فى جميع التصورات التى صاغها البشر ابتداء من وثنيات وفلسفات . أو التى تدخل فيها البشر من العقائد السماوية السابقة ! وهو كذلك مناط الضمان فى أنه التصور الموافق للفطرة الإنسانية ، الملبى لكل جوانبها ، المحقق لكل حاجاتها . ومن ثم فهو التصور الذى يمكن أن ينبثق منه ، ويقوم عليه ، أقوم منهج للحياة وأشمله .

* * *

ولكن إذا كان الفكر البشرى لم ينشئ هذا التصور ، فإنه ليس منفيا من مجاله ، ولا محظوراً عليه العمل فيه . بيد أن عمله هو التلقى والإدراك والتكيف والتطبيق فى واقع الحياة . . غير أن القاعدة المنهجية الصحيحة للتلقى ـ كما أشرنا فى « كلمة عن المنهج » ـ هى هذه . . إنه ليس للفكر البشرى أن يتلقى هذا التصور بمقررات سابقة، يستمدها من أى مصدر آخر ، أو يستمدها من مقولاته هو نفسه ، ثم

يحاكم إليها هذا التصور ، ويزنه بموازينها . . إنما هو يتلقى موازينه ومقرراته من هذا التصور ذاته ، ويتكيف به ، ويستقيم على منهجه . كما يتلقى الحقائق الموضوعية فى هذا التصور من المصدر الإلهى الذى جاء بها ، لا من أى مصدر آخر خارجه . ثم هو الميزان الذى يرجع بكافة ما يعين له ، من مشاعر وأفكار ، وقيم وتصورات ، فى مجرى حياته الواقعية كذلك . ليزنها عنده ، ويعرف حقها من باطلها ، وصحيحها من زائفها :

« فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول » . . .

(النساء : ٥٩)

وفى الوقت ذاته يعتبر الفكر البشرى ـ فى ميزان هذا التصور ـ أداة قيمة وعظيمة ، يوكل إليها إدراك خصائص هذا التصور ومقوّماته ـ مستقاة من مصدرها الإلهى ـ وتحكيمها فى كل ما حوله من القيم والأوضاع . دون زيادة عليها من خارجها ، ودون نقص كذلك منها . . ويبذل منهج التربية الإسلامى لهذه الأداة العظيمة من الرعاية والعناية ، لتقويمها وتسديدها وابتعاثها للعمل ، فى كل ميدان هى مهيأة له . . الشيء الكثير [١] .

على أن « الفكر » ليس وحده الذى يتلقى هذا التصور . إنما هو يشارك فى تلقيه . فميزة هٰذا التصور ـ المنبثقة من خاصية الربانية ـ أنه يلبى الكينونة الإنسانية بجملتها . . ويدخل كذلك فى دائرة إدراكها . . والذى لا تدركه منه إدراك ماهية وحقيقة ، أو إدراك علية أو كيفية . . لا يتعذر عليه التسليم به فى طمأنينة . لأنه داخل فى مفهوم منطقها المعقول . منطقها الذى يسلم بالحقيقة البسيطة : حقيقة أن المجال الذى يتناوله هذا التصور ـ بما فيه من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها ، ومن تعلق إرادة الله بالخلق وكيفيته ـ أكبر وأوسع من الكينونة الإنسانية بجملتها . فهو مجال السرمدية الأزلية الأبدية الكلية المطلقة . والكينونة الإنسانية ـ ككل ما هو مخلوق حادث ـ متحيزة فى حدود من الزمان والمكان ، لا تملك مجاوزتها على الإطلاق ، ولا تملك من باب أولى الإحاطة بالكلى المطلق بأى حال :

---

(١) براجع بتوسع فصل : « تربية العقل » فى كتاب : « منهج التربية الإسلامية » (لمحمد قطب) .

. « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان » . . .

(الرحمن : ٣٣)

« لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » . . .

(الأنعام : ١٠٣)

ومن ثم فلا قدرة للكينونة البشرية بجملتها ـ لا الفكر وحده ـ على العمل خارج هذه الحدود . إنما وظيفتها أن تتلقى من الذات الإلهية المطلقة المحيطة بالوجود . وأن تتلقى فى حدود طبيعة الإنسان ، وفى حدود وظيفته .

ونزيد هذه الجملة الأخيرة إيضاحاً . . فالإنسان محكوم أولاً ، بطبيعته : طبيعة أنه مخلوق حادث . ليس كليا ولا مطلقاً . ليس أزليا ولا أبديا . ومن ثم فإن إدراكه لا بد أن يكون محدوداً بما تحده به طبيعته . . ثم هو محدود بوظيفته . وظيفة الخلافة فى الأرض لتحقيق معنى العبادة لله فيها ـ كما سيجىء ـ ومن ثم فقد وهُب من الإدراك ما يناسب هذه الخلافة . بلا نقص ولا زيادة . . وهناك أمور كثيرة لا يحتاج إليها فى وظيفته هذه . ومن ثم لم يوهب القدرة على إدراكها ـ إدراك ماهية أو إدراك كيفية ـ وإن كان موهوباً أن يدرك إمكانها . وأن يحيل هذا على معرفته بطلاقة المشيئة الإلهية من ناحية ، ومن ناحية أخرى على معرفته بأنه هو مخلوق حادث ، غير كلى ولا مطلق، فلا يمكن ـ من ثم ـ أن يحيط بخصائص الأزلى الأبدى ، الذى هو بكل شىء محيط .

والقرآن الكريم يشير إلى بعض هذه الجوانب ، التى لم يزوَّد الإنسان بالقدرة على الإحاطة بها . . بماهيتها أو بكيفيتها . . إما لأنها لا تدخل فى حدود طبيعة البشرية المحدودة . وإما لأنها لا تلزم له فى النهوض بوظيفته المحددة كذلك . . كما يشير إلى طريقة الفطرة السليمة المؤمنة فى تلقى هذه الجوانب ، وطريقة الفطرة المنحرفة الزائغة :

من هذه الجوانب مسألة كنه الذات الإلهية . فالكينونة الإنسانية لا تدركها . وليس مما تعرفه شىء يماثلها فيمكن أن تقابلها به ، وتقيسها عليه :

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » . .   (الأنعام : ١٠٣)

« ليس كمثله شيء » . . .   (الشورى : ١١)

« فلا تضربوا لله الأمثال » . . .   (النحل : ٧٤)

ومنها مسألة المشيئة الإلهية وكيفية تعلقها بالخلق :

« قال : رب أنى يكون لى غلام ، وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ قال : كذلك الله يفعل ما يشاء » . .

(آل عمران : ٤٠)

« قالت : رب أنى يكون لى ولد ، ولم يمسسنى بشر ؟ قال : كذلك الله يخلق ما يشاء . إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » . . .

(آل عمران : ٤٧)

هكذا دون بيان للكيفية ، لأنها فوق إدراك الكينونة البشرية . وكل من أراد من البشر بيان الكيفية تخبط وخلّط ، لأنه قاسها على كيفيات عمل الإنسان ، وشتان شتان [١] . !

ومنها مسألة الروح ـ سواء كان المقصود بها : « الحياة » أو « جبريل » أو «الوحى» :

« ويسألونك عن الروح . قل : الروح من أمر ربى . وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » . . .

(الإسراء : ٨٥)

ومنها مسألة الغيب المحجوب عن العلم البشرى ، إلا بالقدر الذى يأذن به الله لمن يشاء :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » . . .

(الأنعام : ٥٩)

---

(١) وكذلك أخطأ أرسطو وأخطأ أفلوطين وغيرهما حينما أرادوا أن يبينوا كيفية تعلق عمل الخالق بالمخلوقات ، لأنهم قاسوه بما يعرفونه من كيفية تعلق عمل الإنسان بما يعمله . . والله ليس كمثله شيء . .

« عالِم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا . إلا من ارتضى من رسول » . .

(الجن : ٢٦ ، ٢٧)

« قل : لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب » . . .

(الأنعام : ٥٠)

« وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت » . . .

(لقمان : ٣٤)

ومن هذا الغيب خاصة مسألة موعد الساعة :

« إن الله عنده علم الساعة » . . .

(لقمان : ٣٤)

« يسألونك عن الساعة : أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكراها ! إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها» . . .

(النازعات : ٤٢ ـ ٤٦)

« بل تأتيهم بغتة فتبهتهم ، فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون » . . .

(الأنبياء : ٤٠)

ويبين الله ـ سبحانه ـ كيف ينبغى تلقى هذه وأمثالها ، مما هو فوق مدركات الكينونة البشرية :

« هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب . وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ـ وما يعلم تأويله إلا الله ـ والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا ـ وما يذّكر إلا أولوا الألباب ـ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » . .

(آل عمران : ٧ ـ ٨)

وفيما عدا هذه الجوانب فإن الفكر البشرى ـ أو الإدراك البشرى بتعبير أشمل ـ مدعو للتدبر والتفكر ، والنظر والاعتبار ، والتكيف والتأثر ، والتطبيق ، فى عالم الضمير وعالم الواقع ، لمقتضيات هذا التصور ، والإيجابية فى العمل والتنفيذ وفق هذا التصور الشامل الكبير .

وما من دين احتفل بالإدراك البشرى ، وإيقاظه ، وتقويم منهجه فى النظر ، واستجاشته للعمل ، وإطلاقه من قيود الوهم والخرافة ، وتحريره من قيود الكهانة والأسرار المحظورة . ! وصيانته فى الوقت ذاته من التبديد فى غير مجاله ، ومن الخبط فى التيه بلا دليل . . ما من دين فعل ذلك كما فعله الإسلام . .

وما من دين وجه النظر إلى سنن الله فى الأنفس والآفاق ، وإلى طبيعة هذا الكون وطبيعة هذا الإنسان ، وإلى طاقاته المذخورة وخصائصه الإيجابية ، وإلى سنن الله فى الحياة البشرية معروضة فى سجل التاريخ . . ما من دين وسّع على الإدراك فى هذا كله ما وسّع الإسلام .

فى تربية الإدراك وتقويمه وتقويم منهج النظر والحكم :

« ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد . كل أولئك كان عنه مسؤولاً » . .

(الإسراء : ٣٦)

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » . .

(الحجرات : ١٢)

« وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » . .

(يونس : ٣٦)

«ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » . .

(الزخرف : ٢٠)

وفى النظر إلى آيات الله فى الأنفس والآفاق :

« قل : انظروا ماذا فى السماوات والأرض » . . .

(يونس : ١٠١)

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم . أفلا تبصرون ؟»

(الذاريات : ٢٠ — ٢١)

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . .

(فصلت : ٥٣)

وفى النظر إلى سنن الله فى الحياة البشرية وفى مصائر من قبلهم ودلالتها التاريخية :

« قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة . إن الله على كل شىء قدير » . . .

(العنكبوت : ٢٠)

« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » . . .

(الروم : ٩ ـ ١٠)

« أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » . . .

(الرعد : ٤١)

وأمثال هذه التوجيهات كثير كثرة ملحوظة فى القرآن الكريم ، يتكون منها منهج كامل لتربية الإدراك البشرى وتقويمه وتوجيهه [١] . وستأتى منه نماذج كثيرة فى الفصول التالية .

* * *

على أن الله ، فاطر هذا الإنسان ، العالم بحقيقة طاقاته ، كان يعلم أنه بقدر ما وهبه من القدرة على إدراك قوانين المادة ، والتعرف إلى طاقات الكون فى هذا المجال ، لتسخيرها فى الخلافة . . بقدر ما زوى عنه من أسرار « الحياة » ـ كنهها وكيفية وجودها وتصرفها ـ وأسرار تكوينه الروحى والعقلى . وحتى تكوينه الجسمى المتصل بنشاطه الروحى والعقلى لايزال معظمه خافياً على علمه و إدراكه ، على نحو ماكشف لنا فى القرن العشرين عالم من أكبر العلماء المتخصصين فى إخلاص وصراحة . وهو الدكتور « الكسيس كاريل » فى كتابه : « الإنسان ذلك المجهول » وهو يقول :

---

(١) يراجع بتوسع فصل « تربية العقل » فى كتاب : منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب .

« . . . لقد بذل الجنس البشرى مجهوداً جباراً لكى يعرف نفسه . ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التى كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين فى جميع الأزمان ، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا . . إننا لا نفهم الإنسان ككل . . إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا ! فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح ، تسير فى وسطها حقيقة مجهولة !

« وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة . . فنحن لا نعرف ـ حتى الآن ـ الإجابة على أسئلة كثيرة مثل :

- كيف تتحد جزيئات المواد الكيماوية لكى تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية .
- كيف تقرر « الجينس » ـ وحدات الوراثة ـ الموجودة فى نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟
- كيف تنتظم الخلايا فى جماعات من تلقاء نفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء ؟ فهى كالنمل والنحل تعرف مقدماً الدور الذى قدر لها أن تلعبه فى حياة المجموع وتساعدها العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد فى الوقت ذاته .
- ما هى طبيعة تكويننا النفسانى والفسيولوجى ؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء ، والسوائل ، والشعور ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزاً . .
- إننا مازلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن « فسيولوجية » الخلايا العصبية . . إلى أى مدى تؤثر الإرادة فى الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء؟ على أى وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقلية ، التى يرثها كل فرد ، أن تتغير بواسطة طريقة الحياة ، والمواد الكيماوية الموجودة فى الطعام ، والمناخ ، والنظم النفسية والأدبية ؟
- إننا ما زلنا بعيدين جدا من معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمى

والعضلات والأعضاء ، ووجوه النشاط العقلى والروحى . . وما زلنا نجهل العوامل التى تحدث التوازن العصبى ، ومقاومة التعب ، والكفاح ضد الأمراض .

- إننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الإحساس الأدبى ، وقوة الحكم ، والجرأة .
- ولا ما هى الأهمية النسبية للنشاط العقلى الأدبى . كذا النشاط الدينى .
- أى شكل من أشكال النشاط مسؤول عن تبادل الشعور أو الخواطر ؟
- لا شك مطلقاً فى أن عوامل فسيولوجية وعقلية معينة هى التى تقرر السعادة أو التعاسة . النجاح أو الفشل . . ولكننا لا نعرف ما هى هذه العوامل .
- إننا لا نستطيع أن نهب أى فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية وحتى الآن فإننا لا نعرف : أى البيئات أكثر صلاحية لإنشاء الرجل المتمدين وتقدمه . .
- هل فى الإمكان كبت روح الكفاح والمجهود ، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجى والروحى ؟
- كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه فى المدنية العصرية ؟

بالنسبة لنا . ولكنها ستظل جميعاً بلا جواب . . فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان مازال غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب » [١] . .

هذا هو مدى جهلنا بحقيقة « الإنسان » ـ إحدى الحقائق التى يتألف منها التصور الاعتقادى الشامل ـ بل جهلنا بأصغر وأظهر جانب من جوانب هذه الحقيقة . . كما يقرره عالم من أكبر العلماء فى القرن العشرين ، غير متهم فى علمه ، وغير منازع فى مكانته فى العالمين : القديم والجديد !

أما أسباب هذا الجهل ، من وجهة نظره القائمة على « المنهج العلمى » كما هو معروف فى الغرب ، وعلى انطباعاته فى جو بيئته الغربية وفى جو « البحث العلمى » ، وفى حدود « العلم » كما يقرر هو فى مقدمة الكتاب . . أما أسباب هذا الجهل من وجهة نظره هذه ، التى نوافقه فى بعضها ونخالفه فى بعضها . فهى كما يقول :

---

(١) الإنسان ذلك المجهول : تأليف دكتور ألكسيس كاريل وترجمة شفيق أسعد فريد : ص ٦ ـ ١٨ .

«قد يعزى جهلنا فى الوقت ذاته ، إلى طريقة حياة أجدادنا . وإلى طبيعتنا المعقدة . وإلى تركيب عقلنا . . . » .

ويتحدث عن السببين الأولين حديثاً دقيقاً ، ولكنه لا يعنينا هنا . فننتقل إلى حديثه عن السبب الثالث :

يقول :

« وثم سبب آخر للبطء الذى اتسمت به معرفتنا لأنفسنا . وذلك أن تركيب عقولنا يجعلنا نبتهج بالتفكير فى الحقائق البسيطة . إذا أننا نشعر بضرب من النفور حين نضطر إلى تولى حل مشكلة معقدة مثل : تركيب الكائنات الحية والإنسان . . فالعقل ـ كما يقول برجسون ـ يتصف بعجز طبيعى عن فهم الحياة . . وبالعكس فإننا نحب أن نكتشف ، فى جميع العوالم ، تلك الأشكال الهندسية الموجودة فى أعماق شعورنا . . إن دقة النسب البادية فى تماثيلنا واتقان آلاتنا يعبران عن صفه أساسية لعقلنا . . فالهندسة غير موجودة فى دنيانا ، وإنما أنشأناها نحن . إذ أن وسائل الطبيعة لا تكون أبداً بالدقة التى تتصف بها وسائل الإنسان !!! فنحن لا نجد فى العالم ذلك الوضوح وتلك الدقة التى يتصف بهما تفكيرنا . . ومن ثم فإننا نحاول أن نستخلص من تعقد الظواهر ، وبعض النظم البسيطة التى تحمل عناصر ، لإحداها بالأخرى علاقات معينة ، تكون قابلة للوصف حسابيا . . وقدرة الاستخلاص هذه التى يتمتع بها العقل البشرى ، مسؤولة عن ذلك التقدم الرائع الذى أحرزه علماء الطبيعة والكيمياء . .

« ولقد لقيت الدراسة الطبيعة ـ الكيماوية للكائنات الحية نجاحاً مماثلاً . فقوانين الطبيعة والكيمياء ، متماثلة فى عالم الكائنات الحية وعالم الجماد ـ كما خطر ببال كلود برنار منذ أمد بعيد ـ وهذه الحقيقة توضح لماذا اكتشف علم وظائف الأعضاء الحديث مثلاً أن استمرار قلوية الدم وماء المحيط تفسرها قوانين متماثلة ، وأن النشاط الذى تستهلكه العضلات المتقلصة يقدمه تخمر السكر . . . الخ . . إن النواحى الطبيعية ـ الكيماوية للكائنات الحية يسهل تقريباً فحصها ، مثل تلك النواحى فى الأشياء الأخرى الموجودة فى العالم المادى . . وتلك هى المهمة التى نجح علم وظائف الأعضاء فى تحقيقها .

« إن دراسة الظواهر الفسيولوجية الحقة ـ أى تلك الظواهر التى تنتج من تنظيم الكائن الحى ـ تواجه عقبات أكثر أهمية . إذ أن شدة ضآلة الأشياء التى يجب تحليلها، تجعل من المستحيل استخدام الفنون العادية لعلمى الطبيعة والكيمياء . . فأى طريقة يمكن أن تكشف القناع عن التركيب الكيمياوى لنواة الخلية الجنسية ، والكروموسومات ؟ والجينس « ناقلات الوراثة » التى تؤلف هذه الكروموسومات؟ . . مهما يكن . . إن المجموع الكلى للمواد الكيماوية شديدة الضآلة، على أعظم جانب من الأهمية ، لأنها تحتوى على مستقبل الفرد والجنس[1] . . كما أن قابلية أنسجة معينة لسرعة العطب ، مثل المادة العصبية ، عظيمة إلى درجة أن دراستها فى حالة الحياة مستحيلة تقريباً . . ونحن لا نملك أى فن يمكننا من النفوذ إلى أعماق المخ وغوامضه ، أو إلى الاتحاد المتناسق بين خلاياه . وعقلنا الذى يحب ذلك الجمال البسيط للتراكيب الحسابية ، يتنابه الفزع حينما يفكر فى تلك الأكداس الهائلة من الخلايا والأخلاط والإحساسات ، التى يتكون منها الفرد، ومن ثم فإننا نحاول أن نطبق على هذا المخلوط ، الأفكار التى ثبتت فائدتها فى مملكة الطبيعة والكيمياء والميكانيكيات . كذا فى النظم الفلسفية والدينية . . ولكن مثل هذه المحاولة لا تلقى نجاحاً كبيراً . لأن أجسامنا لا يمكن أن تختزل إلى : نظام طبيعى كيمائى . أو إلى كيان روحى . . بالطبع . إن على علم الإنسان أن يستخدم آراء جميع العلوم الأخرى . ولكن عليه أيضاً أن ينمى آراءه الخاصة لأنه علم جوهرى ، مثل علوم الجزئيات والذرات والإلكترونات » .

وينهى هذا الفصل بقوله :

« صفوة القول : أن التقدم البطىء فى معرفة بنى الإنسان ـ إذا قورن بالتقدم الرائع فى علوم الطبيعة والفلك والكيمياء والميكانيكا ، يعزى إلى حاجة أجدادنا إلى وقت الفراغ . وإلى تعقد الموضوع . وإلى تركيب عقولنا . .

«وهذه العقبات أساسية . وليس هناك أمل فى تذليلها . وسيظل التغلب عليها شاقا ، يستلزم جهوداً مضنية . .

---

(١) بذلت أخيراً محاولات فى هذا الحقل . ولكن المدى لا يزال بعيداً جدا، رغم الأخبار التى تذاع بقصد الدعاية من مراكز الدعاية للمذاهب المادية !

« إن معرفة أنفسنا لن تصل أبداً إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد ، والجمال ، التى بلغها علم المادة . إذ ليس من المحتمل أن تختفى العناصر التى أخرت تقدم علم الإنسان . . فعلينا أن ندرك بوضوح ، أن علم الإنسان هو أصعب العلوم جميعاً » [١] .

هذا هو تعليل ذلك الجهل بحقيقة الإنسان ، أو بأصغر وأظهر جانب من جوانب هذه الحقيقة ـ من وجهة نظر العالم الغربى الكبير . . ومهما نختلف معه فى طريقة النظر إلى القضية كلها . . فإننا نكتفى بهذه الشهادة . ونراه قد لمس فيها السبب الأساسى ـ وهو طبيعة تكوين عقلنا ـ فهذا التكوين مرتبط بوظيفة الإنسان فى الأرض ـ وظيفة الخلافة ـ وهى تقتضى أن يكون تركيب عقله على هذا التصميم لأنه أنسب تصميم للقيام بالوظيفة ! وسيتقدم فى إدراك قوانين المادة وتسخيرها ، كما سيتقدم فى معرفة جوانب من « حقيقة الإنسان » أكثر مما عرف . ولكن أسرار التكوين الإنسانى ستظل خافية عليه أبداً . . سيظل سر الحياة ، وسر الموت ، خافيين تماماً . وسيظل سر الروح الإنسانى بعيداً عن مجال إدراكه . . لأن شيئاً من هذا كله لا يلزمه فى وظيفته الأساسية .

وعلى أية حال ، فإنه من خلال هذه الشهادة ـ وحدها ـ تبرز لنا حقيقتان جاهرتان :

أولاهما : حقيقة رحمة الله بهذا الإنسان ، حين لم يدعه ـ بجهله هذا الذى يشهد به عالم كبير من علمائه فى القرن العشرين ـ يصنع تصوره الاعتقادى لنفسه . وهذا التصور يشتمل تفسيراً شاملا ـ لا لحقيقة الإنسان المجهولة له فحسب ، ولكن كذلك الحقيقة الألوهية الكبرى ولحقيقة الكون وحقيقة الحياة ، وسائر الارتباطات بين هذه الحقائق جميعاً . . وحين لم يدعه ـ بجهله هذا بحقيقة ذاته ـ يصنع منهج حياته وشكل نظامه ، وشريعته وقوانينه . . وكلها تقتضى علماً كاملاً شاملاً . لا بحقيقة الإنسان وحدها . ولكن كذلك بحقيقة الكون الذى يعيش فيه الإنسان . وبحقيقة الحياة التى ينتسب إليها . ثم بحقيقة القوة الكبرى الخالقة المدبرة لهذا الكون وما فيه ومن فيه . . .

---

(١) المصدر السابق ص ١٨ ـ ٢٣ .

وثانيتهما : حقيقة التبجح الذى تبجحه كل من تصدى من جنس البشر ـ قديماً وحديثاً ـ لوضع ذلك التفسير الشامل للكون والحياة والإنسان . ولوضع مناهج للحياة وأنظمة للناس وشرائع لحياتهم . . بمثل هذا الجهل ، الذى لا يمكن أن يؤدى ، إلا لمثل ماأدى إليه من تيه وركام فى التصورات . ومن فساد وقصور فى المناهج . ومن شقاء وتعاسة فى الحياة . . فهذه كلها هى النتائج الطبيعية والثمار المرة لذلك التبجح الكريه ! ولذلك الجهل العميق [1] .

إن التصور الربانى الذى يتلقاه الإنسان من « الله » هبة لدنية خالصة . . قد أعفى البشر الضعاف الجهال من الكد فيها ، ووفر عليهم همّ إنشائها ، وتبديد طاقتهم فى هذا المجال الذى لم يهبهم الله دليله ولا أداته . . وذلك ليفرغوا لتلقى هذه الهبة وإدراكها ، والتكيف بها ، واتخاذها أساساً لمنهج حياتهم ، وميزاناً لقيمهم ، ودليلاً هادياً يصلون به ومعه . . فإذا فارقوه ضلوا وتاهوا ، وخبطوا وخلطوا ، وجاءوا بما يضحك ويبكى من التصورات والانحرافات ، وشقوا وتعسوا بالمناهج والأنظمة التى يقيمونها على أساس من ذلك الجهل العميق ! ومن ذلك الخبط والتخليط !

وفى هذا يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه القيم : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » :

«وقد كان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله . وعن بداية هذا العالم ومصيره . وما يهجم عليه الإنسان بعد موته . وأتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفوا بدون تعب . وكفوهم مؤونة البحث والفحص ، فى علوم ليس عندهم مبادئها ، ولا مقدماتها التى يبنون عليها بحثهم ، ليتوصلوا إلى مجهول . لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة ، ولا تعمل فيها حواسهم ، ولا يؤدى إليها نظرهم ، وليست عندهم معلوماتها الأولية .

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة ، وأعادوا الأمر جذعاً ، وبدأوا البحث أُنفاً ، وبدأوا رحلتهم فى مناطق مجهولة ، لا يجدون فيها مرشداً ولا خرِّيتاً [2] . وكانوا فى

---

(١) يراجع بتوسع كتاب . « الإسلام ومشكلات الحضارة » للمؤلف .

(٢) خبيراً .

ذلك أكثر ضلالاً ، وأشد تعباً وأعظم اشتغالاً بالفضول . . من رائد لم يقتنع بما أدى إليه العلم الإنسانى فى الجغرافية ، وما حدد وضبط فى الخرائط على تعاقب الأجيال ، فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحار من جديد ، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه . . على قصر عمره ، وضعف قوته ، وفقدان آلته . . فلم يلبث أن انقطعت به مطيته ، وخانته عزيمته ، فرجع بمذكرات وإشارات مختلة . . وكذلك الذين خاضوا فى الإلهيات ، من غير بصيرة ، وعلى غير هدى ، جاءوا فى هذا العلم بآراء فجة ، ومعلومات ناقصة ، وخواطر سانحة ونظريات مستعجلة . . فضلوا وأضلوا»[1] .

على أن أمر الذين حاولوا إنشاء تصورات اعتقادية من عند أنفسهم ، أو إنشاء تصورات فلسفية لتفسير الوجود وارتباطاته كانوا أشد ضلالاً من هذا الذى صوره الأستاذ الندوى ، وأكثر خطراً على حياة البشرية . أما الأخطر من هذا كله ، فكان هو تحريف العقائد السماوية ـ وبخاصة النصرانية ـ وقيام كنيسة فى أوربا تملك السلطان باسم هذه النصرانية المحرفة ، وتفرض تصوراتها الباطلة بالقوة كما تفرض معلوماتها الخاطئة والناقصة عن الكون المادى ، وتعارض بوحشية خط البحث العلمى فى ميدانه الأصيل ، بمقولات تعطيها طابع الدين . والدين منها برىء . .

وقد نشأ هذا كله من تدخل الفكر البشرى بالإضافة والتأويل والتحريف للأصل الربانى للعقيدة النصرانية وللتصور النصرانى . وإلحاق هذا كله بالأصل الربانى والعقيدة السماوية .

فإذا نحن تذكرنا أن جميع النزعات الأوربية ، التى نشأت معادية للدين وللفكر الدينى ، كان منشؤها هو هذا الانحراف ، وهذه الأوضاع التى قامت على أساس هذا الانحراف . . « من عقلية مثالية » إلى « وضعية حسية » إلى « جدلية ماديّة» . . إذا تذكرنا هذا أدركنا أن هذا البلاء الذى يعم البشرية كلها اليوم ، إنما نشأ من عقابيل تدخل الفكر البشرى ، فى أصل التصور الربانى . وهو بلاء لا يعدله بلاء آخر فى تاريخ البشرية الطويل . .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٦٨ .

ولعله يحسن ـ لتكون هذه النقطة واضحة وضوحاً يناسب خطورتها ـ أن نذكر خلاصة موجزة للخط الذى سار فيه الفكر الأوربى ، بوصفه نتيجة طبيعية مباشرة لانحراف التصور الدينى . بتدخل الفكر البشرى فيه ، وبإخضاعه للعوامل السياسية ، والخلافات العنصرية والمذهبية .

ولعل هذه الخلاصة أن تكشف لنا عن حكمة الله ورعايته فى حفظ أصول التصور الإسلامى بعيدة عن تحريف البشر . وعن خطورة أية محاولة باسم « التجديد الدينى » أو « التطور فى الفكر الدينى » أو غيرهما ، لإدخال أى عنصر بشرى على التصور الربانى . . فهذا التصور هو الوحيد الباقى من غير أن يعبث به جهل البشر وقصورهم وهو وحده ملاذ البشرية ، لتفىء إليه فى يوم من الأيام . فتجد عنده الهدى والسكينة والاطمئنان .

وسنكتفى فى هذا التلخيص لخط سير الفكر الأوربى ـ فى اتجاه مضاد للكنيسة وتفكيرها الدينى ـ بمقتبسات من الفصل الذى كتبه الدكتور محمد البهى بعنوان : «الدين مخدرا!» فى كتابه « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » :

« **الصراع بين الدين والعقل والحس فى تاريخ الفكر الغربى** : أربع مراحل فى تاريخ التفكير الأوربى ، منذ القرن الرابع عشر إلى الآن . شهدت فيها العقلية الأوربية صراعاً فكريا ، واتجاهات عقلية مختلفة ، تدور حول « تبرير » مصدر من مصادر المعرفة ، التى عرفتها البشرية فى تاريخها حتى الوقت الحاضر . وهى : الدين . والعقل . والحس أو الواقع ، وفى كل مرحلة من هذه المراحل ينشأ سؤال عن «قيمة» أى واحد من هذه الثلاثة كمصدر للمعرفة المؤكدة ، أو اليقينية . ثم يكون الجواب على هذا السؤال إيجاباً أو سلباً . ومن السؤال وما يدور حوله من جدل ، وأخذ ورد ، تتكون المذاهب الفلسفية التى تعبر عن قيمة المصدر ، الذى وضع للاختبار والتقدير .

« **سيادة النص أو الدين** » كان الدين أو النص طوال القرون الوسطى سائداً فى توجيه الإنسان فى سلوكه وتنظيم جماعته ، وفى فهمه للطبيعة . وكان يقصد بالدين «المسيحية» ، وكان يراد من المسيحية « الكثلكة » ، وكانت الكثلكة تعبر عن

«البابوية» . والبابوية نظام كنسى ركز «السلطة العليا» ـ باسم الله ـ فى يد البابا ، وقصر حق تفسير «الكتاب المقدس» على البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى ، وسوّى فى الاعتبار بين نص الكتاب المقدس وأفهام الكنيسة الكاثوليكية ، وجعل عقيدة «التثليث» عقيدة أصيلة فى المسيحية ، كما جعل «الاعتراف بالخطأ» و«صكوك الغفران» من رسوم العبادة وغير ذلك مما يتصل بالكاثوليكية كمذهب وكنظام لاهوتى .

« حتى كان القرن الخامس عشر ، وحتى ابتدأت الحروب الصليبية تثمر ثمرتها الإيجابية فى العقلية الأوربية . فقام مارتن لوثر (Luther) (١٤٥٣ ـ ١٥٤٦م) وكافح «تعاليم الشيطان» ـ كما سماها ـ وهى تعاليم البابوية والكنيسة الكاثوليكية ، فحارب صكوك الغفران ، ونظر إليها كوسائل للرق والعبودية . وحارب عقيدة «التثليث» ، كما حارب سلطة البابا . وجعل السلطة الوحيدة فى المسيحية هى الكتاب المقدس ، وكلمة الله : «النص» وطالب بالحرية فى بحث الكتاب . ولكن ليست أية حرية على العموم . ومع ذلك جعل الكتاب المقدس نفسه هو مصدر الحقيقة فيما يتصل بالإيمان . ثم جعل الإيمان فى الاعتبار ، سابقاً على أى شىء آخر عداه ، من العقل أو الطبيعة .

« وجاء بعد لوثر ـ فى طريقه ـ كالفن (Calvin) (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م) وأقر لوثر على أن الإنجيل وحده هو المصدر «للحقيقة المسيحية» وأن عقيدة التثليث لا تقبلها المسيحية الصحيحة .

« وبحركه لوثر وكالفن الإصلاحية تعرضت المسيحية للجدل الفكرى ، وأصبحت موضوعاً للنقاش العقلى ، والمذاهب الفلسفية . . والمسيحية التى تعرضت لذلك هى المسيحية التى تناولها لوثر بإصلاحه . أى الكاثوليكية البابوية . ومن أنكر من الفلاسفة على الدين أن تكون له «سلطة» أنكر سلطة البابوية . ومن وضع العلاقة بين الدين والعقل كشيئين متقابلين أو متناقضين ، حدد العلاقة بين الكثلكة ـ وما فيها من عقيدة التثليث ومراسم صكوك الغفران ـ وبين العقل الإنسانى العام . ومن دافع عن المسيحية من الفلاسفة ، كهجيل ، دافع عن «التعاليم النقية

للمسيحية » التى احتضنها لوثر ، فى مقابل تعاليم الكنيسة الكاثوليكية .

« وهكذا كان « الدين » الذى جعل موضوعاً للصراع العقلى الأوربى ، نوعاً خاصا من الدين ، والذى قبل منه باسم الفلسفة ، كان جملة خاصة من تعاليمه . والذى رفض منه باسم الفلسفة أيضاً ، كان كذلك جملة خاصة من تعاليمه .

« **سيادة العقل** » : استمر اعتبار الوحى ، كمرجع أخير للمعرفة ، على خلاف فى تحديد تعاليمه ، حتى كان النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وهو عصر «التنوير» فى تاريخ الفلسفة الأوربية . وعصر التنوير له طابعه الخاص ، الذى يتميز به العصر السابق عليه والآخر اللاحق له ، وله طابعه المشترك فى الفكر الألمانى والإنجليزى والفرنسى ، فى الفترة الزمنية التى تحدده ، وله فلاسفة فى دوائر الفكر الثلاث كونوا الطابع الفكرى الذى عرف به . .

« وطابعه الفكرى :

(أ) تزايد شعور العقل وإحساسه بنفسه ، وبقدرته على أن يأخذ مصير مستقبل الإنسانية فى يده ، بعد أن يزيل كل عبوديه ورثها هو ، حتى لا تحجبه عن التخطيط الواضح لهذا المصير(١) .

(ب) الشجاعة والجرأة التى لا تتأرجح فى إخضاع كل حدث تاريخى لامتحان العقل . وكذلك فى تكوين الدولة والجماعة ، والاقتصاد ، والقانون ، والدين ، والتربية ، تكويناً جديداً ، على الأسس السليمة المصفاة ، التى لكل واحد منها!

(جـ) الإيمان بتعاون جميع المصالح والمنافع ، وبالأخوة فى الإنسانية ، على أساس من هذه الثقافة العقلية ، المستمرة فى التطور . .

« ومعنى ذلك كله : سيادة « العقل » ـ كمصدر للمعرفة ـ على غيره . وغيره الذى ينازعه « السيادة » هو الدين . أى المسيحية الكاثوليكية أولاً . وقد تكون معها البروتستانتية ، كمذهب عرف للإصلاح الدينى هناك .

« فللعقل الحق فى الإشراف على كل اتجاهات الحياة ، وما فيها من سياسة ، وقانون ، ودين ، و« الإنسانية » هى هدف الحياة للجميع .

---

(١) ولقد رأينا فيما اقتبسناه من الدكتور ألكسيس كاريل مدى معرفة العقل الحقيقية بالإنسان ، لا فى القرن الثامن عشر . بل فى القرن العشرين أيضاً .

« وكما يسمى هذا العصر بـ « عصر التنوير » يسمى أيضاً بـ « العصر الإنسانى»، وكذا بعصر الـ Deism أى عصر الإيمان الفلسفى بإله ، ليس له وحى، وغير خالق للعالم . إذ كل مسميات هذه الأسماء تعتبر من خواصه . فالتنوير لايقصد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه ، وإحلال العقل فيه محله . والإنسانية التى يبشر بها هذا العصر ليست إلا عوضاً عن « القربى من الله » كهدف للإنسان فى سلوكه فى الحياة . والإله ، الذى ليس له وحى ولا خلق ، يتفق مع تحكيم العقل وحده ، وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها .

« وإذن فى عصر التنوير كانت الخصومة الفكرية بين الدين والعقل . واتجه التفكير فيه إلى إخضاع الدين للعقل . ولذلك عد زمن هذا العصر فترة سيادة العقل . كما عد العصر السابق عليه فترة سيادة الدين . .

« ومن هذا يتضح أن صراع العقل مع الدين ، هو صراع الفكر الإنسانى مع مسيحية الكنيسة . وأن دوافع هذا الصراع هى الظروف التى أقامتها الكنيسة فى الحياة الأوربية . سواء فى مجال التوجيه والبحث ، أو فى مجال السياسة ، أو نطاق العقيدة والإيمان . . .

« **سيادة الحس** » : انتهى عصر التنوير بانتهاء القرن الثامن عشر تقريباً ، وابتدأ عصر آخر من عصور الفكر الأوربى ، وبظهور فجر القرن التاسع عشر . وموضوع الصراع واحد لم يختلف عن ذى قبل ، هو : الدين ، والعقل ، والطبيعة . ولكن تميز القرن التاسع عشر بفلسفة معينة . لأن اتجاه الفكر فيه مال إلى « سيادة الطبيعة » على الدين والعقل ، وإلى استقلال « الواقع » كمصدر للمعرفة اليقينية إزاء الدين والعقل . تميز القرن التاسع عشر بأنه عصر « الوضعية » (Positivism) . والوضعية نظرية فلسفية نشأت فى دائرة « المعرفة » . وقامت فى جو معين ، وعلى أساس خاص، أما جوها المعين فهو أولاً وبالذات سيطرة الرغبة على بعض العلماء والفلاسفة فى معارضة الكنيسة . والكنيسة تملك نوعاً خاصا من المعرفة ، وتستغله فى خصومة المعارضين لنفوذها من العلماء والباحثين . وقد تسود به على هؤلاء المعارضين فترة من الزمن . وهذا النوع هو « المعرفة المسيحية الكاثوليكية » بوجه

خاص ـ كما سبق أن ذكر ـ أو هو المعرفة الدينية ، أو المعرفة الميتافزيقية بوجه عام . يضاف إلى هذه الرغبة القوية فى معارضة الكنيسة ، ومعارضة ما تملك من معرفة خاصة ، أن فلسفة عصر « التنوير » وهى الفلسفة « العقلية » أو « المثالية » قد أفلست ـ فى نظر فلاسفة « الوضعية » ـ فيما أرادت أن تصل إليه : وهو إبعاد التوجيه الكنسى كلية عن توجيه الإنسان ، وتنظيم الجماعة الإنسانية . فقد مالت هذه الفلسفة على عهد « هيجل » إلى تأييد الوحى والدين من جديد !!!

« فالغاية الأولى للمذهب الوضعى ، من منطقه ، هى معارضة الكنيسة ، أو معارضة معرفتها . ومن باب التغطية باسم « العلم » ! هى معارضة الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) والمثالية العقلية . وإلا فالمذهب الوضعى فى الوقت الذى ينكر فيه دين الكنيسة يضع ديناً جديداً بدله ، هو دين « الإنسانية الكبرى » ، ويقوم على «عبادة » و«طقوس » ـ كما تقوم المسيحية ـ وله قداسة واحترام على نحو ماللكثلكة !

« وأما الأساس الخاص الذى قامت عليه الوضعية فهو تقدير « الطبيعة » . والطبيعة ، والحقيقة ، والواقع ، والحس . . كلها سواء فى نظر الوضعيين . وتقدير الطبيعة ـ لاكمصدر مستقل فحسب للمعرفة ـ بل كمصدر فريد للمعرفة اليقينية أو المعرفة الحقة . ومعنى تقدير الطبيعة على هذا النحو : أن الطبيعة هى التى تنقش الحقيقة فى عقل اةنسان ، وهى التى توحى بها ، وترسم معالمها الواضحة . وهى التى تكوّن عقل الإنسان . والإنسان ـ لهذا ـ لا يملى عليه من خارج الطبيعة ، مما وراءها ، كما لا يملى عليه من ذاته . إذ ما يأتى من « ما وراء الطبيعة » خداع للحقيقة ، وليس حقيقة ! وما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة ، وليس حقيقة أيضاً! وبناء على ذلك : الدين وهو وحى « ما بعد الطبيعة » ـ خداع . هو وحى ذلك الموجود ، الذى لايحدده ولا يمثله كائن من كائنات الطبيعة . هو وحى الله الخارج عن هذه الطبيعة كلية . . وكذلك « المثالية العقلية» وهم لا يتصل بحقيقة هذا الوجود الطبيعى . إذ هى تصورات الإنسان عن نفسه ، من غير أن يستلهم فيها الطبيعة المنثورة ، التى يعيش فيها ، وتدور حوله .

« و إذن ما يتحدث به الإنسان ، ككائن شخصى ، عن الإنسان ، كموضوع

للوصف . أو ما يتحدث به الإنسان عن الطبيعة التى يعيش فيها ، كموضوع للحكم عليها ـ مستمدا حديثه عن هذه أو ذاك من معارف الدين ، أو المثالية العقلية ـ ـ هو حديث بشىء غير حقيقى ، عن شىء حقيقى . هو حديث غير صادق ، خضع فيه الإنسان المتحدث إلى خداع الدين بحكم التقاليد ، أو إلى «الوهم» بحكم غرور الإنسان بنفسه !

« إن عقل الإنسان ـ أى ما فيه من معرفة ـ وليد الطبيعة ، التى تتمثل فى : الوراثة، والبيئة ، والحياة الاقتصادية ، والاجتماعية . . إنه مخلوق . ولكن خالقه الوجود الحسى . . إنه يفكر . ولكن عن تفاعل مع الوجود المحيط به . . إنه مقيد مجبر . وصانع القيد والجبر هو حياته المادية . . . ليس هناك عقل سابق ، كما أنه ليست هناك معرفة سابقة للإنسان . عقل الإنسان ومعرفته بوجدان تبعاً لوجود الإنسان . هما انطباع لحياته الحسية المادية .

« الطبيعة تنطق عن نفسها . ويجب على الإنسان أن يعتمد منطقها . إذا أراد أن يعيش فيها . ومنطقها وحده ـ لامنطق المؤلهين ، ولا منطق العقليين ، ولا منطق أصحاب النظرية السيكولوجية فى معرفة الإنسان ـ هو الذى يخط الطريق المستقيم فى حياة الإنسان فيها . وهو الذى يحدد أهدافه فيها !

« وطريق الإنسان فى حياته الطبيعية يبتدئ من الفرد ، وينتهى بالجماعة ، وإذن: الفرد نفسه ليس غاية . وحياته التى يعيشها ليست هدفاً لسعيه . إنما غايته الأخيرة التى يجب أن يسعى إليها ، ويذهب فيها ـ كما يذهب العابد الصوفى ، صاحب عقيدة « الاتحاد » فيما يؤلهه ويعبده ـ هى « الجماعة » وطالما كانت الجماعة هى غاية الفرد الأخيرة ، فهى معبوده ، وتذهب حريته ، لتبقى لها الحرية ! وتفنى حياته لتبقى لها الحياة ![1] » .

---

(١) ومن هنا مهانة الفرد فى النظم التى قامت على أساس هذا المذهب ، وإهدار كل مقوماته الذاتية بل مقوماته الإنسانية كذلك ! وسيرد الحديث عن هذا بالتفصيل فى صلب هذا البحث عند الكلام عن « الإنسان » فى التصور الإسلامى (فى القسم الثانى من هذا البحث) .

« الماركسية » : ـ الجدلية المادية ـ ولماركس نظرية مادية ، تأثر فيها بكومت (من فلاسفة الوضعية) . وهو لا ينكر وجود « العقل » كما ينكره المذهب المادى الميكانيكى . ولكنه لايدعى فحسب أن المادة توجد قبل أن يوجد العقل ، بل أيضاً المادة أكثر أهمية واعتباراً من العقل . إذ العقل متوقف على المادة فى وجوده ، ولا يمكن أن يوجد منفصلاً عنها . ونتيجة ذلك : أن ماركس لا يرفض فقط أن يبقى العقل (أو الروح) بعد الجسم ـ كما يذكر الدين ـ بل يرفض الفكرة الأساسية فى الدين . وهى الإيمان بالله . كموجود أزلى مستقل تماماً ومتجرد تماماً على المادة . . وكحقيقة واضحة : كل دين بالنسبة لماركس ـ من حيث المبدأ ـ لعنة . وهو يحدثنا أن « كل دين مخدر للشعب » !

« وتبعية العقل للمادة ، يصورها ماركس فى صورة : أن العقل انعكاس للمادة ، وليس كما يصرح « هيجل » بأن المادة انعكاس للعقل . وهذا يعنى أن العقل نوع من المرآة العاكسة للعالم المادى . وهذا التصور الماركسى للحقيقة المادية ، على أنها الأصل ، يشمل فى عموم منطق الماركسية كل الأحداث الطبيعية وما يحيط بها من وجهة نظر متعددة ، هى القوة المادية الرئيسية أيضاً . أما الأحداث السياسية والاجتماعية ، والأخلاقية ، فهى انعكاس للأحداث الاقتصادية الراهنة . وماركس وإنجلز ، إن وجدا مغزى التاريخ فى أحداث الحياة الاجتماعية بصفة عامة ، لكنهما ينظران إلى الجانب الاقتصادى بالذات ، من بين أحداث هذه الحياة . والأحوال الاقتصادية تبعاً لذلك ، هى العوامل المحددة فى كل الحالات الاجتماعية ، وهى التى تكوّن البواعث الأخيرة ، لكل الأعمال الإنسانية فى تاريخ الجماعة البشرية .

« وتغير الأحوال الاقتصادية وتطورها يؤثر لذلك ـ وحده ـ على حياة الدولة ، وعلى سياستها ، وكذلك على العلم ، والدين . وهكذا كل الإنتاج الثقافى والذهنى فرع عن الحياة الاقتصادية . وكل التاريخ لهذا يجب أن يكون تاريخ اقتصاد » [١] .

* * *

وهكذا انتهت محاولة الهروب من الكنيسة ، وتصوراتها الدينية لا المحرفة المشوبة

---

(١) مقتطفات من ص ٢٨٣ ـ ٣١٧ .

بالأفكار البشرية ، وسوء استغلالها لسلطانها باسم الدين . . انتهت أولاً إلى الفلسفة العقلية المثالية ـ على اختلاف اتجاهاتها ما بين معارضة الدين و إعلان سيطرة العقل فى رأى فيشته . . وبين تأييد الدين باعتبار أن الله ـ سبحانه ـ عقل !فى رأى هيجل ـ ثم انتهت ثانياً إلى الفلسفة الحسية الوضعية على يد كومت واشتين تال . ثم إلى الجدلية المادية على يد كارل ماركس وزميله إنجلز .

وكان هذا الخط الطويل من الانحراف فى الفكر الأوربى نتيجة مباشرة لتشويه التصور الدينى بمقولات وتصورات بشرية ، من صنع الكنائس والمجامع المتوالية . هذه المقولات التى استغلتها الكنيسة ذلك الاستغلال المنفر البغيض .

وإلا فإن نظرة إلى هذا التخبط فى خطواته المتعثرة تكشف للباحث المتثبت أن الهاربين من « الله » ـ لكى يهربوا من قبضة الكنيسة ـ لم يصلوا إلى أية حقيقة «مضبوطة» يصح أن تكون عذراً أو حجة لمن يريد أن يقول : إنه يلجأ إلى هذا هروباً من معميات ما وراء الطبيعة !

وإلا فأى شىء « مضبوط » وصلت إليه الفلسفةا العقلية المثالية مثلاً ؟ ما هو هذا « العقل » الذى وكلت إليه أمر المعرفة بعيداً عن الله وعن الطبيعة ؟ ماذا تعرف عن ماهية العقل أو عن خصائصه ؟ وماذا تعرف عن طريقة عمله وتأثراته وتأثيراته ؟ أين يقع هذا العقل ؟ أين يوجد ؟ ما طبيعته ؟ ما قانونه ؟ . . . كلها أسئلة لا جواب عليها حتى فى القرن العشرين !

ثم هذه المقولات التى ابتدعتها هذه الفلسفة ، وجعلتها حتمية ، وبنت عليها كل قضاياها ؟

« مبدأ النقيض » الذى قام عليه المذهب ـ والذى اعتمد عليه كارل ماركس فيما بعد ـ ماهو ؟ ماقيمته الواقعية ؟ إنه ليس سوى مقولة عقلية مجردة ، لا تتعامل مع الواقع فى شىء :

استخدم « فيشته » مبدأ النقيض على النحو التالى .

« تصور الإنسان لنفسه ـ وحده ـ هو بداية الطريق . وأشبه بالمقدمات التى تستلزم نتائجها ، على النحو الذى حدد به غاية فلسفته . فإذا تصور الإنسان نفسه ، أى إذا « أنا » تصورت « أنا » نشأ عنه أن « أنا » هو « أنا » و«ماليس أنا » هو « غير

أنا» فهنا «أنا» وهنا أيضاً « ليس أنا » . ولكن وجود « ليس أنا » منطو فى وجود « أنا الحقيقى » وإذن « أنا » باعتبار أنه يطوى فى ذاته وجود « ليس أنا » هو « أنا وليس أنا» . . وتصور الإنسان لنفسه أنتج إذن خطوات ثلاثاً فى الفكر ـ أو ثلاثية !

« وبما أنه ليس هناك فى الأصل ، عندما تصور الإنسان نفسه ، إلا « أنا » فالأشياء الخارجة عن أنفسنا ـ أى الأشياء التى هى « ليس أنا » ـ نتصورها فقط عن طريق أن « أنا » يطوى فى نفسه حقيقة أخرى ، وهى : « ليس أنا » . وهذه الأشياء الخارجة عن أنفسنا ليست منطوية فقط فى « أنا » بل هى عمل لـ « أنا» ومن إنتاجه»[1] !

والآن . . ما الذى يحتم ـ من الواقع ـ أن يكون « أنا » هو وحده الموجود . وأن يكون « ليس أنا » لا وجود له ابتداء ، إنما هو من عمل « أنا » ومنطو فى « أنا» ؟ ومن إنتاجه ؟

ماذا يحتم هذه المقولة من الواقع ؟ لا شىء! وإنما هو مجرد تحكم عقلى من «فيشته» لبناء مذهب ! ومن هنا يكون هذا الأساس العقلى « المثالى » لايتعامل مع الواقع فى شىء . وليس له رصيد فى حياة البشر ! وكان من حق المدرسة الوضعية أن تسخر من هذه « المثالية » التى لا مدلول لها فى دنيا الواقع ، ولا فاعلية لها فى حياة الناس ! لولا أنها لم تسخر منها لتأتى بما هو خير . بل بما هو أشد إحالة وأبعد عن الصواب !

إن فيشته يتخذ من المبدأ السابق ، الذى لا رصيد له من الواقع كما رأينا ، قاعدة يثبت بها أن العقل هو الموجود الحقيقى الذى لايتوقف وجوده على غيره .

« ومنطق هذا المبدأ ـ على هذا النحو الذى استخدمه فيشته ـ أن العقل مستقل تماماً عن غيره . وموجود من أجل نفسه . ووجوده هو وجوده هو ، لا وجود غيره . وماهية العقل تتضح إذن من العقل نفسه . وليست مما هو خارج عنه . إذ لو توقف العقل على غيره الخارجى عنه ، لكان معنى ذلك أن « ليس أنا » هو نقطة البداية .

---

(١) عن كتاب الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى : ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

وفى ذلك إلغاء للعقل نفسه ، قبل أن يصل إلى غيره . لأنه لا معنى لوجود « ليس أنا » إلا نفى وجود « أنا » أى نفى العقل »[1] !

فما الذى يحتم ـ من الواقع ـ أن يكون معنى وجود « ليس أنا » هو نفى وجود «أنا»؟ ولماذا هذا التحتيم ؟ إنه مجرد تحكم ينقضه العقل ذاته ، حين يتخلص من إسار المذهب !

فإنه ليس هناك ما يمنع ـ عقلاً ـ أن يكون « أنا» موجوداً و «ليس أنا » موجوداً كذلك ، ولا يتوقف وجود أحدهما على وجود الآخر!!

ولكن المسألة كلها كانت هى إقامة إله آخر ، غير إله الكنيسة ! إله ليس له كهنة ولا كرادلة ولا بابا ولا كنيسة ! ومن ثم أقيم هذا « العقل » إلها ، لاسدنة له ولا كهنة ! وهذا هو الهدف النهائى المقصود !!!

كذلك استخدم هيجل مبدأ النقيض ، مع استخدام مصطلحات جديدة غير مصطلحات فيشته :

« وإذا كان فيشته قد استخدم مبدأ « النقيض » فى دعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة ، مقابل الدين أو الطبيعة ـ على نحو ما رأينا ـ فـ « هيجل» استخدم نفس المبدأ لتأكيد قيمة العقل . ثم لدعم فكرة الألوهية من جديد ، وتأكيد « الوحى » كمصدر أخير « للحقيقة » على اعتبار أن الله عقل . وبدل المصطلحات الثلاثة التى تعرف لـ « فيشته » فى استخدامه مبدأ النقيض ، والتى تعبر عن الخطوات الثلاث للفكر عند تطبيقه ـ يعبر هيجل عن ذلك بعبارات خاصة به ، هى : الدعوى . ومقابل الدعوى . وجامع الدعوى ومقابلها .

. . . « فقد تصور ـ فى مجال « الفكرة » ـ أن هناك فكرة مطلقة أسماها « العقل المطلق » ولهذا العقل المطلق وجود ذاتى أزلى قبل خلق الطبيعة وقبل خلق العقل المنتهى . هذا العقل المطلق هو الله . وقد انبثقت منه « الطبيعة » وهى تغايره . إذ أنها بعيدة متفرقة بينما العقل المطلق واحد وحدة مطلقة من كل قيد . وبوجود الطبيعة ظهرت أو انتقلت « الفكرة » فى العقل المطلق غير المحدد ، فيما وجوده مقيد محدد .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

فالطبيعة هى خروج « الفكرة » من دائرتها الأولى . ومن أجل ذلك هى ضرورة وصدفة . وليس فيها حرية واختيار . وتعتبر بذلك مقابلاً ونقيضاً للفكرة فى العقل المطلق . وإذا كان العقل المطلق « دعوى » فالطبيعة عندئذ « مقابل الدعوى » . و«الفكرة» بذلك انتقلت من المطلق إلى المقيد ، أو من النقيض إلى نقيضه . فالفكرة من حيث هى فكرة ، انطوت على نقيضها ، حتى الآن ، ولكن « الفكرة» فى الطبيعة، تسعى من جديد لتكسب الوحدة ، بعد أن افتقدتها فى تفرق الكائنات فيها، وتسعى لتحصيلها وتحقيقها . وتحصيلها هو « العقل المجرد » . والعقل المجرد هو نهاية الطبيعة وغايتها . وهو عندئذ جامع الدعوى ومقابل الدعوى !»[(١)] .

وهذا نموذج كذلك من « المثالية » التى ضاقت بها « الوضعية » فى أوربا . وحق لها أن تضيق ! وهى هكذا تتعامل مع تصورات عقلية مجردة ، ومع مصطلحات لا رصيد لها من الواقع ولا علاقة لها بالإنسان الواقعى ولا بالحياة الواقعية !

ولكن السادة الوضعيين حين كفروا بإله الكنيسة ، ثم كفروا بإله « العقل » ، لم يذهبوا إلى ما هو أهدى . لقد أقاموا من الطبيعة إلها . . ولكن ما هى هذه الطبيعة ؟ ما هى هذه الطبيعة التى « خلقت » العقل ، والتى كما يقولون : « تنقش الحقيقة فى العقل » ؟ أهى كائن محدد ؟ أهى ذات كلية ؟ أم هى هذه « الأشياء » المتفرقة من أجرام وأشكال وحركات وهيئات ؟ أهى شىء له حقيقة مستقلة عن تصور العقل الإنسانى لها ؟ أم هى الصورة التى تنطبع فى العقل عن المحسوسات التى يدركها ؟ أم هى شىء له حقيقة فى ذاته ، وما ينطبع منها فى العقل قد يطابق حقيقتها وقد لا يطابقها ؟

وإذا كانت هذه الطبيعة هى التى « خلقت» العقل البشرى ، فهل هى «خالق» له إيجابية « الخلق » من العدم ؟ ولماذا إذن خلقت العقل فى الإنسان ولم تخلقه فى الحيوان ؟ أو فى النبات ؟ أهى ذات إرادة مميزة مختارة ؟ تختار كائناً بعينه من الكائنات لتمنحه هذه المنحة الفريدة ؟

أما إذا كانت حقيقتها لاتتجلى إلا فى الفكر البشرى . أفلا يكون ظهور هذه الحقيقة إذن متوقفاً على وجود العقل البشرى ؟ فكيف تكون هذه الطبيعة « خالقة » له، بينما هى لا تظهر إلا فيه ؟!

---

(١) عن كتاب : الفكر الإسلامى الحديث وعلاقته بالاستعمار الغربى : ٢٩٣ ـ ٢٩٥ .

ثم إن هؤلاء السادة يحيلوننا على معمًّى لا ضابط له ولا حدود . . وهم يشيرون إلى الطبيعة !!!

فما الطبيعة ؟ أهي مادة هذا الكون ؟ وما هي ماهية هذه المادة ؟ إن ما كانوا يسمونه « المادة » ويحسبونه شيئاً ثابتاً قد تبين لهم هم أنفسهم أنهم لايستطيعون تحديد ماهيته . إن المادة تنحل فإذا هي إشعاع . فهل الإشعاع هو الطبيعة . وهو المادة ؟ أم إن المادة ـ والطبيعة كذلك ـ هي الصورة التي يتجسم فيها هذا الإشعاع ؟ إنه لا يثبت على حال هذا الإله ! فبينما هو متجسم إذا هو منطلق . وبينما هو منطلق إذا هو متجسم ! ففي أي حالة من حالاته ياترى تكون له القوة الخالقة للعقل البشري ؟ وهل هو الذي يخلق كذلك صور نفسه المتوالية المتحركة أبداً ؟ من إشعاع إلى ذرات . ومن ذرات إلى كتل . . ومن كتل إلى ذرات . ومن ذرات إلى إشعاع !ـ ودع عنك الحياة والخلية الحية والحياة المترقية !ـ متى يكون لهذا الإله قوة الخلق ؟ في أي حالاته ؟ ومن الذي خلق الإنسان الذي تخلق الطبيعة عقله ؟ أهي خلقته ابتداء ؟ أم اكتفت بأن تخلق عقله بعد وجوده ؟!

وإذا كانت الطبيعة هي التي « تنقش الحقيقة في العقل الإنساني » . . فلماذا العقل الإنساني بالذات ؟ أليست تنطق وتسمعها كل الكائنات الحية ؟ فهل ياترى تنقش هذه الحقيقة كذلك في عقول البغال والحمير والببغاوات والقرود أم لا تنقشها ؟ وهل الحقيقة التي نقشتها في عقل الببغاء أو عقل القرد هي ذاتها التي نقشتها في عقل « أوجست كومت » أو عقل كارل ماركس ؟!

وإذا كانت الطبيعة هي التي تنقش الحقيقة في العقل الإنساني فما هي الحقيقة الصحيحة ؟ هل كانت هذه الحقيقة والعقل يجزم بأن الأرض مركز الكون ؟ أم وهو يجزم بأنها ليست سوى تابع صغير من توابع الشمس ؟ هل كانت والعقل يجزم بأن المادة هي هذه الأشياء الصلبة المحسة ؟ أم وهو يجزم بأن المادة ليست سوى طاقة متجمعة ، في صور متحولة ؟ هل كانت والعقل يجزم بأن الطبيعة ليست شيئاً سوى «عمل العقل » ؟ أم هو يجزم بأن العقل ليس شيئاً سوى انطباع المادة ؟

أيّ هذه المقررات العقلية كانت هي الحقيقة التي نقشتها الطبيعة في العقل البشري ؟ تراها تخطئ في النقش ؟ أم أن العقل نفسه هو الذي يشوه النقش ؟ وهل له

إذن فاعلية ذاتية وشخصية مستقلة ؟ فى حين يقول السادة الوضعيون : إنه ليس شيئاً آخر سوى ما تنقشه هذه الطبيعة ؟!

وندع الحياة ونشأتها وأسرارها ـ كما قلنا ـ إلى موضع مناقشة هذا السر فى التصور الإسلامى والتصورات الأخرى . . ندع الحياة وأسرارها فلا نناقشها هنا ونسأل : أى إله هذا الذى يقدمه لنا السادة الماديون ؟ إننا لا نجد بين أيدينا ولا فى عقولنا ولا فى واقعنا منه شيئاً « مضبوطاً » فلماذا يا ترى نختاره ونلوذ به . وهو هباء لا يثبت على اللمس ، ولا يثبت على الرؤية ، ولا يثبت على النظر العقلى أيضاً ؟ ونحن ـ والحمد لله ـ لسنا هاربين من الكنيسة ؟!!

أما هذا المسخ الذى يثير الاشمزاز فى تصور كارل ماركس وانجلز للحياة البشرية ودوافعها ومجالها الذى تتحرك فيه ، وحصرها فى جحر « الاقتصاد » فإن الشعور بالاشمزاز منه يزداد ، عندما يقف الإنسان أمام عظمة الكون المادى نفسه . وما فيه من موافقات عظيمة عجيبة ، يبدو فيها كلها كأنما هى تمهيد للحياة البشرية بوجه خاص : فلا يتمالك نفسه من الاحتقار والاشمئزاز لمثل هذا التفكير الصغير ، ولمثل هذا الشعور الذى لا تروعه عظمة هذا الكون ذاته ، ولا تروعه الموافقات الكامنة فيه لاستقبال الحياة البشرية . . فإذا به يدير ظهره لكل هذه العظمة ، ولكل هذه الروعة، ليخنس فى جحر الاقتصاد ، والآلة والإنتاج ـ لا بوصفها غاية للإنسان ومحركاً فحسب ـ ولكن بوصفها كذلك العلة الأولى ، والإله الخالق ، والرب المتصرف، المصرّف لهذه الحياة !

ولكنا نعود بعد ذلك كله فنذكر أن هذا البلاء كله ـ من مبدئه إلى نهايته ـ إنما جاء ثمرة طبيعية لانحراف الكنيسة والمجامع بالتصور الربانى . ومحاولة الفكر الأوربى أن يأبق من وجه الكنيسة وإلهها الذى تستطيل به ! فنحمد الله أن ظل التصور الإسلامى « الربانى » محفوظاً ! وإن لم تقم عليه كنيسة ! وإن لم يقع بينه وبين العقل البشرى والعلم البشرى ذلك الصدام ، الذى قاد الفكر الأوربى إلى هذا التيه وهذا الركام !

ونذكر أن التصور الإسلامى يدع للعقل البشرى وللعلم البشرى ميدانه واسعاً

كاملاً ـ فيما وراء أصل التصور ومقوّماته ـ ولايقف دون العقل يصده عن البحث فى الكون . بل هو يدعوه إلى هذا البحث ويدفعه إليه دفعاً . ولا يقف دون العلم البشرى فى المجال الكونى . بل هو يكل أمر الخلافة كله ـ فى حدود التصور الربانى ـ للعقل البشرى وللعلم البشرى . . وندرك مقدار نعمة الله ومقدار رحمته فى تفضله علينا بهذا التصور الربانى ، وفى إبقائه وحفظه على أصله الربانى . .

* * *

الثَّبَات

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»

من الخاصية الأساسية للتصور الإسلامى ـ خاصية الربانية ـ تنبثق سائر الخصائص الأخرى . وبما أنه « ربانى» صادر من الله ، وظيفة الكينونة الإنسانية فيه هى التلقى والاستجابة والتكيف والتطبيق فى واقع الحياة . وبما أنه ليس نتاج فكر بشرى ، ولا بيئة معينة ، ولا فترة من الزمن خاصة ، ولا عوامل أرضية على وجه العموم . . إنما هو ذلك الهدى الموهوب للإنسان هبة لدنية خالصة من خالق الإنسان ، رحمة بالإنسان . .

بما أنه كذلك . فمن الخاصية فيه تنشأ خاصية أخرى . . خاصية : « الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت » .

هناك « ثبات » فى « مقومات» هذا التصور الأساسية ، و«قيمه » الذاتية . فهى لاتتغير ولا تتطور ، حينما تتغير « ظواهر » الحياة الواقعية ، و«أشكال» الأوضاع العملية . . فهذا التغير فى ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع ، يظل محكوماً بالمقومات والقيم الثابتة لهذا التصور . .

ولا يقتضى هذا « تجميد » حركة الفكر والحياة . ولكنه يقتضى السماح لها بالحركة ـ بل دفعها إلى الحركة ـ ولكن داخل هذا الإطار الثابت ، وحول هذا المحور الثابت . .

وهذه السمة ـ سمة الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت ـ هى طابع الصنعة الإلهية فى الكون كله ـ فيما يبدو لنا ـ لا فى التصور الإسلامى وحده .

« مادة » هذا الكون ـ سواء كانت هى الذرة أو الإشعاع البسيط المنطلق عند تحطيمها ، أو أية صورة أخرى ـ ثابتة الماهية . ولكنها تتحرك ، فتتخذ أشكالاً دائمة التغير والتحور والتطور .

والذرة ذات نواة ثابتة تدور حولها الالكترونات فى مدار ثابت .

وكل كوكب وكل نجم له مداره ، يتحرك فيه حول محوره ، حركة منتظمة ، محكومة بنظام خاص .

و« إنسانية» هذا الإنسان ، المستمدة من كونه مخلوقاً فيه نفخة من روح الله اكتسب بها إنسانيته المتميزة عن سائر طبائع المخلوقات حوله . . إنسانية هذا الإنسان ثابتة [١] . ولكن هذا « الإنسان » يمر بأطوار جنينية شتى من النطفة إلى الشيخوخة ! ويمر بأطوار اجتماعية شتى ، يرتقى فيها وينحط حسب اقترابه وابتعاده من مصدر إنسانيته. ولكن هذه الأطوار وتلك لا تخرجه من حقيقة « إنسانيته» الثابتة . ونوازعها وطاقاتها واستعداداتها المنبثقة من حقيقة إنسانيته .

ونزوع هذا الإنسان إلى الحركة لتغيير الواقع الأراضى وتطويره . . حقيقة ثابتة كذلك . . منبثقة أولاً من الطبيعة الكونية العامة ، الممثلة فى حركة المادة الكونية الأولى وحركة سائر الأجرام فى الكون . ومنبثقة ثانياً من فطرة هذا الإنسان . وهى مقتضى وظيفته فى خلافة الأرض . فهذه الخلافة تقتضى الحركة لتطوير الواقع الأرضى وترقيته . . أما أشكال هذه الحركة فتتنوع وتتغير وتتطور [٢] .

وهكذا تبدو سمة : « الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت » سمة عميقة فى

---

(١) بدأت الدراوينية الحديثة تصحح الداروينية القديمة . فتقرر أن الإنسان مخلوق فريد من الناحية البيولوجية ، ومن النواحى العقلية والنفسية كذلك . وأنه فى هذا يتميز تميزاً تاما عن جميع الحيوانات . . . وبين هذا وبين القول بأن إنسانية الإنسان خاصية ثابتة فيه منذ البدء . . خطوة . . وإن كان لايزال يعز على الداورينيين أن يخطوها !

(٢) يراجع بتوسع فى عرض هذه القاعدة كتاب « معركة التقاليد » لمحمد قطب الطبعة الأخيرة (دار الشروق) ص ٨٢ ـ ٨٣ .

الصنعة الإلهية كلها . ومن ثم فهى بارزة عميقة فى طبيعة التصور الإسلامى .

ونحن نسبق السياق هنا ، فنستعرض نماذج من المقومات والقيم الثابتة فى هذا التصور (سيجىء تفصيل الكلام عنها فى موضعه فى القسم الثانى من هذا البحث) وهى التى تمثل « المحور الثابت » الذى يدور عليه المنهج الإسلامى فى إطاره الثابت .

إن كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية - وهى قاعدة التصور الإسلامى - ثابت الحقيقة ، وثابت المفهوم أيضاً . وغير قابل للتغيير ولا للتطوير :

حقيقة وجود الله ، وسرمديته ، ووحدانيته - بكل إشعاعاتها - وقدرته ، وهيمنته ، وتدبيره لأمر الخلق ، وطلاقة مشيئته . . . إلى آخر صفات الله الفاعلة فى الكون والحياة والناس . .

وحقيقة أن الكون كله - أشياءه وأحياءه - من خلق الله وإبداعه . أراده الله - سبحانه - فكان . وليس لشىء ولا لحى فى هذا الكون ، أثارة من أمر الخلق فى هذا الكون ، ولا التدبير ولا الهيمنة . ولا مشاركة فى شىء من خصائص الألوهية بحال . .

وحقيقة العبودية لله . . عبودية الأشياء والأحياء . . وعموم هذه العبودية للناس جميعاً . بما فيهم الرسل - عليهم الصلاة والسلام - عبودية مطلقة ، لا تتلبس بها أثارة من خصائص الألوهية . مع تساويهم فى هذه العبودية . .

وحقيقة أن الإيمان بالله - بصفته التى وصف بها نفسه - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . . شرط لصحة الأعمال وقبولها . وإلا فهى باطلة من الأساس ، غير قابلة للتصحيح ، ومردودة غير محتسبة وغير مقبولة . .

وحقيقة أن الله لا يقبل من الناس ديناً سواه . وأن الإسلام معناه إفراد الله - سبحانه - بالألوهية وكل خصائصها . والاستسلام لمشيئته ، والرضى بالتحاكم إلى أمره ومنهجه وشريعته . وأن هذا هو دينه الذى ارتضاه . لا أى دين سواه .

وحقيقة أن « الإنسان» - بجنسه - مخلوق مكرم على سائر الخلائق فى الأرض مستخلف من الله فيها . مسخر له كل ما فيها . ومن ثم فليست هناك قيمة مادية فى هذه الأرض تعلو قيمة هذا الإنسان ، أو تهدر من أجلها قيمته . .

وحقيقة أن الناس من أصل واحد . ومن ثَم فهم ـ من هذه الناحية ـ متساوون . وأن القيمة الوحيدة التي يتفاضلون بها ـ فيما بينهم ـ هي التقوى والعمل الصالح . لا أية قيمة أخرى ، من نسب ، أو مال ، أو مركز ، أو طبقة ، أو جنس . . إلى آخر القيم الأرضية .

وحقيقة أن غاية الوجود الإنساني هي العبادة لله . . بمعنى العبودية المطلقة لله وحده . بكل مقتضيات العبودية ، وأولها الائتمار بأمره ـ وحده ـ في كل أمور الحياة صغيرها وكبيرها والتوجه إليه ـ وحده ـ بكل نية وكل حركة ، وكل خالجة وكل عمل . والخلافة في الأرض وفق منهجه ـ أو بتعبير القرآن وفق دينه ـ إذ هما تعبيران مترادفان عن حقيقة واحدة . .

وحقيقة أن رابطة التجمع الإنساني هي العقيدة ، وهي هذا المنهج الإلهي . . لا الجنس ، ولا القوم ، ولا الأرض ، ولا اللون ، ولا الطبقة ، ولا المصالح الاقتصادية أو السياسية ، ولا أي اعتبار آخر من الاعتبارات الأرضية . .

وحقيقة أن الدنيا دار ابتلاء وعمل . وأن الآخرة دار حساب وجزاء . وأن الإنسان مبتلى وممتحن في كل حركة ، وفي كل عمل ، وفي كل خير يناله أو شر ، وفي كل نعمة وفي كل ضر . . وأن مرد الأمور كلها إلى الله . .

. . . هذه وأمثالها من المقومات والقيم ـ التي سنعرض لها بالتفصيل في مواضعها في القسم الثاني من هذا البحث ـ كلها ثابتة ، غير قابلة للتغير ولا للتطور . . ثابتة لتتحرك ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع في إطارها ، وتظل مشدودة إليها . ولتراعى مقتضياتها في كل تطور لأوضاع الحياة ، وفي كل ارتباط يقوم في المجتمع ، وفي كل تنظيم لأحوال الناس أفراداً وجماعات ، في جميع الأحوال والأطوار .

وقد تتسع المساحة التي تتجلى فيها مدلولات هذه المقومات والقيم ، كلما اتسعت جوانب الحياة الواقعية ، وكلما اتسع مجال العلم الإنساني ، وكلما تعددت المفاهيم التي تتجلى فيها هذه المقومات والقيم . ولكن أصلها يظل ثابتاً . وتتحرك في إطاره تلك المدلولات والمفاهيم .

حقيقة أن الإنسان مستخلف في هذه الأرض ـ مثلاً ـ تتجلى في صور شتى . .

تتجلى فى صورته وهو يزرع الأرض . لأن أوضاع حياته ومدى تجاربه تجعل الزراعة هى التى تفى فى ذلك الطور باحتياجاته الضرورية ، وبها تتحقق الخلافة . . وتتجلى كذلك فى صورته وهو يفجر الذرة ، ويرسل الأقمار الصناعية لتكشف له طبيعة الغلاف الجوى للأرض ، أو طبيعة الكواكب والتوابع من حوله . . هذه وتلك ـ وما بينهما وما بعدهما ـ صور من صور الخلافة فى الأرض ، قابلة دائما للزيادة والاتساع . ولكن حقيقة الخلافة فى الأرض ثابتة على كل حال . يقتضى مفهومها الثابت ألا يحال بين الإنسان ومزاولة حقه فى الخلافة وفق منهج الله المرسوم . وألا يعلو شىء فى هذه الأرض على « الإنسان » . وألا تهدر قيمته « الإنسانية » لينشئ قمراً صناعيا ، أو ليضاعف الإنتاج المادى ! فهو سيد الأقمار الصناعية ، وسيد الإنتاج المادى !

وحقيقةُ أن غاية الوجود الإنسانى هى العبادة ـ مثلا ـ تتمثل فى كل نشاط يتجه به الإنسان إلى الله . وألوان النشاط غير محدودة . فهى تابعة لمقتضيات الخلافة النامية المتجددة . . وتتمثل فى عبوديته لله وحده ، بالتحاكم إلى منهجه وحده ، فى كل شؤون الحياة . وهذه الشؤون غير محدودة . فهى كذلك تابعة لمقتضيات الخلافة النامية المتجددة . . ولكن حقيقة الغاية ثابتة لا تتغير . فإذا لم يتجه إلى الله بكل نشاط . وإذا لم يتحاكم إلى منهج الله فى كل شأن ، فقد أخل بهذه الحقيقة الثابتة ، وخرج على غاية وجوده الإنسانى . واعتبر عمله باطلاً غير قابل للتصحيح المستأنف ، ولا بالقبول من المؤمنين .

وهكذا ـ على هذا النحو ـ تتسع مساحة مدلولات هذه المقومات ، وتتنوع الصور التى تتجلى فيها . . ولكنها هى ثابتة فى التصور الإسلامى ، لا يتناولها التغير ولا التطور على كل حال .

* * *

وقيمة وجود تصور ثابت للمقومات والقيم على هذا النحو ، هى ضبط الحركة البشرية ، والتطورات الحيوية . فلا تمضى شاردة على غير هدى ـ كما وقع فى الحياة الأوربية عندما أفلتت من عروة العقيدة ـ فانتهت إلى تلك النهاية البائسة ، ذات البريق الخادع واللألاء الكاذب ، الذى يخفى فى طياته الشقوة والحيرة والنكسة والارتكاس .

وقيمته هى وجود الميزان الثابت الذى يرجع إليه « الإنسان » بكل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتصورات ، وبكل مايجدّ فى حياته من ملابسات وظروف وارتباطات . فيزنها بهذا الميزان الثابت . ليرى قربها أو بعدها من الحق والصواب . . ومن ثَم يظل دائما فى الدائرة المأمونة ، لا يشرد إلى التيه ، الذى لا دليل فيه من نجم ثابت ، ولا من معالم هادية فى الطريق !

وقيمته هى وجود « مقوّم » للفكر الإنسانى مقوّم منضبط بذاته . يمكن أن ينضبط به الفكر الإنسانى . فلا يتأرجح مع الشهوات والمؤثرات . وإذا لم يكن هذا المقوم الضابط ثابتاً . فكيف ينضبط به شىء إطلاقاً ! إذا دار مع الفكر البشرى ـ كيفما دار ـ ودار مع الواقع البشرى ـ كيفما دار ـ فكيف تصبح عملية الضبط ممكنة . وهى لا ترجع إلى ضابط ثابت . يمسك بهذا الفكر الدوّار ؟ أو بهذا الواقع الدوّار ؟!

إنها ضرورة من ضرورات صيانة النفس البشرية ، والحياة البشرية ، أن تتحرك داخل إطار ثابت ، وأن تدور على محور لا يدور ! إنها على هذا النحو تمضى على السنة الكونية الظاهرة فى الكون كله ، والتى لا تختلف فى جرم من الأجرام !

إنها ضرورة لا تظهر كما تظهر اليوم . وقد تركت البشرية هذا الأصل الثابت ، وأفلت زمامها من كل ما يشدها إلى محور . وأصبحت أشبه بجرم فلكى خرج من مداره ، وفارق محوره الذى يدور عليه فى هذا المدار . ويوشك أن يصطدم فيدمر نفسه ويصيب الكون كله بالدمار .

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن . . » .

(المؤمنون : ٧١)

والعاقل « الواعى » الذى لم يأخذه الدوار الذى يأخذ البشرية اليوم . حين ينظر إلى هذه البشرية المنكودة يراها تتخبط فى تصوراتها ، وأنظمتها ، وأوضاعها ، وتقاليدها ، وعاداتها ، وحركاتها كلها تخبطاً منكراً شنيعاً . . يراها تخلع ثيابها وتمزقها كالمهووس ! وتتشنج فى حركاتها وتتخبط وتتلبط كالممسوس . . يراها تغير أزياءها فى الفكر والاعتقاد ، كما تغير أزياءها فى الملابس ، وفق أهواء بيوت الأزياء ! . . يراها تصرخ من الألم ، وتجرى كالمطارد ، وتضحك كالمجنون ، وتعربد كالسكير ،

وتبحث عن لاشيء ! وتجرى وراء أخيله ! وتقذف بأثمن ما تملك ، وتحتضن أقذر ما تمسك به يداها من أحجار وأوضار !

لعنة ! لعنة كالتى تتحدث عنها الأساطير !

إنها تقتل « الإنسان » وتحوله إلى آلة . . لتضاعف الإنتاج !

إنها تقضى على مقوماته « الإنسانية » وعلى إحساسه بالجمال والخلق والمعانى السامية لتحقيق الربح لعدد قليل من المرابين وتجار الشهوات ، ومنتجى الأفلام السينمائية وبيوت الأزياء .

وتنظر إلى وجوه الناس ، ونظراتهم ، وحركاتهم ، وأزيائهم ، وأفكارهم ، وآرائهم ، ودعواتهم . فيخيل إليك أنهم هاربون ! مطاردون ! لا يلوون على شيء ، ولا يتثبتون من شيء ! ولا يتريثون ليروا شيئاً مّا رؤية واضحة صحيحة . . وهم هاربون فعلاً ! هاربون من نفوسهم التى بين جنوبهم ! هاربون من نفوسهم الجائعة القلقة الحائرة ، التى لا تستقر على شيء « ثابت » ولا تدور على محور ثابت ، ولا تتحرك فى إطار ثابت . . والنفس البشرية لا تستطيع أن تعيش وحدها شاذة عن نظام الكون كله . ولا تملك أن تسعد وهى هكذا شاردة تائهة ، لا تطمئن إلى دليل هاد ، ولا تستقر على قرار مربح !

وحول هذه البشرية المنكودة زمرة من المستنفعين بهذه الحيرة الطاغية ، وهذا الشرود القاتل . . زمرة من المرابين ، ومنتجى السينما ، وصانعى الأزياء والصحفيين، والكتاب . . يهتفون لها بالمزيد من الصرع والتخبط والدوار ، كلما تعبت وكلت خطاها ، وحنت إلى المدار المنضبط والمحور الثابت ، وحاولت أن تعود!

زمرة تهتف لها . . التطور . . الانطلاق . . التجديد . . بلا ضوابط ولا حدود . . وتدفعها بكلتا يديها إلى المتاهة كلما قاربت من المثابة . . باسم التطور . . وباسم الانطلاق . . وباسم التجديد . .

إنها الجريمة . الجريمة المنكرة فى حق البشرية كلها . وفى حق هذا الجيل المنكود[1] !

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » . .

وفكرة « التطور » المطلق ، لكل الأوضاع ، ولكل القيم ، ولأصل التصور الذى ترجع إليه القيم . فكرة تناقض ـ كما قلنا ـ الأصل الواضح فى بناء الكون ، وفى بناء الفطرة . ومن ثَم ينشأ عنها الفساد الذى لا عاصم منه . . إنها تمنح حق الوجود ، ومبرر الوجود ، لكل تصور ، ولكل قيمة ، ولكل وضع ، ولكل نظام . مادام تالياً فى الوجود الزمنى ! وهو مبرر تافه ، عرضى ، لا ينبغى أن يكون له وزن فى الحكم على تصور أو وضع أو قيمة أو نظام . إنما ينبغى أن يكون الوزن لمقومات ذاتية فى ذات الوضع أو ذات النظام .

ونحن نعرف أن الفكر الأوربى ـ فى هروبه من الكنيسة ، ورغبته الخفية والظاهرة فى خلع نيرها ـ قد مال إلى نفى فكرة « الثبات » ـ على الإطلاق ـ واستعاض عنها فكرة « التطور » ـ على الاطلاق ـ لم يستثن منها أصل العقيدة والشريعة . بل لقد كانت فكرة ثبات مقومات العقيدة والشريعة بالذات هى التى يريد التفلت منها والتملص والخلاص !

وسلوك الفكر الغربى هذا المسلك مفهوم لنا جيداً من خلال الاستعراض السابق . وما يفسره ـ وإن لم يكن له مايبرره على إطلاقه ـ ونحن لا نشتد فى لوم الفكر الغربى على موقفه هذا . وإن يكن موقفاً خاطئاً معيباً . فقد صادف عقيدة محرفة مشوهة مشوبة بالوثنيات والأساطير منذ اللحظة الأولى . ثم واجه كنيسة مستبدة فاسدة فى الوقت ذاته ، تستطيل على الفكر والعلم والناس باسم هذه الخرافات التى تجعلها أساس العقيدة « الثابتة » !

نحن لانشتد فى لوم الفكر الغربى على هذا الموقف . ولكننا ـ فى الوقت ذاته ـ يجب أن نفطن إلى الأسباب الحقيقية لجنوح الفكر الغربى ـ أو جموحه ـ لتغليبَ فكرة «التطور » المطلق ، الذى لا يتقيد بأى أصل ثابت ، ولا بأية قيمة ثابتة ، ولا بأية حقيقة ثابتة . فليست هذه « حقيقة علمية » وإنما هى شهوة جامحة ، وهوى شارد ، مبعثه الرغبة فى التملص من وثاق الكنيسة الجبار !

إن دارون ـ وهو يقرر مذهب التطور فى خط سير الحياة ـ لم يكن يبحث ، ولم يكن بحثه يتناول ، إلا جزئية سطحية من جزئيات هذا الكون ، تبدأ بعد وجود الحياة .

ولا تمتد إلى مصدر الحياة ، ولا إلى الإرادة التى صدرت عنها الحياة . . وحتى على فرض صحة نظريته ـ والآن توجه معاول الهدم إلى صلب النظرية [1] ـ فإن خط التطور يثبت أن هناك إرادة ثابتة من ورائه . وأنه يتم وفق خط مرسوم لا مجال للمصادفة فيه . وأنه جزء من « الحركة » التى هى قانون من قوانين الكون . وحركة الكون كما قلنا ليست فوضى ، وإنما هى تتم حول قاعدة « ثابتة » وتتم فى إطار «ثابت !» .

وعلى أية حال فلم يكن لا « المنهج العلمى » ولا « الحقائق العلمية » هى التى أملت على دارون ـ حين لم يهتد إلى سر الحياة ، ولم يستطع تعليلها علميا ـ أن يهرب من ردها إلى الله . ووجودها ذاته يحتم الاعتراف بموجد لها ، وانتظام خط سيرها وتناسقها مع الكون يحتم الاعتراف بأن موجدها لابد أن يكون مريداً مختاراً فيما يريد ، عليماً خبيراً ، قادراً على تحقيق ما يريد . . ولكن دارون كان هارباً من « الله » لأنه كان هارباً من الكنيسة وإلهها الذى تصول باسمه وتجول . . ومن ثم رد الحياة إلى «الطبيعة» ـ التى لا حد لقدرتها كما يقول ! ومن ثَم حاول أن يوهم أن لا ثبات لشىء ـ على الإطلاق ـ بينما بحثه كله كان فى دائرة خط سير الحياة . بعد وجود الحياة . ولم يكن يتناول « كل شىء » على الإطلاق [2] !

والمذهب الماركسى ، هو أشد المذاهب « الوضعية » معارضة لحقيقة « الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت » ، لأن الاعتراف بهذه الحقيقة البارزة فى طبيعة الكون « المادى » ذاته ، يفقد المذهب ركيزته الأولى التى يقوم عليها ، ويحطم دعواه فى « التقدمية » كما يفهمها !

« وماركس له جدل (Dialektik) ومنطق استخدم فيه مبدأ « النقيض» الذى عرف للفيلسوفين الألمانيين قبله : نيتشه وهيجل . ولكن استخدمه فى مجال آخر غير مجال « التصور » عند نيتشه وغير مجال « الفكرة » عند هيجل استخدمه فى مجال «الاقتصاد » مستنداً إلى تاريخ الجماعة .

---

(١) راجع جوليان هكسلى فى كتابه : « الإنسان والعلم الحديث » ، وكريسى موريسون فى كتابه «الإنسان لايقوم وحده » ترجمة محمود صالح الفلكى بعنوان : « العلم يدعو إلى الإيمان» . .

(٢) يراجع بتوسع كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » وكتاب « معركة التقاليد » لمحمد قطب .

« فكل « شىء» فى نظره يتضمن نقيضه . بحيث أن كل « شىء» يهدم نفسه . . وهذا هو التصوير العام لمبدأ النقيض . . ولكن ماركس يستخدمه للتدليل على وقوع انهيار « الجماعات » التى قامت على « الرأسمالية » . فالجماعات السابقة عليها . وهى دول الملوك ، والجماعات الإقطاعية (أصحاب المزارع الكبيرة) انهارت ـ بناء على تفكير ماركس ـ لأنها تضمنت عنصر المقابلة أو النقيض . وعلى هذا النحو كذلك ستنهار هذه الجماعة الحديثة « الرأسمالية » وتتحول إلى المقابل والنقيض . وهو الجماعة « الشيوعية » ذات الطبقة الواحدة من العمال .

« ومع أن مبدأ النقيض لا يقف بتحول الشىء إلى مقابله فقط . بل سيتحول الشىء ومقابله إلى جامع لهما . ثم هذا الجامع يصير إلى « شىء » يتحول أيضاً إلى مقابله . ثم إلى جامع . . . وهكذا . مع أن منطق هذا المبدأ هو الاستمرار فى التحول . . فالماركسية تقف بترقب تحول الجماعة . ولا تتحدث ـ فضلاً عن أن تترقب ـ عن انهيار الجماعة الشيوعية وسقوطها ، وهدم نفسها فى جماعة مقابلة . بناء على أن كل شىء يتضمن نقيض نفسه ، وفيه عامل الهدم لنفسه !!!

. . . « وكنتيجة لهذا (أى للتحول الدائم الذى يقف به ماركس عند الشيوعية تحكماً وهوًى) أن الذى يعتقد بالقيم الأزلية هو مصدق بأشياء لا توجد . حتى هؤلاء الذين يعتقدون أن بعض القيم للوقت الحاضر ، أو للحال الراهن ، يجب أن يحتفظ بها ، هم مصدقون بما لايقع . فإذا اعتقد شخص أن كل شىء يتغير . فمن السذاجة أن يكون محافظاً » !

« وعلى نحو صنيع هيجل فى صياغة مبدأ النقيض ، توضح الماركسية أن كل شىء يتضمن قوتين رئيسيتين متقابلتين : واحدة تسمى « الدعوى » والأخرى تسمى « مقابل الدعوى » . وهاتان القوتان تهدم إحداهما الأخرى . ولكن ينشأ من الهدم حالة جديدة تسمى « جامع الدعوى ومقابلها » ثم يسقط هذا الجامع ويتحول إلى مقابله . وعندئذ نحصل على دعوى ومقابل الدعوى من جديد . ثم ينشأ من تقابلهما وتناقضهما جامع جديد . فى تسلسل لا نهاية له[1] .

(١)ولكن الماركسية كما رأينا تقف بقانونها ذاته عند هواها ! فلا تعمله إلا فيما قبل قيام « الشيوعية » ثم تبطله بعد أن تبلغ « غرضها» منه ! وتسمى هذا تفكيرًا علميا ! . . وذلك فوق ما فى مبدأ النقيض ذاته من تحكمية نظرية لا رصيد لها من الواقع كما أسلفنا!

وصياغة مبدأ النقيض فى هذه العبارات تناسب تطبيقه فى دائرة « الجماعة » التى اختارتها الماركسية مجالاً للتطبيق . كما تناسب « الصراع » بين الطبقات فى الجماعة ، التى حرصت هى أيضاً على أن يكون مصطلحا لها ، بدلاً عن « التقابل » بين الشىء ومقابله ، الذى اصطلح عليه نيتشه وهيجل من قبل فى شرح النقيض .

« واستخدام مبدأ النقيض فى دائرة « الجماعة » ـ كما اختارت الماركسية ـ يعطيها دليلاً على أن الشيوعية ـ كجماعة ـ هى أسمى فى القيمة من كل جماعة وجدت سابقاً ! فالجماعة ذات النظام الملكى سقطت ، وتحولت إلى الجانب المقابل ـ وهو حكام الملك من جانب والعبيد والفقراء من جانب آخر ـ ومن الكفاح بين الفريقين المتقابلين تكوّن الجامع بين الشىء ومقابله ـ وهو الجماعة الإقطاعية ـ وبعد ذلك سقط الإقطاع فى القوة المقابلة ـ وهى قوة الملاك من جانب والفلاحين من جانب آخر ـ ومن الكفاح بين الملاك والفلاحين نشأت الرأسمالية . . وتريد الماركسية أن تقول الآن : إن الرأسمالية (فى الصناعة) ستسقط فى القوة المقابلة ـ وهى قوة العمال من جانب وأصحاب العمل من جانب آخر ـ والجماعة الجديدة هى الجماعة الاشتراكية الماركسية ذات الطبقة الواحدة !

« ولكن أيقف « مبدأ النقيض » عند هذه الجماعة الجديدة ؟ أم ستسقط هى بدورها فى مقابل لها ـ كما هى ضرورة منطق هذا المبدأ ـ كضرورة حتمية فى الوجود ؟ !

« وانتقال الجماعة من حال إلى حال يصحبه فى نظر الماركسية التطور فى « القيمة » فالإقطاع أسمى من دولة الملك . والرأسمالية أسمى من الإقطاع . والشيوعية أسمى من الجماعات الرأسمالية !

« وادعاء أن كل جماعة أسمى من سابقتها مصدر براق للدعاية الشيوعية . وكثير من الناس يصيرون أتباعاً للشيوعية ، لأنهم يعتقدون أنهم يعملون من أجل عالم أحسن من أى عالم وجد قبل ذلك »[1] !!!

وظاهر من هذا العرض لأصول المذهب الماركسى أنه قائم على « التحكم » الذى تمليه الرغبة فى الوصول إلى نتائج معينة مرسومة من قبل ! لا على الواقع . ولا على تتبع هذا الواقع .

---

(١) « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » للدكتور محمد البهى ص ٣١١ ـ ٣١٥

فمبدأ النقيض ابتداء ـ كما هو فى فلسفة نيتشه وهيجل ـ مجرد « تحكم » تصورى فكرى ، لا رصيد له من الواقع ـ كما أسلفنا ـ وحين يطبقه كارل ماركس على تاريخ الجماعة البشرية ، يتعمد أولاً أن يسقط جميع « مقوّمات » الجماعات البشرية ، التى يمكن أن يجرى فيها التحول ـ إذا صح مبدأ النقيض ـ ويعتمد فقط المقوّم الاقتصادى ويشرح التحول فيه ـ وهو على كل أهميته ـ لا يمثل كل مقومات الحياة الإنسانية . . ثم هو بعد ذلك كله يعتمد تاريخ جماعة معينة ـ هى الجماعة الأوربية ـ ثم هو يتحكم فى تاريخ هذه الجماعة الخاصة . فيختار نقطاً معينة فيه . فضلاً على استحالة إدراك فرد واحد ، فى جيل من الأجيال ، لجميع العوامل والمؤثرات التى لعبت ادوارها فى حياة هذه الجماعة على مدار القرون ! فيختار مظهراً واحداً من مظاهر نشاطها ويهمل سائر المظاهر ! ثم يتحكم مرة رابعة أو خامسة أو عاشرة ، فيعتبر أن كل وضع تال خير من الوضع السابق له على الإطلاق . ومع ذلك لا يريد أن يدع العجلة تمضى إلى وضع خير من الشيوعية . . بل يوقف سير التاريخ عند هذه النقطة! ويضحى بالخير الآتى !!!

ومع هذا التهافت فى بناء المذهب على مجرد التحكم والهوى ، فقد صحبته لوثة فى وزن القيم لم تقتصر على معتنقيه ، بل تجاوزتهم إلى المعارضين له كذلك : فى أوربا وفى أمريكا ! لوثة التخلى عن كل ما هو سابق ، والتقاط كل ما هو لاحق . ولوثة التحلل من كل قيمة تصد الشهوات عن الانطلاق بلا حدود ولا قيود . ولوثة السخرية من ثبات القيم الأخلاقية وغير الأخلاقية . اللوثة التى كان للماركسية من ورائها هدف خاص ، وغاية مرسومة سلفاً . ولم تكن هى بذاتها نتيجة منطقية لأية دراسة «علمية»!

فالتطور المطلق هو مجرد عملية تبرير لكل ما يراد عمله . وهو أولاً وقبل كل شيء عملية تبرير لما تريده « الدولة » بالأفراد ، بحيث لايكون هناك مبدأ ثابت ، ولا قيمة ثابتة ، يلوذ بها الأفراد فى مواجهة الدولة . وبحيث لا يكون هناك « حق ثابت » يفيء إليه الجميع ، ولا دستور ثابت يتحاكم إليه الجميع !

وفى نظير إطلاق يد الدولة تجاه الأفراد من كل قيد ، تطلق الدولة « شهوات » الأفراد من كل قيد . ليجدوا فى هذا الانطلاق « الحيوانى » تعويضاً عن قيمهم

المسلوبة ، وحرياتهم المسلوبة ، وحقوقهم المسلوبة !

انطلاق حيوانى للشهوات ، يقابله انطلاق استبدادى للسلطة . . واحدة بواحدة . . وبدلاً من أن تقوم هذه الصفقة على مجرد الاصطلاح العرفى الصامت بين الفريقين ! فإنها تقوم على مبدأ « فلسفى » ! وعلى مذهب « علمى » ! تقوم على «مبدأ النقيض » وتقوم على « المادية الجدلية » !

وهذا هو المذهب الذى يزعم أن « الدين مخدر » وأن ثبات القيم فى الدين مقصود به خدمة الطبقة الحاكمة !

* * *

إن « الثبات » فى مقومات التصور الإسلامى وقيمه ـ فضلاً على أنه امتداد للنظام الكونى ـ هو الذى يضمن للحياة الإسلامية خاصية « الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت » فيضمن للفكر الإسلامى وللحياة الإسلامية مزية التناسق مع النظام الكونى العام ، ويقيه شر الفساد الذى يصيب الكون كله لو اتبع أهواء البشر ، بلا ضابط من قاعدة ثابتة لا تتأرجح مع الأهواء .

وهو الذى يقى الفكر الإسلامى ويقى المجتمع الإسلامى مثل تلك اللوثة فى الفكر الماركسى وفى الجماعة الشيوعية . وهى اللوثة ذاتها التى أصابت الفكر الغربى والمجتمعات الغربية بصفة عامة ـ حتى وهى تعارض الماركسية من الناحية المذهبية والسياسية ـ وذلك منذ أفلتت من نطاق العقيدة ، فى ظل تلك الملابسات النكدة . .

وهو الذى يبث الطمأنينة فى الضمير المسلم ، وفى المجتمع المسلم . . الطمأنينة إلى ثبات الإطار الذى تتحرك فيه حياته ، وثبات المحور الذى تدور حياته حوله . فيشعر أن حركته إلى الأمام ، ثابتة ا لخطو ، موصولة الخيط ، ممتدة من الأمس إلى اليوم إلى الغد . نامية مطردة النمو . صاعدة فى المرتقى المرسوم ، بالتقدير الإلهى القويم .

ثم هو ـ فى النهاية ـ الذى يضمن للمسلم فى المجتمع الإسلامى مبادئ ثابتة يتحاكم إليها هو وحكامه على السواء . فلا يطلق هؤلاء أيديهم فى مقوّماته وحرياته وحقوقه ، فى مقابل أن يطلقوا هم حرية الشهوات والنزوات الحيوانية للجماهير المكبوتة فى قماقم الاستبداد !

وبعد فإن التصور الإسلامى ـ من ثم ـ يقوم على أساس أن هناك حالتين اثنتين للحياة البشرية . ولا علاقة للزمان أو للمكان فى تقدير قيمة هاتين الحالتين . إنما القيمة لذات كل حالة . ولوزنها فى ميزان اللّه الثابت ، الذى لا يتأثر بالزمان والمكان . .

حالتان اثنتان تتعاوران الحياة البشرية على مدى الزمان واختلاف المكان : حالة الهدى وحالة الضلال ـ مهما تنوعت ألوان الضلال ـ حالة الحق وحالة الباطل ـ مهما تنوعت ألوان الباطل ـ حالة النور وحالة الظلام ـ مهما تنوعت ألوان الظلام ـ حالة الشريعة وحالة الهوى مهما تنوعت ألوان الهوى ـ حالة الإسلام وحالة الجاهلية ـ مهما تنوعت ألوان الجاهلية ـ حالة الإيمان وحالة الكفر ـ مهما تنوعت ألوان الكفر ـ وإما أن يلتزم الناس الإسلام ديناً (أى منهجاً للحياة ونظاماً) وإلا فهو الكفر والجاهلية والهوى والظلام والباطل والضلال .

« إن الدين عند الله الإسلام » . . . (آل عمران : ١٩)

« ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » . . . (آل عمران : ٨٥)

« فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ . . . (يونس : ٣٢)

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون» . . . (الجاثية : ١٨)

« وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» . . . (الأنعام : ١٥٣)

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » . . . (البقرة : ٢٥٧)

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . . (المائدة : ٤٤)

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟»

(المائدة : ٥٠)

« فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» . .

(النساء : ٥٩)

فإذا ثبت هذا الإطار استطاعت الحياة ـ فكرة وتصوراً وواقعاً ونظاماً ـ أن تتحرك فى داخله بحرية ومرونة ، واستجابة لكل تطور فطرى صحيح ، مستمد من التصور الكلى الثابت القويم .

والقيمة الكبرى لهذه الخاصية ، هى تثبيت الأصل الذى يقوم عليه شعور المسلم وتصوره ، فتقوم عليه الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامى فى استقرار وثبات . مع إطلاق الحرية للنمو الطبيعى فى الأفكار والمشاعر ، وفى الأنظمة والأوضاع . فلا تتجمد فى قالب حديدى ميت ـ كالذى أرادته الكنيسة فى العصور الوسطى ـ ولا تنفلت كذلك من كل ضابط انفلات النجم الهالك من مداره وفلكه ! وانفلات القطيع الشارد فى المهلكة المقطوعة ! كما صنعت أوربا فى تاريخها الحديث ، حتى انتهت إلى ذلك التفكير الماركسى الشائه !

ولعل هذه الخاصية هى التى ضمنت للمجتمع الإسلامى تماسكه وقوته مدى ألف عام . على الرغم من جميع الهزات ، ومن جميع الضربات ، ومن جميع الهجمات الوحشية عليه من أعدائه المحيطين به فى كل مكان . . ولم يبدأ تفككه وضعفه إلا منذ أن تخلى عن هذه الخاصية فى تصوره ، وإلا منذ أن أفلح أعداؤه فى تنحية التوجيه الإسلامى ، وإحلال التوجيهات الغربية مكانه فى العالم الإسلامى[1] .

ومما لا شك فيه أن المجتمع الذى يجرى دائماً وراء تصورات متقلبة أبداً ، لا تستند إلى أصل ثابت إطلاقاً ، تنبع من الفكر البشرى المحدود المعرفة ، الظنى المعرفة كذلك ، الذى يبنى علمه ـ مهما علم ـ على الظن والحدس والخرص ، والفروض المتقلبة أبداً . . ثم يجعل من هذا العلم الظنى إلهاً ، أو يجعل من الهوى المتقلب إلهاً ، يتلقى منه التصورات والقيم والموازين .

مما لاشك فيه أن مجتمعاً كهذا معرض دائماً للهزات العنيفة ، والأرجحة المستمرة ، التى تنشئ فى عقله الحيرة ، وفى ضميره البلبلة ، وفى أعصابه التعب ، وفى حياته الشرود ، وفى كيانه الفساد .

وهذا هو الذى حدث فى المجتمعات الأوربية المفلتة من كل أصل ثابت . وهذا

---

(١) يراجع كتاب : « هل نحن مسلمون ؟» لمحمد قطب .

هو الذى تشقى به البشرية كلها اليوم . وهى تخبط فى التيه ، وراء المجتمعات الأوربية الشاردة [1] !

لابد من تصور ثابت المقومات والقيم ، يجىء من مصدر ثابت العلم والإرادة ! مصدر يرى المجال كله ، والخط كله ، فلا تخفى عليه منحنيات الدرب ، ولا يقدر اليوم تقديراً يظهر فى غد خطؤه ونقصه ، ولا تتلبس به شهوة أو هوى يؤثر فى موازينه وتقديراته . . ولا ضير بعد هذا من الحركة ، والتغير ، والتطور ، والنمو والترقى . . بل تصبح كلها مطلوبة ، وتصبح كلها مأمونه ، وتصبح كلها تلبية للفطرة : القائمة على الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت . ولكنها حركة راشدة واعية ، مدركة للغاية الثابتة التى تتجه إليها ، فى خطو متزن ، مستقيم راسخ . . وهذا هو ضمان الحياة الطويلة المدى ، المتناسقة التصميم .

ولا نحتاج إلى الحيطة ضد التجمد فى قالب حديدى ، ونحن نستمسك بهذه الخاصية فى التصور الإسلامى ـ خاصية الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت ـ فخاطر التجمد لا يرد على مثل هذا التصور ، ولا على الحياة التى تتحرك فى إطاره . فالحركة كما قلنا هى القاعدة فيه ، كما أنها هى القاعدة فى التصميم الكونى . والكون لا يتجمد ولا يأسن ولا يفسد ولا يركد . فهو فى حركة دائمة ، وفى تغير دائم ، وفى تطور دائم ، وفى تشكل مستمر فى كل لحظة . ولكنه يتحرك مع استبقاء حقيقته الأصيلة كما قلنا فى مطلع هذه الفقرة .

وحين نطالع مذاهب الفكر الغربى ، فنرى الطابع الغالب عليها هو اعتبار «التطور» المطلق ـ دون الرجوع إلى أى أصل ثابت ـ فيجب أن نكون واعين للعوامل التاريخية التى جعلت هذا الفكر يجنح ـ أو يجمح ـ هكذا . ويجب أن نفطن لما اندس فى هذا الفكر من عداء عميق كامن للتفكير الدينى على الإطلاق ، والأسباب القابعة وراء هذا العداء . ويجب أن ندرك أن مناهج هذا الفكر ـ بما اندس فى صلبها من هذا العداء ـ لا تصلح للتطبيق على مناهجنا الإسلامية ، ولا تصلح للاستعانة بها فى بحوثنا الإسلامية كذلك !

إننا نقتبس من هذا الفكر ـ تارة مناهجه ، وتارة النتائج التى وصل إليها ، وتارة

(١) يراجع كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة » .

رقعاً ممزقة منه ـ ثم نخلط هذا كله بحديثنا عن الإسلام ، أو عن المجتمع ، أو عن مناهج الفكر والنظر . . وهذه كلها جهالة تتباهى وهى تتبدى فى ثياب المعرفة ! وأحياناً يضاف إلى الجهالة التفاهة وسوء النية كذلك !

يقول الأستاذ المهتدى محمد أسد (ليوبولد فايس) فى كتابه القيم : « الإسلام على مفترق الطرق » :

« يخبرنا التاريخ أن جميع الثقافات الإنسانية ، وجميع المدنيات ، أجسام عضوية تشبه الكائنات الحية . . إنها تمر فى جميع أدوار الحياة العضوية ، التى يجب أن تمر بها . إنها تولد ، ثم تشب وتنضج ، ثم يدركها البلى فى آخر الأمر . فالثقافات كالنبات الذى يذوى ثم يستحيل تراباً . تموت فى أواخر أيامها ، وتفسح المجال لثقافات أخر ولدت حديثاً .

« أهذه إذن حال الإسلام ؟ ربما ظهرت كذلك عند إلقاء أول نظرة سطحية . . مما لاشك فيه أن الثقافة الإسلامية شهدت نهضة مجيدة ، وعهداً من الازدهار . وكان لها من القوة ما يلهم الرجال جلائل الأعمال ، وأنواع التضحية . ولقد غيرت معالم الشعوب ، وخلقت دولاً جديدة . . ثم سكنت وركدت ، وأصبحت كلمة جوفاء . . وها نحن أولاء اليوم نشهد انحطاطها التام وانحلالها . . ولكن هل هذا كل مافى الأمر ؟

« إذا كنا نعتقد أن الإسلام ليس مدنية من المدنيات الأخر ، وليس نتاجاً بسيطاً لآراء البشر وجهودهم ، بل هو شرع سنه الله لتعمل به الشعوب فى كل مكان وزمان ، فإن الموقف يتبدل تماماً .

« وإذا كانت الثقافة الإسلامية ـ فى اعتقادنا ـ نتيجة لاتباعنا شرعاً منزلاً . . فإننا حينئذ لا نستطيع أبداً أن نقول : إنها كسائر الثقافات ، خاضعة لمرور الزمن ، ومقيدة بقوانين الحياة العضوية . . ثم إن ما يظهر انحلالاً فى الإسلام ليس إلا موتاً وخلاء يحلان فى قلوبنا ، التى بلغ من خمولها وكسلها أنها لا تستمع إلى الصوت الأزلى . . ثم ليس ثمة علامة ظاهرة تدل على أن الإنسانية ـ مع نموها مع الحاضر ـ قد استطاعت أن تشب عن الإسلام . . إنها لم تستطع أن تبنى فكرة الإخاء الإنسانى

على أساس عملى ، كما استطاع الإسلام أن يفعل ، حينما أتى بفكرة القومية العليا : « الأمة » . . إنها لم تستطع أن تشيد صرحاً اجتماعياً يتضاءل التصادم والاحتكاك بين أهله فعلاً على مثال ما تم فى النظام الاجتماعى الإسلامى . . إنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان ، ولا أن تزيد فى شعوره بالأمن ، ولا فى رجائه الروحى وسعادته .

« ففى جميع هذه الأمور نرى الجنس البشرى فى كل ما وصل إليه ، مقصراً كثيراً عما تضمنه المنهج الإسلامى . . فأين ما يبرر القول إذن بأن الإسلام قد ذهبت أيامه؟ أذلك لأن أسسه دينية خالصة . والاتجاه الدينى زى غير شائع اليوم ؟ ولكن إذا رأينا نظاماً بنى على الدين ، قد استطاع أن يقدم منهاجاً عملياً للحياة أتم وأمتن وأصلح للمزاج النفسانى فى الإنسان ، من كل شىء آخر يمكن العقل البشرى أن يأتى به عن طريق الإصلاح والاقتراح . . أفلا يكون هذا نفسه حجة بالغة فى ميدان الاستشراف الدينى ؟

« لقد تأيد الإسلام ـ ولدينا جميع الأدلة على ذلك ـ بما وصل إليه الإنسان من أنواع الإنتاج الإنسانى ، لأن الإسلام كشف عنها ، وأشار إليها ، على أنها مستحبة ، قبل أن يصل إليها الناس بزمن طويل .

« ولقد تأيد أيضاً ـ على السواء ـ بما وقع فى أثناء التطور الإنسانى من قصور وأخطاء وعثرات . لأنه كان قد رفع الصوت عالياً واضحاً بالتحذير منها ، من قبل أن تتحقق البشرية أن هذه أخطاء . . وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الدينى نجد ـ من وجهة نظر عقلية محض ـ كل تشويق إلى أن نتبع الهدى الإسلامى ، بصورة عملية ، وبثقة تامة » . . .

. . . « نحن لا نحتاج إلى فرض إصلاح على الإسلام ـ كما يظن بعض المسلمين ـ لأن الإسلام كامل بنفسه من قبل . أما الذى نحتاج إليه فعلاً ، فهو إصلاح موقفنا من الدين ، بمعالجة كسلنا ، وغرورنا ، وقصر نظرنا ، وبكلمة واحدة : معالجة مساوئنا . . .

. . . « إن الإسلام ـ كمؤسسة روحية واجتماعية ـ غنى عن كل تحسين . وإن كل تغيير فى مثل هذه الحال يطرأ على مدركاته ، وعلى تنظيمه الاجتماعى ، بافتئات من

ثقافة أجنبية ـ ولو بإشراق ضئيل ـ سيكون مدعاة إلى الأسف الشديد ، وسترجع الخسارة حتماً علينا نحن »[1] .

ونحن نقول ، إن الخسارة لن ترجع علينا ـ نحن المسلمين وحدنا ـ ولكنها سترجع على البشرية كلها . . سترجع على البشرية كلها بتشويه وتحريف المصدر الوحيد الباقى لها من هداية الله . وتكدير ـ أو تسميم ـ المورد الوحيد ، الذى يمكن أن تستقى منه الهدى الربانى الخالص . . . وسترجع على البشرية كلها بحرمانها هذه المثابة الثابتة المستقرة ، فى الأرض المرجرجة التى تمور بالأهواء . والتى ظهر فيها الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس . ولم تعد لها منجاة إلا فى هذه المثابة الآمنة المستقرة ، الموصولة بالله . .

والذين يحاولون زعزعة هذه المثابة . . سواء باسم التجديد والإصلاح والتطور ، أو باسم التخلص من مخلفات القرون الوسطى ! أو تحت أى شعار آخر ، هم : أعداؤنا الحقيقيون . هم أعداء الجنس البشرى . وهم الذين ينبغى أن نطاردهم ، وأن نطلب إلى الجنس البشرى مطاردتهم كذلك !

إنهم يتحدثون باسم « التقدمية » ضد « الرجعية » فى حين أنهم لايزالون يقتاتون على نتاج القرن التاسع عشر ، أو القرن الثامن عشر ـ نتاج أوربا لا نتاجهم ! ـ ولم يصلوا بعد إلى نتاج القرن العشرين » إنهم متخلفون فى تفكيرهم نصف قرن على الأقل. لم يعلموا بعد أن التفكير المضاد للماركسية ، وللحيوانية ، قد أخذ يبدو كظاهرة عامة فى الفكر الأوربى نفسه ، بينما هم يتعبدون لمادية وجدلية الفكر الماركسى ومشتقاته ! ولنشوء وارتقاء دارون ومشتقاته ! إنهم « رجعيون » يزعمون أنهم « تقدميون» ! بينما « التقدمية » الحقيقية اليوم تجد نفسها مضطرة أن تعود إلى الدين . تتطلب، عنده الطمأنينة والراحة واليقين . بعد الحيرة والقلق والشرود خلال ثلاثة قرون!

ونحن الذين وقانا الله شر تلك الملابسات التاريخية التى شردت الفكر الغربى فى مجاهل التيه . . نكون أحمق الحمقى إذا نحن شردنا فى التيه مختارين بدون عذر ولا سبب ولا ملابسة من ملابسات التاريخ !

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق . تأليف محمد أسد ، ترجمة : عمر فروخ ص ١٠٩ ـ ص ١١٢

ولا نكون مضيعين لأنفسنا فى التيه فحسب ، بل نكون مضيعين للبشرية كلها ، حين نُفقدها المثابة الثابتة ، التى يمكن أن تفىء إليها ذات يوم . فتجد عندها الأمن والطمأنينة والاستقرار ، بعد طول الشرود والقلق والعثار .

فلنقدر تبعتنا الخطيرة تجاه أنفسنا وتجاه البشرية كلها فى هذا الأمر الخطير .

الشمول

«وَكُلَّ شَيءٍ أحْصَيْنَاهُ فِى إمَامٍ مُبِين»

والخاصية الثالثة من خصائص التصور الإسلامى هى . . الشمول . . وهى كذلك ناشئة من طبيعة الخاصية الأولى : خاصية أنه ربانى ، من صنع الله لا من صنع الإنسان . . والشمول طابع الصنعة الإلهية الأصيل !

* * *

فالإنسان لأنه أولاً محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان . . إذ هو حادث فى زمن ، يبدأ بعد عدم ، وينتهى بعد حدوث . ومتحيز فى مكان ، سواء كان فرداً أو كان جيلاً أو كان جنساً ، لا يوجد إلا فى مكان ، ولا ينطلق وراء المكان ـ كما أنه لايوجد إلا فى زمان ولا ينطلق وراء الزمان ـ ولأنه محدود الكينونة من ناحية العلم والتجربة والإدراك . . يبدأ علمه بعد حدوثه ، ويصل من العلم إلى ما يتناسب مع حدود كينونته فى الزمان والمكان ، وحدود وظيفته كذلك ـ كما أسلفنا ـ ولأنه فوق أنه محدود الكينونة ـ بهذه الاعتبارات كلها ـ محكوم بضعفه وميله وشهوته ورغبته ـ فوق ما هو محكوم بقصوره وجهله . . .

الإنسان وهذه ظروفه ، حينما يفكر فى إنشاء تصور اعتقادى من ذات نفسه ، أو فى إنشاء منهج للحياة الواقعية من ذات نفسه كذلك ، يجىء تفكيره محكوماً بهذه السمة التى تحكم كينونته كلها . . يجىء تفكيره جزئيا . . يصلح لزمان ولا يصلح لآخر . ويصلح لمكان ولا يصلح لآخر . ويصلح لحال ولا يصلح لآخر ، ويصلح لمستوى ولا يصلح لآخر . . فوق أنه لايتناول الأمر الواحد من جميع زواياه وأطرافه ، وجميع ملابساته وأطواره ، وجميع مقوماته وأسبابه . . لأن هذه كلها ممتدة فى الزمان

والمكان ، وممتدة فى الأسباب والعلل ، ووراء كينونة الإنسان ذاته ، ومجال إدراكه . . وذلك كله فوق ما يعتور هذا التفكير من عوامل الضعف والهوى وهما سمتان إنسانيتان أصيلتان !

وكذلك لا يمكن أن تجيء فكرة بشرية ، ولا أن تجيء منهج من صنع البشرية يتمثل فيه « الشمول » أبداً . . . إنما هو تفكير جزئى . وتفكير وقتى . ومن جزئيته يقع النقص ، ومن وقتيته يقع الاضطراب الذى يحتم التغيير ، ويتمثل فى الأفكار التى استقل البشر بصنعها ، وفى المناهج التى استقل البشر بوضعها دوام « التناقض» أو دوام « الجدل » المتمثل فى التاريخ الأوربى !

فأما حين يتولى الله ـ سبحانه ـ ذلك كله . . فإن التصور الاعتقادى ، وكذلك المنهج الحيوى المنبثق منه ، يجيئان بريئين من كل ما يعتور الصنعة البشرية من القصور والنقص والضعف والتفاوت . . وهكذا كان « الشمول » خاصية من خواص « التصور الإسلامى » .

وتتمثل خاصية الشمول التى يتسم بها هذا التصور فى صور شتى :

إحدى هذه الصور وأكبرها : رد هذا الوجود كله . . بنشأته ابتداء ، وحركته بعد نشأته ، وكل انبثاقة فيه ، وكل تحور وكل تغير وكل تطور . والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه وتنسيقه . . . إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة . . هذه الذات . المريدة ، القادرة . المطلقة المشيئة ، المبدعة لهذا الكون ، ولكل شىء فيه ولكل حى ، ولكل حركة ، وكل انبثاقة ، وكل تحور ، وكل تغير ، وكل تطور . بقدر خاص . . وبمجرد توجه الإرادة . .

فالله سبحانه هو الذى أنشأ هذا الكون ابتداء ، وهو الذى يحدث فيه بمشيئته كل تغيير جديد ، وكل انبثاق وليد . .

وهذه هى حقيقة « التوحيد » الكبيرة ، التى هى المقوّم الأول للتصور الإسلامى . . وتقرير هذه الحقيقة يشغل مساحة واسعة من القرآن الكريم . لا نملك أن نستعرضها هنا . فسيجيء بعضها عند ذكر خاصية « الإيجابية » فى هذا القسم . كما سيجيء بعضها الآخر عند ذكر خاصية التوحيد فى نهاية هذا القسم من البحث . ثم يجيء التفصيل الكامل بوصفها المقوّم الأول من مقوّمات التصور الإسلامى ، فى

القسم الثانى من هذا البحث الخاص بالمقومات . فنكتفى هنا بتقدير قيمة هذه الخاصية :

إن هذا التصور ـ عن طريق خاصية الشمول فى صورتها هذه ـ يملك أن يعطينا تفسيراً مفهوماً . لوجود هذا الكون ابتداء . ثم لكل حركة فيه بعد ذلك وكل انبثاقة . . . ويعطينا ـ على الأخص ـ تفسيراً مفهوماً لانبثاق ظاهرة « الحياة » فى المادة الصماء . وهى بدون شك شىء آخر غير المادة الصماء . شىء هائل . وشىء عجيب . وشىء مقصود . وبين خصائصه المادة الصماء من الأبعاد ، ما يلى مباشرة ما بين العدم والوجود من الأبعاد .

إن هذا الكون يواجه الكينونة الإنسانية ابتداء بوجوده ! ويتطلب منها إدراكاً وتفسيراً لهذا الوجود . ثم يواجهها بتناسقه وتوازنه وموافقاته العجيبة ـ التى يستحيل أن تأتى بها المصادفة ـ فللمصادفة كذلك قانون يستحيل معه أن تتجمع هذه الموافقات كلها مصادفة [1] . ويتطلب منها إدراكاً وتفسيراً لهذا التناسق والتوازن والموافقات العجيبة ! . . .

والحياة ـ كذلك تواجه الكينونة الإنسانية بعلامات استفهام كثيرة ، لاتقل ـ إن لم تزد عمقاً ـ عن علامات الاستفهام التى يثيرها الكون بوجوده وبتناسقه :

هذه الحياة كيف انبثقت فى المادة الميتة ؟ وكيف سارت ـ وتسير ـ سيرتها هذه العجيبة المحوطة بآلاف الموافقات والموازنات والتقديرات المرسومة المحسوبة بهذا الحساب الدقيق ؟

إن التصور الإسلامى هو ـ وحده ـ الذى يملك أن يقدم لنا التفسير المفهوم لكل هذه الموافقات فى « تصميم الكون » . هو الذى يملك أن يقدم لنا تفسيراً نواجه به كل علامة استفهام عن وجود هذا الكون ابتداء ، وعن كل انبثاقة تقع فيه . كما أنه هو الذى يملك أن يفسر لنا سر انبثاق الحياة فى المادة الميتة ، وسر سيرتها هذه السيرة العجيبة . دون أن نضطر إلى الهروب من سؤال واحد ، أو إلى المماحكة والمماحلة والإحالة إلى جهات غير محددة المفهوم ـ كالإحالة إلى الطبيعة !

---

(١) راجع فصل « المصادفة» فى كتاب :« العلم يدعو إلى الإيمان» تأليف : ا. كريسى موريسون وترجمة محمود صالح الفلكى ص ١٩١ ـ ١٩٤ من الترجمة العربية طبعة مكتبة النهضة : الطبعة الأولى

إن المسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يكاد يعبرها العقل البشرى . فكيف وجد هذا العالم ؟ كيف وجدت هذه « الطبيعة » إن كانوا يعنون بها الوجود المادى ؟ كيف يعبر العقل البشرى هذه المسافة الهائلة إلا بالإحالة على الإرادة المبدعة ، التى تقول للشىء : كن فيكون ؟ إنه إذا لم يعترف بهذه الإرادة المبدعة عجز تماماً عن التعليل والتفسير . أو تخبط تخبط الفلاسفة فى شتى العصور !

والمسافة بين المادة الجامدة والخلية الحية تلى المسافة التى بين الوجود والعدم . إنها كذلك مسافة هائلة لا يعبرها العقل البشرى إلا بالإحالة على تلك الإرادة المبدعة ، التى تنشئ ما تريد إنشاء ، وتبدعه إبداعاً . إرادة الله « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » .

والعقل البشرى ، والكينونة البشرية كلها تجد فى هذا الجواب ما يريح . لأنه مفر من أن تجىء الحياة إلى المادة الميتة من مصدر آخر غير المادة الميتة الفاقدة للحياة . ففاقد الشىء لا يعطيه . ولا يمكن القول بأن الحياة خاصية من خواص المادة الكامنة فيها . . وإلا فكيف ظلت كامنة فيها مالا يحصى من السنين ، لتظهر فى وقت معلوم، دون مدبر وراءها ودون قصد مرسوم ؟!

وحسبنا هذه العجالة عن الكون والحياة فى هذا الموضع ، فسيجىء الكلام المفصل عنهما فى موضعه فى القسم الثانى . ولنعد إلى خاصية الشمول التى نتحدث عنها ، والتى تتجلى فى رد كل شىء فى هذا الكون إلى الله . وشمول إرادته وتدبيره وهيمنته وسلطانه لكل شىء . . فنورد بعض النصوص القرآنية التى ترسم هذه الخاصية :

« إنا كل شىء خلقناه بقدر » (القمر : ٤٩)

« وخلق كل شىء فقدره تقديراً » (الفرقان : ٢)

« وكل شىء عنده بمقدار » . (الرعد : ٨)

« الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . (طه : ٥٠)

« إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » . (النحل : ٤٠)

« إن ربكم الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ،

يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » . (الأعراف : ٥٤)

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها . ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون» . (يس : ٣٧ ـ ٤٠)

« والله خلق كل دابة من ماء . فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع . يخلق الله ما يشاء . إن الله على كل شىء قدير» (النور : ٤٥)

« وجعلنا من الماء كل شىء حى » . (الأنبياء : ٣٠)

« إن الله فالق الحب والنوى . يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى . ذلك الله ، فأنى تؤفكون ! فالق الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً . ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضراً ، نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » . (الأنعام ٩٥ ـ ٩٩)

وحتى الأحداث التى يبدو فيها سبب قريب ظاهر ، يعنى التصور الإسلامى بردها إلى إرادة الله من وراء الأسباب القريبة .

« نحن خلقناكم فلولا تصدقون ؟ أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى ، فلولا تذكرون ! . . أفرأيتم ما تحرثون ! أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ! إنا

لمغرمون ! بل نحن محرومون ! . . أفرأيتم الماء الذى تشربون؟ أأنتم أنزلتموه من المزن ؟ أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ! . . أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . . فسبح باسم ربك العظيم » . . (الواقعة : ٥٧ ـ ٧٤)

« فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم . وما رميت ـ إذ رميت ـ ولكن الله رمى . ولِيُبلِىَ المؤمنين منه بلاءً حسناً » . (الأنفال : ١٧)

ولا نملك فى هذا الموضع أن نمضى ـ أكثر من هذا ـ فى تصوير خاصية الشمول فى صورتها هذه ـ صورة التوحيد ـ فسيجىء تفصيلها فى القسم الثانى من الكتاب عند الكلام عن « مقومات التصور الإسلامى » . . فحسبنا هذا المجمل فى بيان هذه الخاصية . .

وحسبنا أن نقول : إن التصور الإسلامى ـ عن طريق هذه الخاصية فى صورتها هذه ـ يمنح القلب والعقل راحة وطمأنينة ، واتصالاً بحقيقة المؤثرات الفاعلة فى هذا الوجود ـ كما هى فى عالم الحقيقة والواقع ـ ويعفى الفكر البشرى من الضرب فى التيه بلا دليل ، ومن الإحالة على أسباب غير مضبوطة ـ وأحياناً غير موجودة ـ كالإحالة على « الطبيعة » ! أو الإحالة على « العقل » ! أو الإحالة على كائنات أسطورية كالتى تصورتها الوثنيات ، وتلبست بها الفلسفات ، على مدار التاريخ .

وذلك كله فضلاً على العنصر الأخلاقى الذى ينشئه هذا التصور ويثبته ، فى القلب البشرى وفى الحياة البشرية . وهو يرد خيوط الكون والحياة كلها إلى يد الله ، ورقابته ، وهيمنته ، وسلطانه (مما سنفصل الحديث عنه فى خاصية الإيجابية) .

* * *

وصورة أخرى من صور خاصية الشمول فى التصور الإسلامى . . فهو كما يتحدث عن حقيقة الألوهية وخصائصها وآثارها وصفاتها ، باعتبارها الحقيقة الأولى، والحقيقة الكبرى ، والحقيقة الأساسية فى هذا التصور . . كذلك يتحدث عن حقيقة العبودية وخصائصها وصفاتها . يتحدث عن هذه الحقيقة ممثلة فى الكون، والحياة ، والإنسان . فيتحدث عن حقيقة الكون ، وعن حقيقة الحياة ،

وعن حقيقة الإنسان ، ويتناول ـ فى هذا الحديث ـ طبيعتها ونشأتها وصفاتها وأحوالها، وعلاقاتها فيما بينها ، ثم علاقتها بالحقيقة الإلهية الكبرى .

ويربط بين مجموع تلك الحقائق ، من جميع جوانبها ، فى تصور واحد منطقى فطرى ، يتعامل مع بديهة الإنسان وفكره ووجدانه ، ومع مجموع الكينونة البشرية فى يسر وسهولة .

وهكذا تتكون من مجموعة الحقائق التى يتناولها هذا التصور فى شمول وسعة ودقة وتفصيل ، صورة كاملة شاملة ، وتفسير جامع مفصل ، لايحتاج إلى إضافة من مصدر آخر . بل لا يقبل إضافة من مصدر آخر . لأنه أوسع وأشمل ، وأدق وأعمق ، وأكثر تناسقاً وتكاملاً من كل مصدر آخر . .

ولقد وقع الفساد فى التصور الإسلامى ، ووقع التعقيد والتخليط ، حينما شاء جماعة ممن عرفوا فى التاريخ باسم « فلاسفة الإسلام » أن يستعيروا بعض التصورات الفلسفية الإغريقية ، وبعض المصطلحات ـ وبخاصة من أرسطو وأفلوطين وبعض اللاهوتيين المسيحيين ـ ويدخلوها فى جسم « التصور الإسلامى » !

إن هذا التصور من الشمول والسعة ، ومن الدقة والعمق ، ومن الأصالة والتناسق بحيث يرفض كل عنصر غريب عليه ، ولو كان هذا العنصر « اصطلاحاً » تعبيريا من الاصطلاحات التى تقتضيها أزياء التفكير الأجنبية . فكل اصطلاح له تاريخ معين ، وله إيحاءات معينة مستمدة من ذلك التاريخ ، ولا يمكن تجريده من هذه الملابسات ، والزج به فى مجال جديد ، منقطع عن تاريخه . . وللتصور الإسلامى اصطلاحاته الخاصة المتفقة فى طبيعة اشتقاقها اللغوى ، وفى ملابساتها التاريخية والموضوعية ، مع طبيعته وإيحاءاته . . وهذه ظاهرة دقيقة ، تحتاج إلى حس لطيف ، يدرك مقتضيات هذا التصور فى الشعور ، ومقتضياته كذلك فى التعبير .

إن هذا التصور يقوم ابتداء على تعريف الناس بربهم تعريفاً دقيقاً كاملاً شاملاً يعرّفهم بذاته سبحانه ، ويعرفهم بصفاته ، ويعرفهم بخصائص الألوهية المتفردة ، التى تَفْرِقها تماماً من خصائص العبودية . كما يعرفهم بأثر هذه الألوهية فى الكون ، وفى الناس ، وفى جميع العوالم والأمم الحية . ويتم هذا التعريف على نطاق واسع جدا

فى القرآن الكريم ، يصبح معه الوجود الإلهى فى النفس البشرية ، وجوداً أكيداً واضحاً ، موحياً ، مؤثراً ، يأخذ النفس من أقطارها جميعاً ، وتعيش معه النفس مشدودة إليه ، لا تملك التفلت منه ، ولا نسيانه ، ولا إغفاله ، لأنه من القوة والوضوح والفاعلية ، بحيث يواجه النفس دائماً ، ويتراءى لها دائماً ، ويؤثر فيها دائماً :

« الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين » .

(الفاتحة : ٢ ـ ٤)

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم . لا تأخذه سنة ولا نوم . له ما فى السماوات وما فى الأرض . من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء . وسع كرسيه السماوات والأرض . ولا يؤوده حفظهما . وهو العلى العظيم » .

(البقرة : ٢٥٥)

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان . إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام . إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء . لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

(آل عمران : ٢ ـ ٦)

« قل : اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير . إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتُخرج الحى من الميت وتُخرج الميت من الحى ، وتَرزق من تشاء بغير حساب »

(آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧)

« قل : لمن ما فى السماوات والأرض ؟ قل : لله . كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله

ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . قل : أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض ؟ وهو يُطعم ولا يُطعم . قل ؛ إنى أمرت أن أكون أول من أسلم، ولا تكونن من المشركين . قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يُصرَفْ عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير . قل : أى شىء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون »

(الأنعام : ١٢ ـ ١٩)

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ـ من أمر الله ـ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال . هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون فى الله ، وهو شديد المحال . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيْه إلى الماء ليبلغ فاه ـ وما هو ببالغه ـ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال . ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال . قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا؟ قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار » .

(الرعد : ٨ ـ ١٦)

« وله من فى السماوات والأرض ، ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم

ينشرون؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ! لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

(الأنبياء : ١٩ ـ ٢٣)

« سبح لله ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السماوات والأرض ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم . هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » . (الحديد : ١ ـ ٦)

. . . إلخ . . إلخ . . .

ويعرّف الناس بطبيعة الكون الذى يعيشون فيه ، وخصائصه ، وارتباطه بخالقه، ودلالته على خالقه ، واستعداده لنشأة الحياة فيه والأحياء ، وتسخيره لهم بإذن الله . . . الخ . فى أسلوب مفهوم للفطرة ، مفهوم للعقل ، يجد مصداقه فى الواقع المحسوس ، كما يجد مصداقه فى الفطرة المكنونة . . يعرفهم به على نطاق واسع . ويدعوهم لمعرفته ، وإدراك ناموسه وأسراره . والتعامل معه معاملة صحيحة، ناشئة عن ذلك الإدراك والتعارف والتجاوب :

« الذى جعل لكم الأرض فراشاً . والسماء بناءً . وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم . فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » .

(البقرة : ٢٢)

« الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور . ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » .

(الأنعام : ١)

« الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ، ومن كل الثمرات

جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

(الرعد : ٢ ـ ٤)

« هو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه . إن فى ذلك لآية لقوم يذّكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريًا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟» .

(النحل : ١٠ ـ ١٧)

« أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً . لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ، وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون» .

(الأنبياء ٣٠ ـ ٣٣)

« ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ، والفلك تجرى فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . إن الله بالناس لرؤوف رحيم » .

(الحج : ٦٥)

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ، وما كنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماء بقدر ، فأسكناه فى الأرض ، وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات

من نخيل وأعناب ، لكم فيها فواكه كثيرة ، ومنها تأكلون . . . » .

(المؤمنون : ١٧ ـ ١٩)

« ألم تر أن الله يزجى سحاباً ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاماً ، فترى الودق يخرج من خلاله ؟ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنى برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

(النور : ٤٣ ـ ٤٤)

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكناً ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ؟ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً . وهو الذى جعل لكم الليل لباساً ، والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً . وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهوراً . لنحيي به بلدة ميتاً ، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسىّ كثيراً » .

(الفرقان : ٤٥ ـ ٤٩)

« وآية لهم الأرض الميْتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم، أفلا يشكرون ؟ سبحان الذى خلق الأزواج كلها ، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » .

(يس : ٣٣ ـ ٤٠)

« قل : أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أنداداً . ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء ، وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كَرهًا . قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدر العزيز العليم » .

(فصلت : ٩ ـ ١٢)

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، ومالها من فروج . والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج »

(ق : ٦ ـ ١١)

. . . إلخ . . . إلخ . . .

ويحدثهم عن الحياة والأحياء . فيعرفهم مصدر الحياة ومصدر الأحياء ، وشيئاً من خصائصها كذلك ، بالقدر الذى تسمح مدارك البشر بمعرفته . ويعقد بينهم وبين الأحياء جميعاً آصرة العبودية لله ، ووشيجة القرابة فى خلقهم كلهم بإرادته ، وفى اشتراكهم فى بعض الخصائص ، التى تشير إلى الإرادة الواحدة المبدعة ، وإلى الصنعة الواحدة البارزة . ويذكرهم بنعمة الله عليهم فى تسخير الكثير من هذه الأحياء لهم .

« وجعلنا من الماء كل شىء حى » . (الأنبياء : ٣٠)

« والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع . يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير » .

(النور : ٤٥)

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

(الأنعام : ٣٨)

« وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » .

(هود : ٦)

« وكأى من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم . . . » .

(العنكبوت : ٦٠)

« . . . وترى الأرض هامدة . فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

(الحج : ٥)

« يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون » .

(الروم : ١٩)

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تُنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، وممّا لايعلمون » .

(يس ٣٣ ـ ٣٦)

« فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

(الشورى : ١١)

« والذى نّزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتاً ، كذلك تخرجون ، والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون . لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين » .

(الزخرف : ١١ ـ ١٣)

فلينظر الإنسان إلى طعامه . « أنّا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبًا . متاعاً لكم ولأنعامكم » .

(عبس : ٢٤ ـ ٣٢)

« سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدّر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » .

(الأعلى : ١ ـ ٥)

« ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض من دابة ، والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون » .

(النحل : ٤٩ ـ ٥٠)

« ألم تر أن الله يُسبح له من فى السماوات والأرض ، والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون » .

(النور : ٤١)

. . . إلخ . . . إلخ . . .

ويحدثهم عن الإنسان حديثاً مستفيضاً ، يتناول مصدره ومنشأه ، وطبيعته وخصائصه ، ومركزه فى هذا الوجود ، وغاية وجوده . وعبوديته لربه ومقتضيات هذه العبودية . ثم نواحى ضعفه وقوته ، وواجباته وتكاليفه . وكل صغيرة وكبيرة تتعلق بحياته فى هذه الأرض ، ومآله فى العالم الآخر .

ولما لم يكن قصدنا فى هذه الفقرة إلا بيان خاصية الشمول فى التصور القرآنى ، لا بيان حقائق هذا التصور ومقوّماته ـ فهذه لها مكانها فى القسم الثانى من الكتاب ـ فإننا نكتفى بإثبات بعض الآيات عن حقيقة الإنسان ـ كما أثبتنا بعض الآيات عن الحقيقة الإلهية ، وعن حقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، مرجئين الحديث المفصل عنها إلى موضعه فى القسم الثانى عن « مقومات التصور الإسلامى » .

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين » .

(الحجر : ٢٦ ـ ٣١)

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .

(المؤمنون : ١٢ ـ ١٦)

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

(الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨)

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم ما لا تعلمون » .

(البقرة : ٣٠)

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » .

(الإسراء : ٧٠)

« قلنا اهبطوا منها جميعاً . فإما يأتينكم منى هدى . فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

(البقرة : ٣٨ ـ ٣٩)

« والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

(سورة العصر)

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

(ق : ١٦)

« لقد خلقنا الإنسان فى كبد » . (البلد : ٤)

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ؟! » . (يس : ٧٧)

« وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً ! » (الكهف : ٥٤)

« إن الإنسان خلق هلوعاً . إذ مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين . . . » .

(المعارج : ١٩ ـ ٢٢)

« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » .

(النساء : ٢٨)

« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً . فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ! . . . » .

(يونس : ١٢)

« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه ، إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى . إنه لفرح فخور » .

(هود : ٩ ـ ١٠)

« ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير . وكان الإنسان عجولاً » .

(الإسراء : ١١)

« كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى » .

(العلق : ٦ ـ ٧)

« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » .

(الشمس : ٧ ـ ١٠)

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » .

(التين : ٤ ـ ٦)

وهكذا يجد الإنسان من كثرة النصوص القرآنية وتنوعها حول هذه الحقائق الأساسية ما يشعره بالقصد إلى بيانها وتحديدها ، والتوسع فيها ، لتكون قاعدة كاملة شاملة للتصور الإسلامى المستقل ، الذى يستمد لبناته ـ كما يستمد تصميمه ـ من المصدر الربانى المضبوط ، الموثوق بصحته ، وبعلمه وخبرته ، فى غنى كامل عن الاستمداد من أى مصدر آخر جزئى المعرفة ظنىّ المعرفة ، يضرب فى التيه بلا دليل !

* * *

وصورة ثالثة من صور الشمول فى التصور الإسلامى . فهو إذ يرد أمر الكون كله . وأمر الحياة والأحياء ، وأمر الإنسان والأشياء . . إلى إرادة واحدة شاملة . . وإذا يتناول الحقائق الكلية كلها : حقيقة الألوهية ـ الحقيقة الأولى والكبرى والأساسية ـ

وحقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، وحقيقة الإنسان ، بمثل ذلك الشمول الذى أشرنا إليه . .

هذا التصور إذا يتناول الأمور على هذا النحو الشامل ـ بكل معانى الشمول ـ يخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها ، وبكل أشواقها ، وبكل حاجاتها ، وكل اتجاهاتها . ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها . جهة واحدة تطلب عندها كل شىء ، وتتوجه إليها بكل شىء . جهة واحدة ترجوها وتخشاها ، وتتقى غضبها وتبغى رضاها . جهة واحدة تملك لها كل شىء ، لأنها خالقة كل شىء ، ومالكة كل شىء ، ومدبرة كل شىء . .

كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد ، تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها ، وقيمها وموازينها ، وشرائعها وقوانينها . وتجد عنده إجابة على كل سؤال يجيش فيها ، وهى تواجه الكون والحياة والإنسان ، بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام . .

عندئذ تتجمع هذه الكينونة . . تتجمع شعوراً وسلوكاً ، وتصوراً واستجابة . فى شأن العقيدة والمنهج . وشأن الاستمداد والتلقى . وشأن الحياة والموت . وشأن السعى والحركة . وشأن الصحة والرزق . وشأن الدنيا والآخرة . فلا تتفرق مزقاً ، ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق ، ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق !

والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو ، تصبح فى خير حالاتها ، لأنها تكون حينئذ فى حالة « الوحدة » التى هى طابع الحقيقة فى كل مجالاتها . . فالوحدة هى حقيقة الخالق ـ سبحانه ـ والوحدة هى حقيقة هذا الكون ـ على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال ـ والوحدة هى حقيقة الحياة والأحياء ـ على تنوع الأجناس والأنواع ـ والوحدة هى حقيقة الإنسان على تنوع الأفراد والاستعدادات ـ والوحدة هى غاية الوجود الإنسانى ـ وهى العبادة ـ على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها ـ وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة فى هذا الوجود . .

وحين تكون الكينونة الإنسانية فى الوضع الذى يطابق « الحقيقة » فى كل مجالاتها ، تكون فى أوج قوتها الذاتية ، وفى أوج تناسقها ـ كذلك ـ مع « حقيقة» هذا الكون الذى تعيش فيه ، وتتعامل معه ، ومع « حقيقة » كل شىء فى هذا الوجود ، مما تؤثر

فيه وتتأثر به . . وهذا التناسق هو الذى يتيح لها أن تنشئ أعظم الآثار ، وأن تؤدى أعظم الأدوار .

وحينما بلغت هذه الحقيقة أوجها فى المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل ، صنع الله بها فى الأرض أدواراً ، عميقة الآثار فى كيان الوجود الإنسانى ، وفى كيان التاريخ الإنسانى . .

وحين توجد هذه الحقيقة مرة أخرى ـ وهى لابد كائنة بإذن الله ـ سيصنع الله بها الكثير . مهما يكن فى طريقها من العراقيل . ذلك أن وجود هذه الحقيقة فى ذاته ينشئ قوة لا تقاوم : لأنها من صميم قوة هذا الكون ، وفى اتجاه قوة المبدع لهذا الكون أيضاً . .

ومن مظاهر ذلك التجمع فى الكينونة الإنسانية ، أن يصبح النشاط الإنسانى كله حركة واحدة ، متجهة إلى تحقيق غاية الوجود الإنسانى . . العبادة . . العبادة التى تتمثل فيها عبودية الإنسان لله وحده فى كل ما ينهض به من شؤون الخلافة . .

وهذا التجمع النفسى والحركى هو ميزة الإسلام الكبرى . بما أنه يتناول بالتفسير كل الحقائق التى تواجه النفس البشرية فى الكون كله ، ويتناول بالتوجيه كل جوانب النشاط الإنسانى . ففى الإسلام ـ وحده ـ يملك الإنسان أن يعيش لدنياه وهو يعيش لآخرته ، وأن يعمل لله وهو يعمل لمعاشه ، وأن يحقق كماله الإنسانى الذى يطلبه الدين ، فى مزاولة نشاطه اليومى فى خلافة الأرض ، وفى تدبير أمر الرزق . ولايتطلب منه هذا إلا امراً واحداً : أن يخلص العبودية لله فى الشعائر التعبدية وفى الحركة العملية على السواء . أن يتوجه إلى تلك الجهة الواحدة بكل حركة وكل خالجة، وكل عمل وكل نية ، وكل نشاط وكل اتجاه . مع التأكد من أنه لايتجاوز دائرة الحلال الواسعة ، التى تشمل كل طيبات الحياة . . فالله خلق الإنسان بكل طاقاته لتنشط كلها ، وتعمل كلها ، وتؤدى دورها . . ومن خلال عمل هذه الطاقات مجتمعة ، يحقق الإنسان غاية وجوده ، فى راحة ويسر ، وفى طمأنينة وسلام، وفى حرية كاملة منشؤها العبودية لله وحده .

وبهذه الخاصية صلح الإسلام أن يكون منهج حياة شاملاً متكاملاً . منهجاً يشمل الاعتقاد فى الضمير ، والتنظيم فى الحياة ـ لا بدون تعارض بينهما ـ بل فى ترابط

وتداخل يعز فصله ، لأنه حزمة واحدة فى طبيعة هذا الدين ، ولأن فصله هو تمزيق و إفساد لهذا الدين .

إن تقسيم النشاط الإنسانى إلى « عبادات » و«معاملات» مسألة جاءت متأخرة عند التأليف فى مادة « الفقه » . ومع أنه كان المقصود به ـ فى أول الأمر ـ مجرد التقسيم « الفنى » ، الذى هو طابع التأليف العلمى ، إلا أنه ـ مع الأسف ـ أنشأ فيما بعد آثار سيئة فى التصور ، تبعته ـ بعد فترة ـ آثار سيئة فى الحياة الإسلامية كلها . إذ جعل يترسب فى تصورات الناس أن صفة « العبادة » إنما هى خاصة بالنوع الأول من النشاط الذى يتناوله « فقه العبادات » . بينما أخذت هذا الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثانى من النشاط ، الذى يتناوله « فقه المعاملات » ! وهو انحراف بالتصور الإسلامى لاشك فيه . فلا جرم يتبعه انحراف فى الحياة كلها فى المجتمع الإسلامى .

ليس فى التصور الإسلامى نشاط إنسانى لا ينطبق عليه معنى العبادة . أو يطلب فيه تحقيق هذا الوصف . والمنهج الإسلامى كله غايته تحقيق معنى العبادة ، أولاً وأخيراً .

وليس هناك من هدف فى المنهج الإسلامى لنظام الحكم ، ونظام الاقتصاد ، والتشريعات الجنائية ، والتشريعات المدنية وتشريعات الأسرة . . وسائر التشريعات التى يتضمنها هذا المنهج . . .

ليس هناك من هدف إلا تحقيق معنى « العبادة » فى حياة الإنسان . . والنشاط الإنسانى لا يكون متصفاً بهذا الوصف ، محققاً لهذه الغاية ـ التى يحدد القرآن أنها هى غاية الوجود الإنسانى ـ إلا حين يتم هذا النشاط وفق المنهج الربانى ، فيتم بذلك إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية ، والاعتراف له وحده بالعبودية . . وإلا فهو خروج عن العبادة . لأنه خروج عن العبودية . أى خروج عن غاية الوجود الإنسانى كما أرادها الله . أى خروج عن دين الله !

وأنواع النشاط التى أطلق عليها « الفقهاء » اسم « العبادات » وخصوصاً بهذه الصفة ـ على غير مفهوم التصور الإسلامى ـ حين تراجع مواضعها فى القرآن تتبين حقيقة بارزة لا يمكن إغفالها . وهى أنها لم تجئ مفردة ولا معزولة عن أنواع النشاط الأخرى التى أطلق عليها الفقهاء اسم « المعاملات » . . إنما جاءت هذه وتلك

مرتبطة فى السياق القرآنى ومرتبطة فى المنهج التوجيهى . باعتبار هذه كتلك شطراً من منهج « العبادة » التى هى غاية الوجود الإنسانى . وتحقيقاً لمعنى العبودية ، ومعنى إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية .

إن ذلك التقسيم ـ مع مرور الزمن ـ جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا « مسلمين » إذا هم أدوا نشاط « العبادات» ـ وفق أحكام الإسلام ـ بينما هم يزاولون كل نشاط « المعاملات» وفق منهج آخر . لا يتلقونه من الله . ولكن من إله آخر ! هو الذى يشرع لهم فى شؤون الحياة ، ما لم يأذن به الله !

وهذا وهم كبير . فالإسلام وحدة لاتنفصم . وكل من يفصمه إلى شطرين ـ على هذا النحو ـ فإنما يخرج من هذه الوحدة . أو بتعبير آخر يخرج من هذا الدين . .

وهذه هى الحقيقة الكبيرة ، التى يجب أن يلقى باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه ، ويريد فى الوقت ذاته ، أن يحقق غاية وجوده الإنسانى .

إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط فى تصحيح التصور الإيمانى ـ وإن كل هذا التصحيح فى ذاته غاية ضخمة ، يقوم عليها بناء الحياة كله ـ بل إن أهميتها تتجلى كذلك فى حسن تذوق الحياة ، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق . فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله ، وحين يصبح كل نشاط فيها ـ صغر أم كبر ـ جزءا من هذه العبادة ، أو كل العبادة ، متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامل فيه ، وهو إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية ، والإقرار له وحده بالعبودية . . هذا المقام الذى لا يرتفع الإنسان إلى ماهو أعلى منه ، ولا يبلغ كماله الإنسانى إلا فى تحقيقه . وهو المقام الذى تلقى الوحى من الله . وحالة الإسراء والمعراج أيضا :

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

(سورة الفرقان : ١)

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » .

(الإسراء : ١)

ويتحدث الأستاذ المهتدى محمد أسد (ليوبولد فايس) فى كتابه : « الإسلام على

مفترق الطرق » حديثاً دقيقاً عن الفرق بين التصور الإسلامى والتصورات الأخرى فى هذا الشأن ، وعن أثر ذلك التصور فى الشعور بجدية الحياة وأهمية كل حركة فيها ، باعتباره الوسيلة الوحيدة لبلوغ الإنسان أقصى درجات الكمال الإنسانى فى هذه الحياة الدنيا . فيقول فى فصل بعنوان : « سبيل الإسلام » :

« يختلف إدراك العبادة فى الإسلام عما هو فى كل دين آخر [١] . . إن العبادة فى الإسلام ليست محصورة فى أعمال من الخشوع الخالص ، كالصلاة والصيام مثلا ، ولكنها تتناول « كل » حياة الإنسان العملية أيضاً . وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم « عبادة الله » فيلزمنا حينئذ ، ضرورة ، أن ننظر إلى هذه الحياة فى مجموع مظاهرها على أنها تبعة أدبية ، متعددة النواحى ، وهكذا يجب أن نأتى أعمالنا كلها ـ حتى تلك التى تظهر تافهة ـ على أنها عبادات ، وأن نأتيها بوعى ، وعلى أنها تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج العالمى الذى أبدعه الله . . تلك حال ينظر إليها الرجل العادى على أنها مثل أعلى بعيد . ولكن أليس من مقاصد هذا الدين أن تتحقق المثل العليا فى الوجود الواقع ؟

« إن موقف الإسلام فى هذا الصدد لا يحتمل التأويل . إنه يعلمنا أولاً أن عبادة الله الدائمة ، والمتمثلة فى أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها ، هى معنى الحياة نفسها . ويعلمنا ثانياً أن بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلاً ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين : حياتنا الروحية ، وحياتنا المادية . . يجب أن تقترن هاتان الحياتان فى وعينا وفى أعمالنا ، لتكون « كلاً » واحداً متسقًا . . إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلى فى سعينا للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة فى حياتنا .

« هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه . هى فرق آخر بين الإسلام وسائر النظم الدينية المعروفة . ذلك أن الإسلام ـ على أنه تعليم ـ لا يكتفى بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة . فيما بين المرء وخالقه فقط . ولكن يعرض أيضا ـ

---

(١) هو يقصد الأديان فى صورتها التى صارت إليها . وإلا فإن دين الله كله واحد فى أساسه . وفى اعتبار العبادة لله بمعنى العبودية له فى كل شىء ، وإفراده بالألوهية ، والتوجه إليه بكل نشاط .

بمثل هذا التوكيد على الأقل ـ للصلاة الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية . . إن الحياة الدنيا لا ينظر إليها على أنها صَدَفة عادية فارغة ، ولا على أنها طيف خيال للآخرة ، التى هى آتية لا ريب فيها ، من غير أن تكون منطوية على معنى ما . ولكن على أنها وحدة إيجابية تامة فى نفسها . والله تعالى « وحده » لا فى جوهره فحسب . بل فى الغاية إليه أيضاً . . من أجل ذلك كان خلقه وحدة ، ربما فى جوهره ، إلا أنه وحدة فى الغاية منه بكل تأكيد .

« وعبادة الله فى أوسع معانيها ـ كما شرحنا آنفاً ـ تؤلف فى الإسلام معنى الحياة الإنسانية . . هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال ـ فى إطار حياته الدنيوية الفردية ـ ومن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام ـ وحده ـ يعلن أن الكمال الفردى ممكن فى الحياة الدنيا . . إن الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات « الجسدية » ، ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من « تناسخ الأرواح » على مراتب متدرجة ـ كما هو الحال فى الهندوكية ـ ولا هو يوافق البوذية التى تقول بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم . . كلا . إن الإسلام يؤكد فى إعلانه أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال فى حياته الدنيا الفردية . وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوى فى حياته هو »(١) .

* * *

وبعد فإن هذا الشمول ـ بكل صوره ـ فوق أنه مريح للفطرة البشرية ، لأنه يواجهها بمثل طبيعتها الموحدة ، ولا يكلفها عنتًا ، ولا يفرقها مزقاً . . هو فى الوقت ذاته يعصمها من الاتجاه لغير الله فى أى شأن وفى أية لحظة ، أو قبول أية سيطرة تستعلى عليها بغير سلطان الله ، وفى حدود منهج الله وشريعته . فى أى جانب من جوانب الحياة . فليس الأمر والهيمنة والسلطان لله وحده فى أمر « العبادات »

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٢١ ـ ٢٣ من الترجمة العربية بقلم الدكتور عمر فروخ .

الفردية ، ولا فى أمر الآخرة ـ وحدهما ـ بل الأمر والهيمنة والسلطان لله وحده ، فى الدنيا والآخرة . فى السماوات والأرض . فى عالم الغيب وعالم الشهادة . فى العمل والصلاة . . وفى كل نَفَس ، وكل حركة ، وكل خالجة ، وكل خطوة ، وكل اتجاه :

« وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله . . . » .

(الزخرف : ٨٤)

* * *

التـــوازن

«مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ»

والخاصية الرابعة فى هذا التصور هى . . التوازن . . التوازن فى مقوماته ، والتوازن فى إيحاءاته . وهى تتصل بخاصية « الشمول» التى سبق الحديث عنها . فهو تصور شامل . وهو شمول متوازن .

وقد صانته هذه الخاصية الفريدة من الاندفاعات هنا وهناك ، والغلو هنا وهناك ، والتصادم هنا وهناك . . هذه الآفات التى لم يسلم منها أى تصور آخر. سواء التصورات الفلسفية ، أو التصورات الدينية التى شوهتها التصورات البشرية ، بما أضافته إليها ، أو نقصته منها ، أو أوّلته تأويلاً خاطئاً، وأضافت هذا التأويل الخاطئ إلى صلب العقيدة !

وتتمثل هذه الخاصية فى عدة موازنات ، نذكر منها أبرزها :

* * *

هناك التوازن بين الجانب الذى تتلقاه الكينونة الإنسانية لتدركه وتسلم به ، وينتهى عملها فيه عند التسليم ، والجانب الذى تتلقاه لتدركه ، وتبحث حججه وبراهينه ، وتحاول معرفة علله وغاياته وتفكر فى مقتضياته العملية ، وتطبقها فى حياتها الواقعية .

والفطرة البشرية تستريح لهذا ولهذا ، لأن كليهما يلبى فيها جانبًا أصيلاً ، مودعاً فيها وهى تخرج من يد بارئها . وقد علم الله أن الإدراك البشرى لن يتسع لكل أسرار هذا الوجود ، ولن يقوى على إدراكها كلها ، فأودع فطرته الارتياح للمجهول ، والارتياح للمعلوم ، والتوازن بين هذا وذاك فى كيانها ، كالتوازن بين هذا وذاك فى صميم الوجود .

إن العقيدة التى لا غيب فيها ولا مجهول ، ولا حقيقة أكبر من الإدراك البشرى المحدود ، ليست عقيدة ، ولا تجد فيها النفس ما يلبى فطرتها ، وأشواقها الخفية إلى المجهول ، المستتر وراء الحجب المسدلة . . كما أن العقيدة التى لا شىء فيها إلا المعمّيات التى لا تدركها العقول ليست عقيدة ! فالكينونة البشرية تحتوى على عنصر الوعى . والفكر الإنسانى لا بد أن يتلقى شيئًا مفهومًا له ، له فيه عمل ، يملك أن يتدبره ويطبقه . . والعقيدة الشاملة هى التى تلبى هذا الجانب وذاك ، وتتوازن بها الفطرة ، وهى تجد فى العقيدة كفاء ما هو مودع فيها من طاقات وأشواق .

فإذا كانت ماهية الذات الإلهيّة . وكيفية تعلق إرادة الله بالخلق وحقيقة الروح . . من الحقائق التى لا سبيل إلى الإحاطة بها ـ كما أسلفنا ـ [1] فهناك خصائص الذات الإلهيّة : من وجود ، ووحدانية ، وقدرة ، وإرادة ، وخلق ، وتدبير . . . وكلها مما يعمل الفكر البشرى فى إدراكه ، ومما يستطيع أن يدرك ضرورته ومقتضياته فى الوجود. والإسلام يعرض هذه الخصائص ببراهينها المقنعة . . وهناك « الكون » وحقيقته ، ومصدر وجوده ، وعلاقته بخالقه ، وعبوديته له ، واستعداده لاستقبال الحياة ، وعلاقته بالإنسان وعلاقة الإنسان به . . وهناك « الحياة » بشتى أنواعها وأجناسها وأشكالها ودرجاتها ، ومصدرها، وعلاقتها بطبيعة الكون ، وعلاقتها بمبدعه ومبدعها . . وهناك « الإنسان » وحقيقته ، وخصائصه ومصدره ، وغاية وجوده ، ومنهج حياته . . وكلها ترد فى منطق مفهوم واضح ، مريح للعقل والقلب. مدعم بالبراهين التى تتلقاها الفطرة بالقبول والتسليم :

« أم خُلِقُوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خَلقُوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون » .

(الطور : ٣٥ـ٣٦)

« أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ؟ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ! لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا

---

(١) راجع خاصية : « الربانية » ص ٤٣ .

من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معى وذكر من قبلى . بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » .

(الأنبياء : ٢١ ـ ٢٤)

« أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون » .

(يس : ٨١ ، ٨٢)

« وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه . قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم » .

(يس : ٧٨ ، ٧٩)

« أم من خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ماكان لكم أن تنبتوا شجرها ! أإلَه مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون !أم من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإلَه مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون ! أم من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإلَه مع الله ؟ قليلاً ما تذكّرون ! أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بُشْراً بين يدىْ رحمته ؟ أإله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون ! أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإلَه مع اللّه ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

(النمل . ٦٠ ـ ٦٤)

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

. ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » .

(الروم : ٢٠ ـ ٢٥)

وهكذا وهكذا من الحجج الملزمة ، والآيات المعروضة فى الأنفس والآفاق ، وهى معروضة للنظر والتدبر ، كما أنها معروضة للبرهنة والحجة . . والإدراك البشرى مطلق للنظر فيها ، والتلقى عنها ، ومناقشة حجيتها على القضايا المسوقة لإثباتها . . وكلها فى دائرة النظر ، وفى مستوى الإدراك .

وهكذا تجد الفطرة البشرية فى التصور الإسلامى ما يلبى أشواقها كلها : من معلوم ومجهول ، ومن غيب لا تحيط به الأفهام ولا تراه الأبصار ، ومكشوف تجول فيه العقول وتتدبره القلوب . ومن مجال أوسع من إدراكها تستشعر إزاءه جلال الخالق الكبير ، ومجال يعمل فيه إدراكها وتستشعر إزاءه قيمة الإنسان فى الكون وكرامته على الله .

وتتوازن الكينونة الإنسانية بهذا وذلك ، وهى تؤمن بالمجهول الكبير ، وهى تتدبر المعلوم الكبير . .

* * *

والتوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية . . فالمشيئة الإلّهية طليقة، لا يرد عليها قيد ما ، مما يخطر على الفكر البشرى جملة . وهى تبدع كل شىء بمجرد توجهها إلى إبداعه . وليست هنالك قاعدة ملزمة ، ولا قالب مفروض تلتزمه المشيئة الإلّهية ، حين تريد أن تفعل ما تريد :

« إنما قولنا لشىء ـ إذا أردناه ـ أن نقول له : كن . فيكون » .

(النحل : ٤٠)

« قال : رب أنَّى يكون لى غلام ، وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ قال : كذلك الله يفعل ما يشاء » .

(آل عمران : ٤٠)

« قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر؟ قال : كذلك الله يخلق ما يشاء . إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن . فيكون » .

(آل عمران : ٤٧)

« وامرأته قائمة فضحكت . فبشرناها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب . قالت : ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ؟ إن هذا لشىء عجيب ! قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ » .

(هود : ٧١ ـ ٧٣)

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون . الحق من ربك ، فلاتكن من الممترين » .

(آل عمران : ٥٩ ـ ٦٠)

« ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم : أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه ، فيكون طيراً ـ بإذن الله ـ وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى ـ بإذن الله ـ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم . إن فى ذلك لآية لكم ، إن كنتم مؤمنين » .

(آل عمران : ٤٩)

« أو كالذى مّر على قرية ـ وهى خاوية على عروشها ـ قال : أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه . قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم ! قال : بل لبثت مائة عام ! فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه . وانظر إلى حمارك ـ ولنجعلك آية للناس ـ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً . فلما تبين له ، قال : أعلمُ أن الله على كل شىء قدير » .

(البقرة : ٢٥٩)

« قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين » .

(الأنبياء : ٦٨ ـ ٧٠)

« فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا إن معى

ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » .

(الشعراء : ٦١ ـ ٦٣)

« . . . لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » . (الطلاق : ١)

وهكذا . وهكذا . مما يقرر طلاقة المشيئة الإلهية ، وعدم تقيدها بقيد ما ، مما يخطر على الفكر البشرى ، مما يحسبه قانونا لازما ، وحتمية لا فكاك منها . .

وفى الوقت ذاته شاءت الإرادة الإلهية المدبرة ، أن تتبدى للناس ـ عادة ـ فى صورة نواميس مطردة ، وسنن جارية ، يملكون أن يرقبوها ، ويدركوها ، ويكيفوا حياتهم وفقها ، ويتعاملوا مع الكون على أساسها . . على أن يبقى فى تصورهم ومشاعرهم أن مشيئة الله ـ مع هذا ـ طليقة ، تبدع ما تشاء ، وأن الله يفعل ما يريد ، ولو لم يكن جارياً على ما اعتادوا هم أن يروا المشيئة متجلية فيه ، من السنن المقررة والنواميس المطردة . فسنةٌ كذلك ـ وراء السنن كلها ـ أن هذه المشيئة مطلقة ، مهما تجلت فى نواميس مطردة وسنن جارية ـ ومن ثم يوجه الله الأبصار والبصائر إلى تدبر سننه فى الكون ، والتعامل معها ، والنظر فى مآلاتها ـ بقدر ما يملك الإدراك البشرى ـ والانتفاع بهذا النظر فى الحياة الواقعة :

* « قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق . فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر » .

(البقرة : ٢٥٨)

* « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر
ولا الليل سابق النهار » .

(يس : ٤٠)

* « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .

(الأحزاب : ٦٢)

* « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

(آل عمران : ١٣٧)

* « أو لم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ؟ إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ! »

(السجدة : ٢٦)

* « ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم ، فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

(الروم : ٤٧)

* « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا . كذلك نجزى القوم المجرمين » .

(يونس : ١٣)

* « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا ، فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .

(الأعراف : ٩٦)

وبين ثبات السنن وطلاقة المشيئة ، يقف الضمير البشرى على أرض ثابتة مستقرة، يعمل فيها ، وهو يعلم طبيعة الأرض ، وطبيعة الطريق ، وغاية السعى ، وجزاء الحركة . ويتعرف إلى نواميس الكون ، وسنن الحياة ، وطاقات الأرض ، وينتفع بها وبتجاربه الثابتة فيها بمنهج علمى ثابت . وفى الوقت ذاته يعيش موصول الروح بالله ، معلق القلب بمشيئته لايستكثر عليها شيئاً ، ولا يستبعد عليها شيئاً ، ولا ييئس أمام ضغط الواقع أبداً . يعيش طليق التصور ، غير محصور فى قوالب حديدية ، يضع فيها نفسه ، ويتصور أن مشيئة الله ـ سبحانه ـ محصورة فيها ! وهكذا لا يتبلد حسه ، ولا يضمُر رجاؤه ، ولا يعيش فى إلف مكرور !

والمسلم يأخذ بالأسباب ، لأنه مأمور بالأخذ بها . ويعمل وفق السنة ، لأنه مأمور بمراعاتها. لا لأنه يعتقد أن الأسباب والوسائل هى المنشئة للمسببات والنتائج . فهو يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب ، ويتعلق به وحده من وراء الأسباب ، بعد أداء واجبه فى الحركة والسعى والعمل واتخاذ الأسباب . . طاعة لأمر الله .

وهكذا ينتفع المسلم بثبات السنن فى بناء تجاربه العلمية وطرائقه العملية ، فى

التعامل مع الكون وأسراره وطاقاته ومدخراته . فلا يفوته شيء من مزايا العلوم التجريبية والطرائق العملية . وهو فى الوقت ذاته موصول القلب بالله ، حى القلب بهذا الاتصال . موصول الضمير بالمشاعر الأدبية الأخلاقية ، التى ترفع العمر وتباركه وتزكيه ، وتسمو بالحياة الإنسانية إلى أقصى الكمال المقدر لها فى الأرض ، وفى حدود طاقة الإنسان .

* * *

والتوازن بين مجال المشيئة الإلَهية الطليقة ، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة . . وهى القضية المشهورة فى تاريخ الجدل فى العالم كله ، وفى المعتقدات كلها ، وفى الفلسفات والوثنيات كذلك باسم قضية « القضاء والقدر » أو الجبر والاختيار .

والإسلام يثبت للمشيئة الإلَهية الطلاقة ـ كما أسلفنا ـ ويثبت لها الفاعلية التى لا فاعلية سواها ، ولا معها ـ كما بينّا ذلك فى خاصية الشمول وكما سيجىء فى خاصية الإيجابية ـ وفى الوقت ذاته يثبت للمشيئة الإنسانية ، الإيجابية ـ كما سنفصل ذلك فى خاصية « الإيجابية » ـ ويجعل للإنسان الدور الأول فى الأرض وخلافتها . وهو دور ضخم ، يعطى الإنسان مركزاً ممتازاً فى نظام الكون كله ، ويمنحه مجالاً هائلاً للعمل والفاعلية والتأثير . ولكن فى توازن تام مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلَهية ، وتفردها بالفاعلية الحقيقية ، من وراء الأسباب الظاهرة . وذلك باعتبار أن النشاط الإنسانى هو أحد هذه الأسباب الظاهرة . وباعتبار أن وجود الإنسان ابتداء ، وإرادته وعمله ، وحركته ونشاطه ، داخل فى نطاق المشيئة الطليقة ، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه (على نحو ما سنفصل فى خاصية « الإيجابية ») .

ويقرأ الإنسان فى القرآن الكريم :

« ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » .

(الحديد : ٢٢)

« قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

(التوبة : ٥١)

« وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله. وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل : كل من عند الله . فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » .
(النساء : ٧٨)

« قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » .
(آل عمران : ١٥٤)

« أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

(النساء : ٧٨)

ويقرأ كذلك فى الجانب الآخر :
« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . (الرعد : ١١)
« ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .
(الأنفال : ٥٣)

« بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » .
« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » .

(الشمس : ٧ ـ ١٠)

« ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه » . (النساء : ١١١)
ثم يقرأ بعد هذا وذلك :
«كلا إنه تذكرة . فمن شاء ذكره . وما يذكرون إلا أن يشاء الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة » .

(المدثر : ٥٤ ـ ٥٦)

« إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

(الإنسان : ٢٩ ـ ٣٠)

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شىء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله » .
(آل عمران : ١٦٥ ـ ١٦٦)

يقرأ الإنسان أمثال هذه المجموعات المنوعة الثلاثة ، فيدرك منها سعة مفهوم «القدر» فى التصور الإسلامى ، مع بيان المجال الذى تعمل فيه المشيئة الإنسانية فى حدود هذا القدر المحيط .

لقد ضربت الفلسفات والعقائد المحرفة فى التيه ـ فى هذه القضية ـ ولم تعد إلا بالحيرة والتخليط . بما فى ذلك من خاضوا فى هذه القضية من متكلمى المسلمين أنفسهم . . ذلك أنهم قلدوا منهج الفلسفة الإغريقية ، أكثر مما تأثروا بالمنهج الإسلامى ، فى علاج هذه القضية .

فى التصور الإسلامى ليست هناك «مشكلة» فى الحقيقة ، حين يواجَه الأمر بمفهوم هذا التصور وإيحائه :

إن قدر الله فى الناس هو الذى ينشئ ويخلق كل ماينشأ وما يُخلق من الأحداث والأشياء والأحياء . . . وهو الذى يصّرف حياة الناس ويكيّفها . شأنهم فى هذا شأن هذا الوجود كله . . كل شىء فيه مخلوق بقدر ، وكل حركة تتم فيه بقدر . . ولكن قدر الله فى الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم فى ذات أنفسهم ، وما يحدثون فيها من تغييرات .

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» . (الرعد : ١١)

وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهّية المطلقة ، لا يبطل هذا ولا يعطله . فالأمران يجيئان مجتمعين أحياناً فى النص القرآنى الواحد ، كما رأينا فى المجموعة الثالثة من هذه النماذج .

ونحن إنما نفترض التعارض والتناقض ، حين ننظر إلى القضية بتصور معين نصوغه من عند أنفسنا ، عن حقيقة العلاقة بين المشيئة الكبرى ، وحركة الإنسان فى نطاقها . إلا أن المنهج الصحيح : هو ألا نستمد تصوراتنا فى هذا الأمر من مقررات عقلية سابقة . بل أن نستمد من النصوص مقرراتنا العقلية فى مثل هذه الموضوعات، وفيما تقصه علينا النصوص من شأن التقديرات الإلهّية ، فى المجال الذى لا دليل لنا فيه ، غير ما يطلعنا الله عليه منه . .

فهو قال : «فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا» . . وهو قال : «وما يشاءون إلا أن يشاء الله» . .

وهو قال : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » . . وهو قال : «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجاً كأنما يصعّد فى السماء » .

(الأنعام : ١٢٥)

وهو قال فى الوقت نفسه : « وما ربك بظلام للعبيد » .

(فصلت : ٤٦)

فلابد إذن ـ وفق تصور المسلم لإلهه وعدله فى جزائه ، وشمول مشيئته وقدره ـ من أن تكون حقيقة النسب بين مدلولات هذه النصوص فى حساب الله ، من شأنها أن تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية فى الاتجاه والعمل ، يقوم عليه التكليف والجزاء ، دون أن يتعارض هذا القدر مع مجال المشيئة الإلهية المطلقة ، المحيطة بالناس والأشياء والأحداث .

كيف ؟

كيفيات فعل الله كلها ، وكيفيات اتصال مشيئته بما يراد خلقه وإنشاؤه كلها . . ليس فى مقدور العقل البشرى إدراكها . والتصور الإسلامى يشير بتركها للعلم المطلق، والتدبير المطلق ـ مع الطمأنينة إلى تقدير الله وعدله ورحمته وفضله ـ فالتفكير البشرى المحدود بحدود الزمان والمكان ، وبالتأثرات الوقتية والذاتية ، ليس هو الذى يدرك مثل هذه النِّسَب وهذه الكيفيات ، وليس هو الذى يحكم فى العلاقات والارتباطات بين المشيئة الإلهية والنشاط الإنسانى . إنما هذا كله متروك للإرادة المدبرة المحيطة والعلم المطلق الكامل . . متروك لله الذى يعلم حقيقة الإنسان ، وتركيب كينونته ، وطاقات فطرته وعمله الحقيقى ، ومدى ما فيه من الاختيار ، فى نطاق المشيئة المحيطة . ومدى مايترتب على هذا القدر من الاختيار من جزاء .

وبهذا وحده يقع التوازن فى التصور ، والتوازن فى الشعور ، والاطمئنان إلى الحركة وفق منهج الله ، والتطلع معها إلى حسن المصير .

كذلك الحال فيما يسمونه : « مشكلة الشر والألم » .

ليست هناك مشكلة من وجهة النظر الإسلامية للأمر .

إن الإسلام يقول : إن الدنيا دار ابتلاء وعمل . وإن الآخرة دار حساب وجزاء . والحياة فى هذه الأرض مرحلة محدودة فى الرحلة الطويلة . وما يقع للإنسان فى هذه الأرض ليس خاتمة الحساب ولا نهاية المطاف . إنما هو مقدمة لها ما بعدها . واختبار تقدر له درجته هناك فى دار الحساب .

بهذا يحل الإسلام الجانب الشعورى من هذه المشكلة فى الضمير البشرى ، ويكسب فيه الطمأنينة والاستقرار . فالألم الذى يلقاه الخيّر فى هذه الأرض من جراء وجود الشر والنقص فيها ، ليس هو كل نصيبه ، فهناك النصيب الذى يعادل بين كفتى الميزان فى شطرى الرحلة ، والشطران موصولان . تسيطر عليهما إرادة واحدة . ويحكم فيهما حكم واحد لا يند عن علمه شىء ولا يختل فى ميزانه شىء !

ثم هو يخاطب الحقيقة الشعورية التى يجدها الإنسان فى أعماق ضميره . . . وهى أن شعور المؤمن الخيّر الذى يحقق منهج الله فى حياته ، ويجاهد لتحقيقه فى حياة البشر ، يجد ـ وهو يعانى الألم من جانب الشر والأشرار ـ شعوراً مكافئاً من الرضى والسعادة فى هذه الدنيا ، قبل أن يجد جزاءه المدخر له فى الآخرة . شعورا ناشئا عن إحساسه بأنه يرضى الله فيما يفعل ، وأن الله يرضى عن جهاده الخيّر . . . وهى شهادة من ذات البنية الحية ، ومن طبيعة الفطرة البشرية ، على أن الله جعل التكوين الفطرى للإنسان ، يجد جزاءه الحاضر فى كفاح الشر والباطل ، ونصرة الخير والحق ، وأن له من التذاذه الكفاح فى هذا الطريق ، جزاء ذاتيا من كيانه الداخلى ، فى ذات اللحظة التى يتحمل فيها الألم ، وهو يواجه الشر والباطل ، ويكافحهما ما استطاع . وأن العوض كامن فى ذات الفطرة وفى الاطمئنان إلى حسن الجزاء فى الدنيا والآخرة . ولهذا الاطمئنان أثره حتى قبل يوم الحساب الختامى فى دار الحساب .

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

(الرعد : ٢٨)

« أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ؟ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين » .

(الزمر : ٢٢)

« إن الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ،

وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم » .

(فصلت : ٣٠ ـ ٣٢)

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

(آل عمران : ١٣٩)

« قل : هل تَربّصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا . فتربصوا إنا معكم متربصون » .

(التوبة : ٥٢)

أما وجود الشر فى ذاته ، وما ينشأ عنه من الألم فى كل صورة . ولماذا يوجد ، والله قادر على ألا يوجده ابتداء ، ولو شاء لهدى الناس جميعاً ، ولو شاء لخلق الناس كلهم مهتدين ابتداء ؟؟؟ أما هذا السؤال فلا موضع له البتة فى التصور الإسلامى !

إن الله قادر طبعاً على تبديل فطرة الإنسان ـ عن طريق هذا الدين أو عن غير طريقه ـ أو خلقه بفطرة أخرى . ولكنه شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة وأن يخلق الكون على هذا النحو الذى نراه . وليس لأحد من خلقه أن يسأله لماذا شاء هذا ؟ لأن أحدًا من خلقه ليس إلهًا ! وليس لديه العلم والإدراك ـ ولا إمكان العلم والإدراك ـ للنظام الكلى للكون . ولمقتضيات هذا النظام فى طبيعة كل كائن فى هذا الوجود ، وللحكمة الكامنة فى خلقة كل كائن بطبيعته التى خلق عليها .

والله وحده هو الذى يعلم ، لأنه وحده هو الذى خلق الكون ومن فيه وما فيه ، وهو وحده الذى يرى ماهو خير فينشئه ويبقيه ، وهو وحده الذى يقدر أحسن وضع للخلق فينشئه فيه :

« فتبارك الله أحسن الخالقين » . (المؤمنون : ١٤)

« الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . (طه : ٥٠)

« ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

(المائدة : ٤٨)

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

(البقرة : ٢٥١)

« ونَبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » . (الأنبياء : ٣٥)

« ولماذا ، ـ فى هذا المقام ـ سؤال لا يسأله مؤمن جاد ، ولا يسأله ملحد جاد . . المؤمن الجاد لا يسأله ، لأنه أكثر أدباً مع الله ـ الذى يعرفه من التصور الإسلامى بذاته وصفاته ـ ولأنه أكثر معرفة بمدى إدراكه البشرى الذى لم يهيأ للعمل فى هذا المجال . . والملحد الجاد لا يسأله كذلك . لأنه لا يعترف بالله ابتداء فإن اعترف بألوهيته عرف معها أن هذا شأنه ـ سبحانه ـ وأن هذا مقتضى ألوهيته ، وأن اختياره هذا هو الخير قطعًا .

ولكنه سؤال يسأله مكابر لجوج ، أو مائع هازل . . ومن ثم لا يجوز المضى معه فى محاولة تبرير هذا الواقع بمعايير عقلية بشرية ، لأنه بطبيعته أكبر من مستوى العقل البشرى ، وأوسع من المجال الذى يعمل فيه العقل . فإدراك أسباب هذا الواقع يقتضى أن يكون الإنسان إلهاً . ولن يكون الإنسان إلهاً . ولابد له من أن يسلّم بهذه البديهية الواقعية ، ويسلم بمقتضياتها كذلك [1] .

فأما الباعث على الشر ، وتعرض الإنسان لضغطه ـ وهو ما يدفع إلى الشر والضلال والخطيئة ـ فالإسلام يقرر أنه أضعف من أن يكون مسلطاً على الإنسان تسليط قهر وغلبة . . إنما هو تسليط امتحان وابتلاء . فهو يتمثل فى المعركة بين الإنسان والشيطان . ودون الشيطان والغلبة فى هذه المعركة حاجز قوى من الإيمان وذكر الله والاستعاذة به ، والالياذ بكنفه .

« قال : رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال : هذا صراط علىّ مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . إلا من اتبعك من الغاوين » .

(الحجر : ٣٩ـ٤٢)

---

(١) تراجع خاصية « الربانية » ص ٤٣ .

« قال : اهبطا منها جميعا : بعضكم لبعض عدو . فإما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » .

(طه ٠ ١٢٣ـ ١٢٦)

« وقال الشيطان لما قضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم . وما كان لى عليكم من سلطان . إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى . فلا تلومونى ولوموا أنفسكم » .

(إبراهيم : ٢٢)

«فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون» . (النحل ٩٨ ـ ١٠٠)

« إن كيد الشيطان كان ضعيفا » . (النساء : ٧٦)

ثم إنه يبقى بعد ذلك أنه إذا كان الله ـ سبحانه ـ هو الذى يخلق كل إنسان . بإستعدادات معينة ، هى التى تجعله يميل إلى الخير والهدى ، أو يميل إلى الشر والضلال ، فكيف يعذب الله الشرير الضال ، ويكافئ الخيّر المهتدى ، فى الدنيا أو فى الآخرة سواء ؟

وهو سؤال خادع ـ فى صورته هذه ـ يقابله ويصححه ما يقرره القرآن من أن الله ـ سبحانه ـ خلق الإنسان ابتداء فى أحسن تقويم ، وأنه لايزول عن مكانه هذا إلا بغفلته عن الله . وأنه مبتلى بالخير والشر . وأن فيه الاستعداد للترجيح والاختيار ـ مع الاستعانة بالله ، الذى يعين من يجاهد لرضاه !

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . فلهم أجر غير ممنون » .

(التين : ٤ ـ ٦)

« ونفس وما سوّاها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دسّاها » . (الشمس : ٧ ـ ١٠)

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً و إما كفوراً » .

(الإنسان : ٢ ـ ٣)

« إن سعيكم لشتى . . فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » .

(الليل : ٤ ـ ١٠)

« والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا و إن الله لمع المحسنين » .

(العنكبوت : ٦٩)

ويقابله كذلك ويصححه ما سبق تقريره من أن قدر الله فى الناس يتحقق فيهم من خلال إرادتهم فى ذات أنفسهم ، وفى الحياة من حولهم .

ويرد الأمر فى النهاية إلى ما أسلفناه من الحديث عن قدر الله فى مطلع هذه الفقرة .

على أن التصور الإسلامى يعلّم المسلم أن الله فرض عليه تكاليف واضحة ، ونهاه عن أمور كذلك واضحة . وهذه وتلك محددة لا شبهة فيها ولا غبش . مكشوفة للعلم الإنسانى لا غيب فيها ولا مجهول . وهذه وتلك هى التى يحاسبه عليها . أما أمر الغيب والقدر وما هو مخبوء وراء النظر ، فأمور لم يكلف الله المسلم بالبحث فيها ، ولم يأمره بشىء يتعلق بها ، غير الاعتقاد بقدر الله خيره وشره .

ومن ثَم فطريق المسلم الواضح محدد مستقيم . . طريقه أن ينهض بالتكاليف الواضحة ـ ما استطاع ـ وأن يجتنب النواهى المحددة كما نُهِى . وأن يشتغل بمعرفة ما أمر الله به ، وما نهى الله عنه . ولا يبحث فى شىء وراءهما من أمر الغيب المحجوب عن إدراكه المحدود .

وما كان الله ـ سبحانه ـ ليكلفه شيئاً يعلم أن لا طاقة له به ، أو أنه ممنوع بمانع قهرى عن النهوض به . وما كان الله ـ سبحانه ـ لينهاه عن شىء ، يعلم أن لا طاقة له بالامتناع عنه ، أو أنه مدفوع بدافع قهرى لا يقاوم لإتيانه !

« لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

(البقرة : ٢٨٦)

« وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد . وادعوه مخلصين له الدين » .

(الأعراف : ٢٨ ـ ٢٩)

وما يؤمن بالله من لا يؤمن بأن الله لا يكلفه بشيء فوق طاقته ، ولا ينهاه عن شيء ليس فى مقدوره الانتهاء عنه . . وفى هذه الكفاية .

بهذا يتم التوازن فى الاعتقاد والشعور ، كما يتم التوازن فى النشاط والحركة . فيثير التصور الإسلامى فى الضمير الرغبة فى الخير والاستقامة ، وفى الحركة والفاعلية . مع الاستعانة بالله الذى بيده كل شيء .

وبهذا يقطع التعطيل والإرجاء والسلبية ، والإحالة على مشيئة الله فى المعصية ، أو الشلل والجمود والسلب . . وقد علم أن الله لا يرضى لعباده الكفر . وأنه لايحب أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا . ولا يرضى أن يترك المنكر بلا جهاد ، ولا أن يترك الحق بلا نصرة ، ولا أن تترك الأرض بلا خلافة . وقد علم أن الإنسان فى هذه الدنيا للابتلاء بالخير والشر ، وللامتحان فى كل حركة وكل حالة . وأنه مجزىّ على الحسنة وعلى السيئة فى دار الحساب والجزاء . . وأنه كذلك مستخلف فى هذه الأرض ، وأن له مكانه فى هذا الكون ، وله دوره فى مايقع فى هذه الأرض من تغيير وتطوير . وأنه إما ناهض بهذه الخلافة ـ وفق منهج الله ـ فمثاب . وإما ناكل عن التبعة فمعاقب . ولو كان النكول خوفاً من التبعة ، وفرارًا من الابتلاء !

❊ ❊ ❊

والتوازن بين عبودية الإنسان المطلقة لله ، ومقام الإنسان الكريم فى الكون . . وقد سلم التصور الإسلامى فى هذا الصدد من كل الهزات والأرجحات التى تعاورت المذاهب والمعتقدات والتصورات . . ما بين تأليه الإنسان فى صوره الكثيرة . وتحقير الإنسان إلى حد الزراية والمهانة .

إن الإسلام يبدأ فيفصل فصلاً تاما كاملاً بين حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية . وبين مقام الألوهية ومقام العبودية . وبين خصائص الألوهية وخصائص العبودية . بحيث لا تقوم شبهة أو غبش حول هذا الفصل الحاسم الجازم :

الله « ليس كمثله شيء » . . فلا يشاركه أحد فى ماهية أو حقيقة .

والله « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » فلا يشاركه أحد فى وجود .

و« كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلا ل والإكرام » . . فلا يشاركه أحد فى بقاء .

والله « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . . فلا يشاركه أحد فى سلطان .

و « خالق كل شيء » . . فلا يشاركه أحد فى خَلْق .

و « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » . . فلا يشاركه أحد فى رزق .

و « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . . . فلا يشاركه أحد فى علم .

« ولم يكن له كفوا أحد » . . فلا يشاركه أحد فى مقام .

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » . . . فلا يشاركه أحد فى التشريع للناس . . . وهكذا فى كل خاصية من خصائص الألوهية .

والإنسان عبد لله ككل مخلوق فى هذا الوجود .

عبد لا يشارك الله فى حقيقة ولا خاصية . . وليس كما تقول الكنيسة عن المسيح ـ عليه السلام ـ إن له طبيعة لاهوتية صافية ، أو لاهوتية ناسوتية ، على اختلاف المذاهب والتصورات .

« إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل »

(الزخرف : ٥٩)

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » .

(النساء : ١٧٢)

« إن كل من فى السماوات والأرض إلا اتى الرحمان عبداً) .

(مريم : ٩٣)

ولكن الإنسان ـ بعبوديته هذه لله ـ كريم على الله . فيه نفخة من روح الله . مكرم فى الكون ، حتى ليأمر الله الملائكة ـ وهم عباده المقربون ـ أن يسجدوا له سجود التكريم .

« وإذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا

سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون » .

(الحجر : ٢٨ ـ ٣٠)

وهو مستخلف فى هذه الأرض ، مسلط على كل مافيها ، مسخر له الأرض وما فيها ومحسوب حسابه فى تصميم هذا الكون قبل أن يكون :

« وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم مالا تعلمون . وعلّم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ! لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ » .

(البقرة : ٣٠ ـ ٣٣)

« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه » .

(الجاثية : ١٣)

« وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون »

(النحل : ١٥)

« ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ، والفلك تجرى فى البحر بأمره . ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ؟ إن الله بالناس لرؤوف رحيم » . (الحج : ٦٥)

والإنسان ـ كما أسلفنا ـ يكون فى أرفع مقاماته ، وفى خير حالاته ، حين يحقق مقام العبودية لله . إذ أنه ـ فى هذه الحالة ـ يكون فى أقوم حالات فطرته ، وأحسن حالات كماله ، وأصدق حالات وجوده .

ومقام العبودية لله هو الذى وُصِف به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مقام الوحى ومقام الإسراء والمعراج ـ كما ذكرنا من قبل ـ وهو الذى جعله الله غاية الوجود الإنسانى وهو يقول : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

كما أن قيام الناس فى هذا المقام ، هو الذى يعصمهم جميعاً من عبودية العبيد

للعبيد ، وهو الذى يحفظ لهم كراماتهم جميعاً ، على اختلاف مراكزهم الدنيوية ، وهو الذى يرفع جباههم فلا تنحنى إلا لله ، وهو الذى يكفيهم ـ فى الوقت ذاته ـ عن الاستكبار فى الأرض بغير الحق ، والعلو فيها والفساد ، ويستجيش فى قلوبهم التقوى للمولى الواحد ، الذى يتساوى أمامه العبيد . ويرفض أن يدعى أحد العبيد لنفسه خصائص الألوهية ، فيشرع للناس فى شؤون حياتهم بغير سلطان من الله ، ويجعل ذاته مصدر السلطان ، وإرادته شريعة لبنى الإنسان !

ومن ثم فإنه لا تعارض ـ فى التصور الإسلامى ـ بين رفعة الإنسان وعظمته وكرامته وفاعليته ، وبين عبوديته لله ـ سبحانه ـ وتفرد الله بالألوهية وبخصائصها جميعاً .

ولا حاجة إذن ـ عندما يراد رفع الإنسان وتكريمه ـ أن تخلع عنه عبوديته لله ، أو تضاف إلى ناسوتيته لا هوتية ليست له ، كما احتاج رؤساء الكنيسة والمجامع المقدسة أن يفعلوا ، ليعظموا عيسى ـ عليه السلام ـ ويكبّروه !

« ولقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة . ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . وما من إلَه إلا إلَه واحد . وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ؟ والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقه ، كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون » .

(المائدة ٧٢ ـ ٧٥)

«إذ قال الله يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلَهَين من دون الله ؟ قال : سبحانك ! ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته . تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم . وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد . إن

تعذبهم فإنهم عبادك . وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

(المائدة : ١١٦ ـ ١١٨)

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون . ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً .

(النساء : ١٧٢)

كذلك لا حاجة إلى تصغير الله ـ سبحانه وتعالى ـ كلما أريد تعظيم الإنسان ، وإعلان رفعة مقامه فى هذه الأرض ، وسيطرته وفاعليته . وكلما فتح الله للإنسان فتحًا فى أسرار المادة . وكلما سخر له طاقة من طاقات الكون !

إن الله ـ سبحانه ـ والإنسان ليسا كفوين ولا ندين ! ولا متصارعين ! ولا يرجح أحدهما ليشيل الآخر ! ولا يغلب أحدهما ليهزم الآخر !

لقد تركت الأساطير الإغريقية ، والأساطير العبرية ، هذا التصور القبيح التافه فى أذهان الأوربيين . فظل يسيطر على تصوراتهم ، حتى بعد ما دخلوا فى المسيحية !

الأسطورة الإغريقية التى تصور كبير الآلهة « زيوس » غاضبًا على الإله «برومثيوس» لأنه سرق سر النار المقدسة (سر المعرفة) وأعطاه للإنسان ، وراء ظهر كبير الآلهة . الذى لم يكن يريد للإنسان أن يعرف ، لئلا يرتفع مقامه فيهبط مقام كبير الآلهة ، ويهبط معه مقام « الآلهة » ! ومن ثم أسلمه إلى أفظع انتقام وحشى رعيب !

والأسطورة العبرانية التى تصور الإلّه خائفا من أن يأكل الإنسان من شجرة الحياة، ـ بعد ما أكل من شجرة المعرفة ـ فيصبح كواحد من الآلهة ! ومن ثم يطرد الإنسان من الجنة ، ويقيم دونه ودون شجرة الحياة حراسًا شدادًا ولهيب سيف متقلب!

والأسطورة التى أطلقها « نيتشه » وهو يتخبط تخبط الصرع فى كتابه : « هكذا قال زرادشت » ليعلن « موت الإلّه » ومولد الإنسان الأعلى (السوبرمان !)

« كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا » . .

إن الإنسان ـ فى الإسلام ـ يأخذ مكانه الحقيقى دائما فى هدوء ، وفى هوادة ، وفى

طمأنينة . . إنه عبد لله . وإنه بهذه العبودية أكرم خلق الله . وهو فى مقام العبودية فى أرفع مقام . وفى أسعد مقام . وفى أصلح مقام .

ويبقى أن نأخذ ـ من هذه الخاصية ـ أن التصورات الأوربية التى كمنت فيها تلك التصورات الأسطورية المختلفة ، ودخلت فى صميمها ، بل دخلت فى مناهج تفكيرها . . أن هذه التصورات الأوربية ، وما قام عليها من مناهج التفكير ، وما نتج منها من مذاهب وأفكار . . كلها تصطدم ـ اصطدامًا ظاهراً أو خفيا ـ مع التصور الإسلامى ، ومناهج الفكر الإسلامية ، وأن أى استعارة من تلك التصورات، أو مناهج التفكير ، أو نتاجها من المذاهب والأفكار ، تحمل فى صميمها عداء طبيعيا للتصور الإسلامى ، وللفكر الإسلامى ، ولا تصلح بتاتًا للاقتباس منها أو الاستعانة بها . . بل هى كالسم الذى يتلف الأنسجة ، ويؤذى الأعضاء ، ويقتل فى النهاية إذا كثر المقدار !!!

* * *

والتوازن فى علاقة العبد بربه ، بين موحيات الخوف والرهبة والاستهوال ، وموحيات الأمن والطمأنينة والأنس . . فصفات الله الفاعلة فى الكون ، وفى حياة الناس والأحياء ، تجمع بين هذا الإيحاء وذاك . فى توازن تام .

ويقرأ المسلم فى كتاب الله الكريم من صفات ربه ما يخلع القلوب ، ويزلزل الفرائص ، ويهز الكيان ، من مثل قوله تعالى :

« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون » (الأنفال : ٢٤)

« يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » (غافر : ١٩)

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »

(ق : ١٦)

« واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه » . (البقرة : ٢٣٥)

« واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » . (البقرة : ١٩٦)

« سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » .

(القلم : ٤٤ ـ ٤٥)

« إن بطش ربك لشديد » (البروج : ١٢)

« والله عزيز ذو انتقام » . (آل عمران : ٤)

« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة . إن أخذه أليم شديد » .

(هود : ١٠٢)

« وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا . إن لدينا أنكالا وجحيماً ، وطعاماً ذا غصة وعذابًا أليما . يوم ترجف الأرض والجبال ، وكانت الجبال كثيبًا مهيلا» .

(المزمل : ١١ـ١٤)

وصور العذاب فى مشاهد القيامة رعيبة رعيبة[1] .

ويقرأ المسلم كذلك من صفات ر به ، ما يملأ قلبه طمأنينة وراحة ، وروحه أنسًا وقربًا ، ونفسه رجاء وأملا . من مثل قوله تعالى :

« و إذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان » .

(البقرة : ١٨٦)

« أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟» .

(النمل : ٦٢)

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم » .

(البقرة : ٢٦٨)

« وما كان الله ليضيع إيمانكم : إن الله بالناس لرؤوف رحيم » .

(البقرة : ١٤٣)

« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » . (النساء : ٢٨)

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكرًا عليماً » .

(النساء : ١٤٧)

---

(١) يراجع كتاب : مشاهد القيامة .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًّا » .

(مريم : ٩٦)

« وهو الغفور الودود » . (البروج : ١٤)

« والله رؤوف بالعباد » . (البقرة : ٢٠٧)

« ويبشر المؤمنين الذى يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ماكثين فيه أبدًا » .

(الكهف : ٢ ـ ٣)

وصور النعيم فى مشاهد القيامة رخية رخية [(١)] !

ومن هذا وذاك يقع التوازن فى الضمير بين الخوف والطمع ، والرهبة والأنس ، والفزع والطمأنينة . . ويسير الإنسان فى حياته ، يقطع الطريق إلى الله ، ثابت الخطو ، مفتوح العين ، حى القلب ، موصول الأمل . حذرًا من المزالق ، صاعدًا أبدًا إلى الأفق الوضىء . لا يستهتر ولا يستهين ، ولا يغفل ولا ينسى . وهو فى الوقت ذاته شاعر برعاية الله وعونه ، ورحمة الله وفضله ، وأن الله لا يريد به السوء ، ولا يود له العنت ، ولا يوقعه فى الخطيئة ليتشفى بالانتقام منه . . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا .

وحين توازن بين هذا التصور وتصور الإغريق لكبير آلهتهم ، القاسى الحسود الشهوان العربيد ، المضطغن الحقود . أو تصور الإسرائيليين المنحرف لإلههم الغيور المتعصب ، البطاش المتهور . أو تصور أرسطو لإلهة المترفع الذى لا يعنى نفسه بأمر الخلق على الإطلاق ، ولا يفكر إلا فى ذاته ، لأنها أشرف الذوات ، ولا يليق بالإله أن يفكر إلا فى أشرف ذات ! أو تصور الماديين لإلههم « الطبيعة » الصماء العمياء الخرساء! . . عندئذ تبدو قيمة هذا الجانب المتوازن فى التصور الإسلامى ، وأثره الواقعى فى حياة البشر ، وأثره كذلك فى منهج حياتهم وأخلاقهم ونظامهم العملى . (وسيأتى شىء من تفصيل هذا الإجمال فى الفصل التالى عن خاصية : الإيجابية) .

* * *

والتوازن بين مصادر المعرفة : من وراء الغيب المحجوب ، ومن صفحة الكون المشهود ، أو بتعبير آخر : من الوحى والنص ، ومن الكون والحياة .

وقد رأينا فى مطلع هذا البحث كيف تقلبت التصورات فى أوربة ، بين اتخاذ النص (أو الوحى) ـ وحده ـ مصدرًا للمعرفة ، واتخاذ العقل ـ وحده ـ مصدرًا ، واتخاذ الطبيعة ـ وحدها ـ مصدرًا كذلك ! وتعسف كل فريق فى « تأليه » مصدره ، ونفى المصادر الأخرى إطلاقاً ، و إلغاء وجودها إلغاء !

فأما الإسلام فى شموله ، وفى توازنه ، وفى اعتباره لجميع « الحقائق » الواقعة ، دون تعسف ، ودون هوى ، ودون شهوة ، ودون غرض ، ودون جهل ، ودون قصور . . .

أما الإسلام ـ فى طمأنينته إلى الحق ، الكامل الشامل ـ فلم يغفل مصدرًا واحدًا من مصادر المعرفة لم يعطه اعتباره ، ولم يضعه فى مكانه الذى يستحقه ، ودرجته التى هى له فى الحقيقة ، فى دقة وتوازن وطمأنينة .

فالإسلام ـ كما سبق ـ يرد الأمر كله ابتداء إلى الله و إرادته وتدبيره ، ويرد الخلق كله إلى إرادة الله الواحد ـ ومن الخلق هذا الكون وما فيه ، وهذا الإنسان وعقله ومداركه ـ ومن ثم لا يجد تناقضًا فى أن يكون للكون ـ أو للطبيعة كما يسميها الغربيون ـ وأن يكون للحياة وأوضاعها ـ وفيها الاقتصاد إلّه كارل ماركس ـ دور فى إمداد « الإنسان» بالمعرفة عن طريق « العقل » وسائر المدارك المودعة فيه باعتبار الجميع من صنع الله . . فهى من عنده . كما أن الوحى من عنده كذلك .

نعم إن الإسلام يعتبر مصدر الوحى هو المصدر الصادق ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يخضع للهوى ، ولا يتأثر به ، ومن ثم فهو أعلى المصادر . ولكنه فى الوقت ذاته لا يلغى العقل ـ عندئذ ـ ولا يلغى المؤثرات والمعارف التى تتلقاها الكينونة الإنسانية كلها ، مما حولها فى الكون . . فالكون كذلك كتاب الله المفتوح الذى يصب المعرفة فى الكينونة الإنسانية ـ كما يصبها الوحى ـ مع فارق واحد : هو أن المعرفة التى يتلقاها الإنسان بمداركه من هذا الكون ، قابلة للخطأ والصواب ـ بما أنها من عمل الإنسان ـ أما ما يتلقاه من الوحى فهو الحق اليقين . .

لقد خلق الله هذا الإنسان متوافقاً فى فطرته وتكوينه مع هذا الكون ، ومع سائر الأحياء . فكلهم من خلق الله ، وكلهم يتلقى من الله ، وكلهم يتمتع بهداه .

« قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . (طه : ٥٠)

« سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدّر فهدى » .

(الأعلى : ١ ـ ٣)

« ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (الذاريات : ٤٩)

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » .

(الأنعام : ٣٨)

« الذى جعل لكم الأرض مهدًا ، وسلك لكم فيها سبلا » . (طه : ٥٣)

« منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » . (طه : ٥٥)

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون» .

(يس : ٣٦)

« فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا » .

(الشورى : ١١)

وفى التوافق والتناسق والتعاون بين خلق الله جميعاً ـ وفيهم الإنسان ـ ترد نصوص قرآنية كثيرة . ذات إيحاء قوى بالوحدة والتضامن والتناسق فى طبيعة التكوين وفى الاتجاه العام ، نذكر منها القليل :

« ألم نجعل الأرض مهادًا ؟ والجبال أوتادًا ؟ وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعًا شدادًا . وجعلنا سراجاً وهاجًا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجًا . لنخرج به حبا ونباتًا . وجنات ألفافًا » .

(النبأ : ٦ ١٦)

« أأنتم أشد خلقًا أم السماء : بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعًا لكم ولأنعامكم » .

(النازعات : ٢٧ ـ ٣٣)

« فلينظر الإنسان إلى طعامه : أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا .

فأنبتنا فيها حبا . وعنبًا وقضبًا . وزيتونًا ونخلا . وحدائق غلبًا . وفاكهة وأبًا . . متاعًا لكم ولأنعامكم » .

(عبس : ٢٤ ـ ٣٢)

« والله أنزل من السماء ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم ، لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقاً حسنًا . إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتًا ، ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات ، فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

(النحل : ٦٥ ـ ٦٩)

« والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعاً إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانًا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون »

(النحل : ٨٠ ـ ٨١)

وأمثال هذه النصوص كثير ، سنفصل الحديث عنه عند الكلام عن حقيقة الكون وحقيقة الإنسان فى التصور الإسلامى . .

والمهم الآن أن نقول : إن الإسلام بناء على تقريره أن هناك اتفاقًا وتناسقًا بين الكون والإنسان ، جعل الكون وجعل الحياة والأحياء من بين مصادر المعرفة لهذا الإنسان ـ أو عن كتاب الكون المفتوح ـ وعن الإنسان ذاته . فهو مصدر من مصادر التأمل والمعرفة لذاته !

فنجد فى التوجيه إلى المصدر الأول الأصيل الصادق ، المهيمن على كل مصادر المعرفة الأخرى . . أمثال هذه النصوص :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » . (الإسراء : ٩)

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون » .

(الجاثية : ١٨)

« إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

(يوسف : ٢ ـ ٣)

« وقلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

(البقرة : ٣٨ ـ ٣٩)

« وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور . خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا » .

(البقرة : ٩٣)

ثم نجد فى التوجيه إلى التلقى والمعرفة من كتاب الكون المفتوح ، ومن كتاب النفس المكنون ، الشيء الكثير . . الكثير :

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم . أفلا تبصرون ؟» .

(الذاريات : ٢٠ ـ ٢١)

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

(فصلت : ٥٣)

« أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت ؟ وإلى السماء كيف رفعت ؟ وإلى الجبال كيف نصبت ؟ وإلى الأرض كيف سطحت ؟ فذكر إنما أنت مذكر » .

(الغاشية : ١٧ ـ ٢١)

« ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

(النحل : ٧٩)

« إن فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها

وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون » .

(البقرة : ١٦٤)

وفى التوجيه إلى استخدام العقل للمعرفة ، إما بتدبر آيات الله فى الكون ، وإما بتدبر حقائق الوحى وحقائق الحياة ، نجد كذلك فى القرآن نصوصا شتى :

« قل : إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم ، بين يدى عذاب شديد » .

(سبأ : ٤٦)

« أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

(النساء : ٨٢)

« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ؟ أو آذان يسمعون بها ؟ فإنها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

(الحج : ٤٦)

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعودًا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك !»

(آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١)

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » .

(النحل : ٧٨)

وهكذا تتوازن هذه المصادر . . كل بحسبه . . وتتناسق فى إمداد الكائن الإنسانى بالمعرفة . ويتوازن التصور الإسلامى ، فلا يشط ولا يضطرب ولا يتأرجح بين هذه المصادر ، ولايؤلّه ماليس منها بإله !

ومما يلاحظ بوضوح فى منهج التربية القرآنى كثرة توجيه الإدراك البشرى إلى مافى الكون ، وما فى الأنفس ، من أمارات وآيات ، وتوجيه هذا الإدراك إلى مصاحبة

صنعة الله فى الأنفس والآفاق . ذلك أن هذه المصاحبة ـ فوق أنها تنبه الإدراك البشرى إلى معرفة الصانع من صنعته ، وإجلاله بإدراك عظمته من عظمة صنعه ، وحبه بإدراك عظمة أنعمه ـ فهى فى الوقت ذاته تطبع الإدراك الإنسانى بخصائص تلك الصنعة : من دقة وتناسق وانتظام ، لا خلل فيه ولاتصادم ولا تفاوت . كما تطبعه بموحياتها كذلك من سنن وحقائق ومقررات . . وليس بالقليل مثلا أن ينطبع فى حس الإنسان وشعوره من متابعة التغير المستمر فى أحوال هذا الكون ، وفى أحوال البشر ، وفى أحوال النفس ، أن الدوام لله وحده ، الذى يغير ولايتغير . وأن كل شىء حائل أو زائل ، إلا الحى الذى لا يموت . الصمد الثابت المقصود . . وليس بالقليل مثلا أن ينطبع فى حس الإنسان وشعوره من ملاحظة ثبات السنن التى تحكم ذلك التغير ، وثبات الناموس الذى يتم به التبدل والتحور ، أن الأمور لا تمضى جزافًا ، وأن الحياة لم توجد سدى ، وأن الإنسان غير متروك لقًى . وإنما هو التدبير والتقدير ، والابتلاء والجزاء ، والعدل الصارم الدقيق فى تقدير المصير . .

وهكذا . . وهكذا . . مما سنذكر منه الكثير .

ومن ثم يكثر التوجيه إلى هذه المصادر ، والظاهرة فى الكون والمكنونة فى النفس ، لتلقى المعرفة من كتاب الله المفتوح ، كتلقى المعرفة من كتاب الله المقروء . فى تناسق وتوازن ، يجمع بين مصادر المعرفة كلها ، فى غير تصادم ولا تعارض ، وفى غير تأليه ولا تحقير ، وفى غير خصومات صغيرة ، كتلك الخصومات التى رأينا أمثلة منها فى تاريخ الفكر الغربى الصغير !

ومن ثم لا يقتضى قيام الوحى ـ كمصدر أساسى للمعرفة ـ إلغاء الإدراك البشرى ، كما لايقتضى وجود الكون إلغاء هذا العقل ، أو إلغاء الله ـ جل وعلا وتنزه عن التصورات المطموسة البائسة ، التى يتعبد لها الغربيون ! وعبيد الغربيين !

* * *

والتوازن بين فاعلية « الإنسان » وفاعلية الكون . وبين مقام الإنسان ومقام الكون . وقد سلم التصور الإسلامى فى هذه النقطة من جميع الأرجحات ، وجميع التقلبات التى صاحبت الفكر البشرى ، كلما انحرف عن منهج الله .

وتتضح استقامة التصور الإسلامى تجاه الكون والإنسان ، حين يراجع ركام الفلسفات والتصورات والمعتقدات المختلفة .

لقد كان أفلاطون يضع المادة فى الدرك الأسفل من القيمة والاعتبار .

« فالوجود فى مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان : طبقة العقل المطلق ، وطبقة المادة أو « الهيولى » . والقدرة كلها من العقل المطلق ، والعجز كله من الهيولى . وبين ذلك كائنات على درجات تعلو بقدر ما تأخذ من العقل ، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهيولى .

« فالهيولى مقاومة للعقل المجرد ، وليست موجِدة بمشيئته من العدم »[1]

وأفلوطين ـ فى الأفلاطونية الحديثة ـ يجعل المادة فى الدرك نفسه . فالواحد الأحد خلق العقل ، والعقل خلق الروح ، والروح خلقت ما دونها من الموجودات ، على الترتيب الذى ينحدر طورًا دون طور إلى عالم الهيولى ، أو عالم المادة والفساد »[2]

والنصرانية ـ كما صنعتها الكنيسة ـ اعتبرت الشر كله ممثلا فى عالم الجسد ـ أى عالم المادة ـ والخير كله ممثلا فى عالم الروح . ومن ثم اقتضى الأمر احتقار كل ماهو مادى ، والهرب منه للنجاة من الشر والفساد . . وكذلك فعلت الهندوكية من قبل فى مذهب براهما . . .

« وبينما عالم المادة ينبذ هذا النبذ فى بعض الفلسفات والمعتقدات ، يقوم فى القرن التاسع عشر ، من يجعل من « الطبيعة » إلها ، ويجعل من العقل البشرى مخلوقًا من مخلوقات هذا الإلّه ! كما فعل « كومت » و« نيتشه » من زعماء المذهب الوضعى ، ومن يجعل جانبا من عالم المادة ـ وهو الاقتصاد ـ إلهًا ، يخلق العقول والأديان والفلسفات والآداب والأخلاق . . كما فعل كارل ماركس ! ويحط من قيمة الإنسان تجاه هذا الإله ، فيجعله عاملاً سلبيا لا يقدم ولا يؤخر ، وإنما يتلقى فقط ويتأثر !

بين هذه الشخصيات المتأرجحة ، وبين هذا الغلو من هنا ومن هناك يقف التصور الإسلامى على قاعدة الحقيقة المستقرة الثابتة . . الله هو الخالق المبدع المهيمن

---

(١) عن كتاب « الله » للأستاذ العقاد ص ١٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٨ .

المدبر . . والكون والإنسان من إبداع الله . وبينهما من التفاعل ، وبينهما من التناسق، ما يجعل لكل منهما دورًا فى حياة الآخر . . والإنسان هو الأكرم ، وهو الأكثر فاعلية وإيجابية . وهو المسلط على المادة ، يبدع فيها وينشئ ، ويغيّر فيها ويطوّر ، ويظهر من أسرارها ما أودعه الله ، ويتلقى من هذه الأسرار ما يؤدى إلى العظة والاعتبار .

وتكريم الوجود الإنسانى ـ مع عدم احتقار الوجود الكونى ـ يكفل لهذا الإنسان مقامه وكرامته ، ويجعل حياته ومقوّماته أكرم من أن تمسّ فى سبيل توفير أية قيمة مادية أخرى . وذلك مع عدم الإخلال بالقيم المادية وبالإبداع فى عالم المادة .

* * *

وهناك ألوان شتى من هذا التوازن فى التصور الإسلامى ، لا نملك تتبعها وعرضها هنا بالتفصيل ـ ولا حتى مجرد الإشارة ـ إنما نحن نثبت هذه النماذج ، لتكون هى الإشارة التى يتبعها الناظر فى هذا المنهج ، إلى نهاية الطريق[1] . . .

* * *

---

(١) يراجع فصل « خطوط متقابلة » فى كتاب : « منهج التربية الإسلامية» . لمحمد قطب .

الإيجابية

« وقُل اعْمَلُوا فَسَيَرى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمُؤمِنُونَ »

والخاصية الخامسة البارزة فى التصور الإسلامى هى . . الإيجابية . . الإيجابية الفاعلة فى علاقة الله ـ سبحانه ـ بالكون والحياة والإنسان . والإيجابية الفاعلة كذلك من ناحية الإنسان ذاته . فى حدود المجال الإنسانى . . كما أشرنا إلى ذلك من قبل إشارات مجملة . .

إن الصفات الإلهَية فى التصور الإسلامى ليست صفات سلبية . والكمال الإلهَى ليس فى الصورة السلبية التى جالت فى تصور أرسطو . وليست مقصورة على بعض جوانب الخلق والتدبير كما تصور الفرس فى صفات « هرمز » إلّه النور والخير واختصاصاته وصفات « أهرمان » إلّه الظلام والشر واختصاصاته . وليست محدودة بدرجة من درجات الخلق كتصور أفلوطين . وليست محدودة بحدود شعب كتصورات بنى إسرائيل . وليست مختلطة أو متلبسة بإرادة كينونة أخرى ، كبعض تصورات الفرق المسيحية . وليست معدومة على الإطلاق ، كما تقول المذاهب المادية ، التى تنفى وجود الإلّه الحى المريد . . . إلى آخر هذا الركام . .

ولعله يحسن قبل أن نعرض التصور الإسلامى الواضح الصريح المريح ، أن نثبت مجملا سريعًا لهذه التصورات التى أشرنا إليها . أو لهذا الركام ، الذى أشرنا إلى شىء منه فى أوائل هذا الكتاب وفى ثناياه :

* * *

« مذهب أرسطو فى الإلّه أنه كائن أزلى أبدى ، مطلق الكمال ، لا أول له ولا آخر ، ولا عمل له ولا إرادة ! مذ كان العمل طلبًا لشىء . والله غنى عن كل طلب .

وقد كانت الإرادة اختيارًا بين أمرين ، والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال ، فلا حاجة إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ، ولا بين فاضل ومفضول . وليس مما يناسب الإله ـ فى رأى أرسطو ـ أن يبتدئ العمل فى زمان ، لأنه أيدى سرمدى ، لا يطرأ عليه طارئ يدعوه إلى العمل ، ولا يستجد عليه من جديد فى وجوده المطلق بلا أول ولا آخر ، ولا جديد ولا قديم . وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه ، التى لا بغية وراءها ، ولا نعمة فوقها ولا دونها ، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه !

« فالإله الكامل المطلق الكمال ، لا يعنيه أن يخلق العالم ، أو يخلق مادته الأولى ـ وهى الهيولى ـ ولكن هذه « الهيولى » قابلة للوجود ، يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود ، الذى يفيض عليها من قبل الإله ، فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود ، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع فى حدودها ، فتتحرك وتعمل ، بما فيها من الشوق والقابلية ، ولا يقال عنها : إنها من خلقة الله ، إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار »[1] .

والفرس كانوا يعتقدون بالثنوية ، ويجعلون للخير إلهًا هو « هرمز » . قدرته واختصاصه مقصوران على عالم النور والخير . ويجعلون للشر إلهًا هو « أهرمان » قدرته واختصاصه مقصوران على عالم الظلام والشر . وهما أخوان مولودان لإله قديم اسمه « زروان » !

« وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين ، وأن هرمز طفق فى مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة . وأهرمان غافل عنه فى قراره السحيق . فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه ، راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه ، فأشفق على نفسه من العاقبة . وعلم أن النور وشيك أن ينتشر ويستفيض ، فلا يترك له ملاذا يعتصم به ، ويضمن فيه البقاء . فثار ، وثارت معه خلائق الظلام ـ وهى شياطين الشر والفساد ـ فأحبطت سعى هرمز ! وملأت الكون بالخبائث والأرزاء[2] . . الخ » . . . (واحتدمت المعركة وما تزال) .

---

(١) عن كتاب : « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » للأستاذ العقاد : ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢) عن كتاب : « الله » للأستاذ العقاد ص ١٨٨ .

أما « أفلوطين » الذى عاش فى السنوات الأولى من القرن الثالث للميلاد . . فإنه يغلو فيما يراه تنزيها لإلَه الأحد ، حتى يتجاوز كل معقول . فإذا كان أرسطو يرى أن من كمال إلَه ألا يشعر بغير ذاته ، وألا يفكر إلا فى ذاته لا يفكر إلا فى أشرف الموجودات . وذاته هى أشرف الموجودات . وأنه لا يعلم الموجودات لأنها أقل من أن يعلمها . . إذا كان تنزيه أرسطو لإلَه وقف به عند هذا الحد ، فإن أفلوطين راح يزعم أن من كمال إلَه الأحد أنه لا يشعر بذاته كذلك ! لأنه يتنزه عن ذلك الشعور !

« وبديه أن المذهب يقتضى وسائط متعددة لربط الصلة بين هذا الإلَه « الأحد » المطلق الصفاء ، وبين المخلوقات العلوية ، وهذه المخلوقات السلفية . ولا سيما خلائق الحيوان المركب فى الأجساد .

« وهكذا لزم أفلوطين أن يقول : إن الواحد خلق العقل . وإن العقل خلق الروح . وإن الروح خلقت مادونها من الموجودات . على الترتيب الذى ينحدر طوراً دون طور ، إلى عالم الهيولى ، أو عالم المادة والفساد ! »[1] .

ومن ثم ينحصر اختصاص الإله ـ عند أفلوطين ـ فى خلق العقل . . ثم تنتهى مهمته عند ذاك !

أما إلَه بنى إسرائيل « يهوا » ـ كما ترسمه تصوراتهم المنحرفة ـ فهو إلَه إسرائيل الخاص ! الذى يغار من عبادة شعب إسرائيل للآلهة الغريبة ، فيثور ويغضب ويحطم وينتقم . حتى إذا عاد الشعب إليه رضى واستراح . وكف عن النقمة والتدمير . وندم على ما فعل بشعبه المختار !

والتصورات الكنسية عن طبيعة المسيح وإرادته ، وتلبسها باللاهوتية ، سبق أن أشرنا إليها فى فصل « تيه وركام » ، وهى تجعل إرادة الله متلبسة أو متجسمة فى إرادة المسيح . . إلى أخر هذا الركام[2] !

وكذلك أشرنا إلى تصورات الوضعيين الماديين المختلفة بما فيه الكفاية . فيرجع إليها هناك[3] .

* * *

---

(١) المصدر السابق : ص ١٨٨

(٢) ص ٢٨ ـ ٣٣ من هذا الكتاب .

(٣) ص ٦٢ ـ ٧١ من هذا الكتاب .

والآن ننتقل من هذا الركام المتناثر إلى التصور الإسلامى المستقيم الواضح المريح :

إن الإنسان ـ فى التصور الإسلامى ـ يتعامل مع إله موجود . خالق . مريد . مدبر . مهيمن . قادر . فعال لما يريد . . كامل الإيجابية والفاعلية . . إليه يرجع الأمر كله . وإلى إرادته يرجع خلق هذا الكون ابتداء ، وكل انبثاقة فيه بعد ذلك ، وكل حركة . وكل تغير وكل تطور . ولا يتم فى هذا الكون شىء إلا بإرادته وعلمه وتقديره وتدبيره . وهو ـ سبحانه ـ مباشر بإرادته وعلمه وتدبيره لكل عبد من عباده ، فى كل حال من أحواله ولكل حى ولكل شىء وفى هذا الوجود كذلك .

ويحفل القرآن الكريم بتقرير هذه الحقيقة الأساسية الكبيرة فى التصور الإسلامى ، بكل صورها وأشكالها ، ويهتم بعرض مظاهرها فى كل جانب من جوانب الكون ، وفى كل صورة من صورها المتجددة التى لا تحصى :

« إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثًا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » .

(الأعراف : ٥٤)

« وما كان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الأرض ، إنه كان عليماً قديرًا » .

(فاطر : ٤٤)

« قل : اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » .

(آل عمران ٢٦ ، ٢٧)

« وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير » .

(الأنعام : ١٨)

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شىء عنده

بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات ، من بين يديه ومن خلفه ـ يحفظونه ـ من أمر الله . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له . وما لهم من دونه من وال . هو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا ، وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء . وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال . . . » .

(الرعد : ٨ ـ ١٣)

« يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب » . (الرعد : ٣٩)

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير » .

(الأنعام : ١٧)

« لله ملك السماوات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثًا ، ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا ، ويجعل من يشاء عقيمًا » .

(الشورى : ٤٩ ، ٥٠)

« الله يتوفى الأنفس حين موتها . والتى لم تمت فى منامها . فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » .

(الزمر : ٤٢)

« ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم . ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شىء عليم » .

(المجادلة : ٧)

واستقرار هذه الحقيقة فى ضمير الإنسان وفى حياته ، يتوقف عليه كل شىء فى أمر العقيدة . كما أنه هو الذى يمد الحياة البشرية بكافة المشاعر الأخلاقية . بواعثها وموازينها ، والسلطان القائم عليها (وسيأتى تفصيل ذلك عند الكلام عن حقيقة الألوهية فى القسم الثانى من هذا الكتاب) .

إن هذه الإيجابية فى علاقة الله ـ سبحانه ـ بخلائقه كلها ، هى مفرق الطريق بين العقيدة الجدية المؤثرة ، والعقيدة الصورية السلبية . وشمول هذه الإيجابية وتوحدها، هو مفرق الطريق كذلك ، بين التجمع فى الكينونة الإنسانية والنشاط الإنسانى ، والتمزق فى هذه الكينونة ونشاطها الحيوى .

وتصور الإنسان لإلهه ، وتعلق صفاته بالحياة الإنسانية ، هو الذى يحدد قيمة هذا الإله فى نفسه ، كما يحدد نوع استجابته لهذا الإله !

وفرق كبير بين الإنسان الذى يتصور أن إلهه لا يحفل به ، ولا يحس بوجوده ـ أو لا يعلم بوجوده أصلا كما يقول بعض الفلاسفة ! ـ والإنسان الذى يحس ويعلم أن الله هو خالقه ورازقه ، ومالك أمره كله فى الدنيا والآخرة . .

وفرق كذلك بين الذى يتعامل مع إلهين متنازعين ـ كما يقول الفرس ـ أو مع آلهة متفرقة كما تقول الوثنيات الأخرى ، والذى يتعامل مع إله واحد . له إرادة واحدة ، ومنهج واحد . يعلم عباده على وجه الضبط والتحديد ما يريده منهم فيرضى ، وما يكرهه منهم فيسخط !

وفرق كذلك بين الذى يتعامل مع إله شهوانى . متعجرف . ظالم . متهور . متقلب الأهواء كإله الإغريق ـ بزعمهم ـ : « زيوس » أو « جوبيتير » الذى كانوا يصورونه« حقودًا . لدودًا . مشغولا بشهوات الطعام والغرام . لا يبالى من شؤون الأرباب والمخلوقات ما يعينه على حفظ سلطانه ، والتمادى فى طغيانه . وكان يغضب على « اسقولاب » إله الطب ـ بزعمهم ـ لأنه يداوى المرضى ، فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية ! وكان يغضب على « برومثيوس » إله المعرفة والصناعة ـ بزعمهم ـ لأنه يعلّم « الإنسان » أن يستخدم النار فى الصناعة ، وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب . وقد حكم عليه بالعقاب الدائم ، فلم يقنع بموته ، ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهة ، بل تفنن فى اختراع ألوان العذاب له . فقيده إلى جبل سحيق ، وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار ، حتى إذا جن الليل عادت سليمة فى بدنه ، لتعود الجوارح إلى نهشها بعد مطلع الشمس ولا يزال هكذا دواليك فى العذاب الدائم مردود الشفاعة

مرفوض الدعاء »[1] . . . « وأنه كان يخادع زوجته « هيرة » ويرسل إله الغمام - بزعمهم - لمدارة الشمس فى مطلعها ، حذرًا من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النها ر، ومفاجأته بين عشيقاته على عرش « الأوليمب »[2] . .

فرق بين الذى يتعامل مع إله كهذا ويستمد منه أخلاقه ، والذى يتعامل مع « الله » العادل ، الكريم ، الرحيم الذى يكره الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وينهى عن السوء . ويحب التوابين ويحب المتطهرين . .

وأخيرًا . . فهناك فارق هائل بين الإنسان الذى يظن أن إلهه هو « الطبيعة » الخرساء الصماء ، التى لا تطالبه بعقيدة ولا شعيرة ، ولا منهج ولا نظام حياة ، ولا خلق ولا أدب ، ولا ضمير ولا سلوك . ولا تحس بوجوده أصلا . وليس لها هى إدراك ابتداء . ومن ثم فهى لا تحس ولا تعى ، ولا تدرى بخير أو شر . ولا تحاسب - من ثم - على خير أو شر . . والإنسان الذى يعرف أن إلهه « الله » الحى الذى لا يموت . الصمد المقصود فى الحاجات . الرقيب الذى لا يغفل . الحسيب الذى لا ينسى . العادل الذى لا يظلم . الرحيم الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . . إلى آخر صفات الله وأسمائه الحسنى . .

إن الأمر مختلف جدا . . ومن ثم هذه القيمة الكبرى لهذه الخاصية فى التصور الإسلامى . . ولقد عنى الإسلام عناية بالغة بتقرير هذه الحقيقة فى تصور المسلمين وتوكيدها . وتقرير « وجود » الله سبحانه فى حياتهم وتوسيعه وتعميقه . . وكانت حياة الجماعة المسلمة الأولى فى ظلال الوحى المتلاحق ، المتعلق بواقع حياتهم ، وبما يهجس كذلك فى ضمائرهم ، مثلاً حيًا ، وترجمة عملية ، لهذه الحقيقة . . فقد رأينا يد الله - سبحانه - تتدخل جهرة ، وعينه تلحظ ، وسمعه يرعى ، أحوالهم اليومية ، وأعمالهم الشخصية ، وحياتهم الفردية والجماعية .

لقد شهدنا العناية الإلهية تتدخل علانية فى شأن أسرة صغيرة فقيرة مغمورة لتقرر

---

(١) من كتاب : « حقائق الإسلام وإباطيل خصومه » للأستاذ العقاد ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) المصدر السابق .

حكم الله فى قضية بين امرأة وزوجها . حين لم يجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها رأيا :

« قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله . والله يسمع تحاوركما . إن الله سميع بصير . . . الخ » . (المجادلة : ١)

كما شهدناها فى شأن الرجل الأعمى الفقير ابن أم مكتوم ، مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الصورة الرائعة :

« عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تَصدّى ! وما عليك ألا يزّكى . وأما من جاءك يسعى وهو يخشى . فأنت عنه تلهّى ؟ كلا ! إنها تذكرة . فمن شاء ذكره » .

(عبس : ١ ـ ١٢)

وشهدنا هذا التدخل فى الأحداث الكبرى سواء بسواء :

شهدناه فى الهجرة . . حيث يقول الله تعالى :

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ، ثانى اثنين إذ هما فى الغار . إذ يقول لصاحبه لا تحزن . إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا . والله عزيز حكيم» .

(التوبة : ٤٠)

وشهدناه فى بدر . . حيث يقول الله تعالى :

« كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعد ما تبين ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم . وما النصر إلا من عند الله . إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاسَ أَمَنةً منه ، وينزل عليكم من السماء ماء

ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربطَ على قلوبكم ويثبتَ به الأقدام. إذا يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » .

(الأنفال : ٥ ـ ١٢)

وشهدناه فى « أحد » حيث يقول الله تعالى :

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر، وعصيتم من بعد ماأراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غما بغم ، لكى لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفةٌ قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ قل : إن الأمر كله لله . يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك . يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا . قل : لوكنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلى الله ما فى صدروكم ، وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور » .

(آل عمران : ١٥٢ ـ ١٥٤)

وشهدناه فى كل موقف من مواقف المسلمين الكبرى .

ولم يكن هذا التدخل الإيجابى وقفاً على هذه المجموعة من المسلمين . فهو شأن الله فى كل موقف ، وفى كل أمر ، وفى كل حال . . وقد كان منه ما كان فى شأن الرسل جميعاً ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مما قصه الله ـ سبحانه ـ على كل الجماعة المسلمة فى هذا القرآن . .

كان منه فى شأن موسى عليه السلام ، مع فرعون وملئه ، ما يصور هذا التدخل السافر المباشر :

« نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض

وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم . إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ، ونُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزناً ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ـ وهم لا يشعرون ـ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ، إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ؟ فرددناه إلى أمه ، كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

(القصص : ٢ ـ ١٣)

وكان منه فى شأن نوح عليه السلام :

« كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا وقالوا : مجنون ، وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً ، فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر » .

(القمر : ٩ ـ ١٤)

وكان منه فى شأن إبراهيم عليه وسلم :

« قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا : يا نارِ كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم . وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين ، ونجيناه ولوطًا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ، ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين »

(الأنبياء : ٦٨ ـ ٧٣)

كذلك شهدناه فى أمر الكون كله ، وفى شأن سائر الخلائق والأحياء فيه :

« إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده . إنه كان حليماً غفوراً » .

(فاطر : ٤١)

« ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

(النحل : ٧٩)

« وكأيِّ من دابة ، لا تحمل رزقها . الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم » .

(العنكبوت : ٦٠)

« أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون » . . . (إلى آخر الآيات) .

(الواقعة : ٦٣ ـ ٧٣)

« أولم يروا أنا تأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟ والله يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب » .

(الرعد : ٤١)

والقرآن كله معرض هذه « الإيجابية » وهى أساس التصور الإسلامى ـ بعد التوحيد ـ وهى التى تتجلى فيها حقيقة التوحيد . فالتوحيد الإسلامى يمتاز بأنه توحيد الفاعلية والتأثير وليس مجرد التوحيد السلبى الذى يصفه أرسطو ، أويصفه أفلوطين !

واستقرار هذه الحقيقة فى ضمير الجماعة المسلمة الأولى هو الذى أنشأ هذه المجموعة الفريدة الممتازة فى تاريخ البشرية كله على الإطلاق ، وبدون استثناء . فقد عاشوا هذه الحقيقة . عاشوها حية فى نفوسهم . عاشوها ليل نهار ، وصباح مساء . عاشوها كما يعيشون حياتهم اليومية الواقعة . عاشوا مع الله . يحسون وجوده فى نفوسهم وفى حياتهم أعمق من حس اللمس والرؤية . عاشوا فى كنفه وفى رعايته . وعاشوا تحت عينه وفى رقابته . والتمسوا يده ـ سبحانه ـ تتدخل تدخلا مباشراً فى

الصغير والكبير من أمورهم ، وتنقّل خطاهم ، وترقبها ، وترشدهم ، وتعقّب عليهم في الصغيرة وفى الكبيرة . . ومن ثم كانوا هذا الذى كانوا : من الحساسية والطمأنينة معاً . ومن اليقظة والراحة معاً . ومن التوكل والفاعلية معاً . ومن الخوف والطمع معاً . ومن التواضع والعزة معاً ـ التواضع لله والعزة بالله ـ ومن الخضوع والاستعلاء معاً ـ الخضوع لله والاستعلاء على أعداء الله ـ ومن ثم صنع الله بهم فى هذه الأرض ما صنع من الصلاح والعمار ، ومن الرفعة والطهارة ، مما لم يسبق ولم يلحق فى تاريخ بنى الإنسان . . . .

* * *

والصفحة الأخرى للإيجابية فى التصور الإسلامى . . هى إيجابية الإنسان فى الكون . وإيجابية المؤمن بهذه العقيدة فى واقع الحياة على وجه خاص .

إن هذا التصور ما يكاد يستقر فى الضمير ، حتى يتحرك ليحقق مدلوله فى صورة عملية ، وليترجم ذاته ، فى حالة واقعية . والمؤمن بهذا الدين ما يكاد الإيمان يستقر فى ضميره حتى يحس أنه قوة فاعلة مؤثرة . فاعلة فى ذات نفسه ، وفى الكون من حوله .

إن التصور الإسلامى ليس تصوراً سلبيا يعيش فى عالم الضمير . قانعاً بوجوده هناك فى صورة مثالية نظرية ! أو تصوفية روحانية ! إنما هو « تصميم » لواقع مطلوب إنشاؤه ، وفق هذا التصميم . وطالما هذا الواقع لم يوجد فلا قيمة لذلك التصميم فى ذاته ، إلا باعتباره حافزاً لا يهدأ لتحقيق ذاته .

هذا ما يثيره التصور الإسلامى فى شعور المسلم . . . ومن ثم يجد دائماً هاتفاً ملحا فى أعماقه ، يهيب به إلى تحقيق هذا التصور فى دنيا الواقع ، ويؤرقه ، حتى يهب للعمل ، ويفرغ طاقته الإيمانية كلها فى هذا العمل الإيجابى البناء . وفى إنشاء واقع تتمثل فيه هذه العقيدة فى حياة الناس .

وحيثما ذكر الإيمان فى القرآن أو ذكر المؤمنون ، ذكر العمل ، الذى هو الترجمة الواقعية للإيمان . فليس الأمر مجرد مشاعر . إنما هو مشاعر تُفرَّغ فى حركة ، لإنشاء واقع ، وفق « التصميم » الإسلامى للحياة ، أو وفق التصور الإسلامى للحياة . .

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ـ ثم لم يرتابوا ـ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . أولئك هم الصادقون » . (الحجرات : ١٥)

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعدخوفهم أمنًا . يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً . ومن كفر بعد ذلك ، فأولئك هم الفاسقون » . (النور : ٥٥)

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» .

(آل عمران : ١١٠)

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » . (آل عمران : ١٩٥)

«والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

(سورة العصر)

فليس هنالك إيمان هو مجرد مشاعر فى الوجدان ، أو تصورات فى الذهن ، لا ترجمة لها فى واقع الحياة . وليس هنالك إيمان هو مجرد شعائر تعبدية ، ليس معها عمل يكيف منهج الحياة كله ويخضعه لشريعة الله [١] .

ثم يحس المسلم ـ من وحى تصوره الإسلامى أنه ـ شخصيا ـ مطالب بأداء شهادة هذا الدين ، لا يستريح ضميره ، ولا يطمئن باله ، ولا يستشعر أنه أدّى حق نعمة الله عليه بالإسلام . وأنه يطمع ـ من ثم ـ فى النجاة من عذاب الله فى الدنيا والآخرة . . . إلا أن يؤدى هذه الشهادة كاملة ، بكل تكاليفها فى النفس والجهد والمال [٢] .

---

(١) تراجع خاصية الشمول : ص٩٥ ـ ١١٨ من هذا البحث

(٢) تراجع رسالة « شهادة الحق » للسيد أبى الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطًا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

(البقرة : ١٤٣)

« ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ » . (البقرة : ١٤٠)

وهو يؤدى هذه الشهادة . . أولاً . . فى ذات نفسه : بأن يطابق بين واقع حياته الشخصية ، فى كل جزئية من جزئيات نشاطه ، وبين مقتضيات التصور الذى يقوم عليه اعتقاده . فليست هنالك حركة واحدة من حركات حياته ، إلا وهو مطالب بأن يشهد فيها لهذا الدين . شهادة عملية . لا شهادة اللسان وحده ، ولا شهادة القلب معه كذلك . ولكن شهادة العمل المصدق للإيمان ، المجسَّم للعيان ، المنشئ لآثاره فى عالم الواقع وفى دنيا الناس

وهو يؤديها ـ ثانية ـ فى دعوة الآخرين إلى هذا المنهج ، وبيانه لهم . مسوقاً فى هذه الدعوة وهذا البيان بدوافع كثيرة أولها : دافع أداء الشهادة لينجو من الله ، وليؤدى حق نعمته عليه بهدايته إلى الإسلام . . وثانيها : حب الخير للناس ، وهدايتهم إلى هذا الخير الذى هُدِىَ هو إليه ، والذى لا يحتجنه لنفسه ، ولا لأسرته ، ولا لعشيرته ، ولا لقومه ، ولا لجنسه . لأنه يتعلم من هذا التصور ذاته أن البشر كلهم إخوة . . وثالثها : شعوره بأن تبعة ضلال الناس ـ إذ ا ضلوا ـ إنما تقع على عاتقه هو ، مالم يبين لهم ـ بعد ماعرف وتبين ـ وهى تبعة ثقيلة تنوء بضميره ، وتنوء بكاهله ، وقد علم أنها تبعة الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وأنه هو مستخلف فيها عن الرسل ، ومسئول عنها بعدهم .

« رسلاً مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . .

(النساء : ١٦٥)

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » .

(الإسراء : ١٥)

وهو يؤديها . . أخيراً . . بالعمل على تحقيق منهج الله فى حياة الناس ، وإقامة النظام الذى ينبثق من ذلك التصور ، وإقامة حياة الجماعة الإنسانية على أساس هذا النظام . باعتبار أن هذا التصور هو « تصميم » لعالم واقعى ، يراد إخراجه وتحقيقه ،

ليتحقق وجود الإسلام فى الأرض ، ولتخلص الألوهية لله ، إذ لا وجود للإسلام بدون قيام مجتمع يعيش بهذا النظام ، ويعترف لله وحده بالألوهية ، فلا يتلقى فى منهج حياته الأساسى إلا من الله . ثم ليستحق المسلمون نصر الله وتأييده الذى وعدهم إياه . وشرط له شرطاً واضحاً لا عوج فيه :

« ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

(الحج : ٤٠ ، ٤١)

وفى طبيعة التصور الإسلامى ذاته ما يحفز الإنسان لمحاولة الحركة الإيجابية ، لتحقيق هذا المنهج فى صورة واقعية . فالمسلم يعرف ـ من تصوره الإسلامى ـ أن «الإنسان » قوة إيجابية فاعلة فى هذه الأرض ، وأنه ليس عاملاً سلبيا فى نظامها فهو مخلوق ابتداء ليستخلف فيها . وهو مستخلف فيها ليحقق منهج الله فى صورته الواقعية : لينشئ ويعمر ، وليغيّر ويطوّر ، وليصلح ، وينمّى . وهو معانٌ على هذه الخلافة : معانٌ من الله سبحانه بجعل النواميس الكونية وطبيعة الكون الذى يعيش فيه معاوِنة له .

« وهو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألونه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذَّكَّرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا . وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون. وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون » .

(النحل : ١٠ـ١٦)

وهو مُعان من الله كذلك بما وهبه من القوى والاستعدادات الذاتية ، وهو يكلفه أمر الخلافة :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع

والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »

(النحل : ٧٨)

وشرط هذه الخلافة عند المسلم معروف :

« قلنا اهبطوا منها جمعياً . فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

(البقرة : ٣٨ ، ٣٩)

وشعوره بأنه مكلف بالعمل ، ومعانٌ عليه ، ينفى عنه الشعور بالسلبية فى نظام هذا الكون ـ سواء بالقياس إلى القوى الكونية ، أو بالقياس إلى قدر الله تعالى ـ فهنالك الاستعدادات الذاتية الموهوبة له ، وهناك تسخير القوى الكونية لمساعدته ، وهناك التوازن بين مشيئة الله المطلقة وحركة الإنسان الإيجابية . كما أسلفنا .

وانتفاء الشعور بالسلبية يهيئه للحركة والتأثير والفاعلية . غير أن الإسلام لا يكتفى بأن يدفع عن المسلم الشعور بالسلبية . بل هو يمده بدوافع الحركة الإيجابية كذلك . إذ يعلّمه أن قدر الله ينفذ فيه والأرض من حوله ، عن طريق حركته هو ذاته :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » . (الرعد : ١١)

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم» .

(التوبة : ١٤ ، ١٥)

« لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً » .

(الأحزاب : ٦٠)

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

(البقرة : ٢٥١)

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ليذيقهم بعض الذى عملوا ، لعلهم يرجعون » .

(الروم : ٤١)

كما يعلّمه أن الله لا يرضى منه بالشعور فى الضمير ، والكلمة على اللسان . ولا يدعه حتى يترجم ذلك فى حياته واقعاً ، يحاسبه عليه ، ويجازيه بحسبه . . . حتى الهدى من الله إنما يناله جزاء على الجهد فيه :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » .

(العنكبوت : ٦٩)

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » .

(آل عمران : ١٤٢)

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

(التوبة : ١٠٥)

بهذا كله يستشعر المسلم أن وجوده على الأرض ليس فلتة عابرة ، إنما هو قدر مقدور ، مرسوم له طريقه ووجهته وغاية وجوده . . . وأن وجوده على الأرض يقتضيه حركة وعملاً إيجابيا ، فى ذات نفسه . وفى الآخرين من حوله . وفى هذه الأرض التى هو مستخلف فيها ، وفى هذا الكون المحسوب حسابه فى تصميمه . . . وأنه لا يبلغ شكر نعمة الله عليه بالوجود ، ونعمة الله عليه بالإيمان ، ولا يطمع فى النجاة من حساب الله وعذابه ، إلا بأن يؤدى دوره الإيجابى فى خلافة الأرض ، وفق شرط الله ومنهجه ، وتطبيق هذا المنهج فى حياته وفى حياة غيره ، والجهاد لدفع الفساد عن هذه الأرض التى هو قيم عليها والفساد فى الأرض إنما ينشأ عن عدم تطبيق منهج الله فى عالم الواقع ، ودنيا الناس ، حياة الجماعات ـ وأن وزر هذا الفساد ـ حين يقع ـ واقع على عاتقه هو ، مالم يؤد الشهادة لله فى نفسه ، وفى غيره ، وفى الأرض كلها من حوله .

وتصوّرُ المسلم للأمر على هذا النحو ، لا جرم يرفع من قيمته فى نظر نفسه ، كما يرفع من اهتماماته . بقدر ما يشعره بضخامة التبعة الملقاة على عاتقه ، وبثقل العبء الذى يحمله ، ويكدح فيه حتى يلاقى الله ربه ، وقد أدى الأمانة ، وأدى الشهادة ، ووفى بحق النعمة ـ فيما يملك من الطاقة ـ وطمع فى النجاة من عذاب الله ، وزحزح عن النار . . .

* * *

الوَاقِعِيَّــــة

«قُلْ : سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولا ؟»

والخاصية السادسة من خواص التصور الإسلامى هى . . . الواقعية (١) . . .
فهو تصور يتعامل مع الحقائق الموضوعية ، ذات الوجود الحقيقى المستيقن ، والأثر الواقعى الإيجابى . لا مع تصورات عقلية مجردة ، ولا مع « مثاليات » لا مقابل لها فى عالم الواقع ، أو لا وجود لها فى عالم الواقع .

ثم إن « التصميم » الذى يضعه للحياة البشرية يحمل طابع الواقعية كذلك ، لأنه قابل للتحقيق الواقعى فى الحياة الإنسانية . . .

ولكنها فى الوقت ذاته واقعية مثالية ، أو مثالية واقعية ، لأنها تهدف إلى أرفع مستوى وأكمل نموذج ، تملك البشرية أن تصعد إليه . .

وسنحاول هنا شرح هذين المدلولين من مدلولات الواقعية، فى التصور الإسلامى :

* * *

إنه يتعامل مع الحقائق الموضوعية . ذات الوجود الحقيقى المستيقن ، والأثر الواقعى الإيجابى . .

يتعامل مع الحقيقة الإلهية ، متمثلة فى آثارها الإيجابية ، وفاعليتها الواقعية . . .

ويتعامل مع الحقيقة الكونية ، متمثلة فى مشاهدها المحسوسة ، المؤثرة . أو المتأثرة . . .

---

(١) نحن نستخدم هذا التعبير بمعناه الذى يعطيه لفظه العربى ، مجردًا من كل ما علق به من معنى اصطلاحى تاريخى فى البيئات الأخرى . . ونقصد به على الأخص : التحقق فى عالم الواقع . ومن مراجعة الفصل كله يزداد هذا المعنى جلاء وتحديدًا .

ويتعامل مع الحقيقة الإنسانية ، متمثلة فى الأناسى كما هم فى عالم الواقع . .

الإلّه الذى يتعامل معه هذا التصور هو « الله » المتفرد بالألوهية ، وبكل خصائص الألوهية . ولكن هذه الخصائص كلها من عالم الواقع ، ذات أثر فى عالم الواقع ، يمكن إدراك آثارها الواقعية ، ولا يضرب العقل البشرى فى التيه ليتمثلها على هواه ، فى سلسلة من القضايا المنطقية المجردة ـ على طريقة « الميتا فيزيقا » بصفة عامة ـ ولكنها تتمثل فى آثاره ـ سبحانه ـ فى هذا الكون . . فالألوهية وخصائصها واقعية الأثر فى هذا الكون . والإدراك البشرى يحال إلى هذه الآثار الواقعية ، ليرى فيها خصائص الألوهية ، ممثلة فى الصنعة الإلّهية :

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تُظهرون . يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرَجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلقُ السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفًا وطمعًا ، وينزل من السماء ماء ، فيحيى به الأرض بعد موتها، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ـ وهو أهون عليه ـ وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » .

(الروم : ١٧ ـ ٢٧)

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى . . ذلكم الله . . فأنى تؤفكون ؟ فالق الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسبانًا . . ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصَّلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من

السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرًا ، نخرج منه حبا متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن ـ وخلقهم ـ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السماوات والأرض ، أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم . . ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شىء ، فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .

(الأنعام : ٩٥ ـ ١٠٣)

« قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أم ما يشركون ؟ . أم من خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أم من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزًا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لايعلمون . أم من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكّرون . أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون . أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

(النمل : ٥٩ ـ ٦٤)

« فاطر السماوات والأر ض ، وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شىء . وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم » .

(الشورى : ١١ ـ ١٢)

« إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » .

(فاطر : ٤١)

وهكذا يتعامل التصور الإسلامي مع إله « موجود » ، يدل خلقه على وجوده ، «مريد» . « فعال لما يريد » تدل حركة هذا الكون وما يجرى فيه على إرادته وقدرته .

ومن ثم يفترق تصور الإله فى الإسلام افتراقاً رئيسيا عنه فى تصورات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين . حيث تتعامل تصوراتهم مع إله « مثالى » يفرضون هم عليه «مثالية» من صنع عقولهم ، ومن تصورات أحلامهم . وهو إله لا إرادة له ولا عمل . لأن هذا من مقتضى كماله أو مثاليته ! ثم يضطرهم هذا الافتراض إلى افتراض وسائط شتى بين الإله والخلائق ، وإلى تصورات وثنية وأسطورية كالتى كانت سائدة فى الوثنية الإغريقية :

« فالوجود فى مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان : طبقة العقل المطلق ، وطبقة المادة الأولية أو الهيولى « Hyle » والقدرة كلها من العقل المطلق ، والعجز كله من الهيولى . . وبين ذلك كائنات على درجات ، تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل ، وتسفل بمقدار ماتأخذ من الهيولى .

« وهذه الكائنات المتوسطة ، بعضها أرباب ، وبعضها أنصاف أرباب ، وبعضها نفوس بشرية . وقد ارتضى أفلاطون وجود تلك الأرباب المتوسطة ، ليعلل بها ما فى العالم من شر ونقص وألم ، فإن العقل المطلق كمال لا يحده الزمان والمكان ، ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة . فهذه الأرباب الوسطى هى التى تولت الخلق ، لتوسطها بين الإله القادر والهيولى العاجزة . . فجاء النقص والشر والألم من هذا التوسط بين الطرفين !!!» .

« وكل هذه المظاهر المادية بطلان وخداع ، لأنها تتغير وتتلون ، وتتراءى للحس على أشكال وأوضاع لاتصمد على حال » .

« وإنما الصمود والدوام للعقل المجرد دون غيره . وفى العقل المجرد تستقر الموجودات « الصحائح » أو المثل كما سميت فى الكتب العربية . وهى كالعقل المجرد خالدة دائمة . لا تقبل النقص ولا يعرض لها الفساد !!!»

« وهذه الصحائح هى المثل العليا لكل موجود يتلبس بالمادة أو الهيولى . فكل شجرة مثلاً فيها صفة أو صفات ناقصة من نعوت الشجرية . فأين هى الشجرة التى لانقص فيها ؟ هى فى عقل الله منذ القدم . وكل تلبس بالمادة من خصائص

الشجرية ، فهو محاكاة لذلك المثل الأعلى »[1] .

« والله عند أرسطو هو العلة الأولى ، أو المحرك الأول .

« فلابد لهذه المتحركات من محرك ، ولابد للمحرك من محرك آخر متقدم عليه . وهكذا حتى ينتهى العقل إلى محرك بذاته ، أو محرك لا يتحرك ، لأن العقل لا يقبل التسلسل فى الماضى إلى غير نهاية .

« وهذا المحرك الذى لا يتحرك لابد أن يكون سرمدًا ، لا أول له ولا آخر ، وأن يكون كاملاً منزها عن النقص والتركيب والتعدد ، وأن يكون مستغنياً بوجوده عن كل موجود .

« وهذا المحرك سابق للعالم فى وجوده ، سبق العلة لا سبق الزمان ، كما تسبق المقدمات نتائجها فى العقل ، ولكنها لاتسبقها فى الترتيب الزمنى . لأن الزمان حركة العالم ، فهو لا يسبقه . أو كما قال : « لا يُخلَق العالم فى زمان » .

« وعلى هذا يقول أرسطو بقدم العالم على سبيل الترجيح الذى يقارب اليقين . إلا أنه يقرر فى كتاب « الجدل » أن قِدَم العالم مسألة لاتثبت بالبرهان .

« و إجمال براهينه فى هذه القضية : أن إحداث العالم يستلزم تغييرًا فى إرادة الله . والله منزه عن الغير . فهو إذا أحدث العالم ، فإنما يحدثه ليبقى ـ جل جلاله ـ كما كان . أو يحدثه لما هو أفضل . أو يحدثه لما هو مفضول . وكل هذه الفروض بعيدة عما يتصوره أرسطو فى حق الله . فإذا حدث العالم وبقى الله كما كان ، فذلك عبث . والله منزه عن العبث . و إذا أحدثه ليصبح أفضل مما كان ، فلا محل للزيادة على كماله . و إذا أحدثه ليصبح مفضولاً ، فذلك نقص يتنزه عنه الكمال !

« و إذا كانت إرادة الله قديمة لا تتغير ، فوجود العالم ينبغى أن يكون قديماً كإرداة الله . لأن إرادة الله هى علة وجود العالم . وليست العلة مفتقرة إلى سبب خارج عنها ، فلا موجب إذن لتأخر المعلول عن علته ، أو لتأخر الموجودات عن سببها الذى لا سبب غيره .

« فالإنسان يجوز أن يريد اليوم شيئاً ثم يتأخر إنجازه ، لنقص الوسيلة ، أو لعارض طارئ ، أو لعدول عن الإرادة . وكل ذلك ممتنع فى حق الله !

---

(١) عن كتاب « الله » للأستاذ العقاد ص ١٣٧ .

« وقد أفرط أرسطو فى هذا القياس ، حتى قال : إن الله ـ جل وعلا ـ لا يعلم الموجودات ، لأنها أقل من أن يعلمها . وإنما يعقل الله أفضل المعقولات . وليس أفضل من ذاته ، فهو يعقل ذاته ، وهو العاقل والعقل والمعقول . وذلك أفضل ما يكون !!!»[1] .

« وقد بلغ أفلوطين غاية المدى فى تنزيه الله . فالله عنده فوق الأشباه ، وفوق الصفات ، ولا يمكن الإخبار عنه بمحمول يطابق ذلك الموضوع .

«بل هو عنده فوق الوجود !

« وليس معنى ذلك أنه غير موجود ، أو أنه عدم ـ لأن العدم دون الوجود وليس فوق الوجود ـ وإنما معناه أن حقيقة وجوده لا تقاس إلى الجواهر الموجودة ، ولا تدخل معها فى جنس واحد ، ولا تعريف واحد . فهو « أحد »[2] بغير نظير فى وجوده ، ولا فى صفاته ، ولا فى كل منسوب إليه .

« ويغلو أفلوطين أحياناً فيقول : إن الله لا يشعر بذاته . لأنه لا يميز ذاته من ذاته فيعرفها . ولكنه لصفاء وجوده يتنزه عن ذلك التمييز ، ويتنزه عن ذلك الشعور!!!»[3] .

وهكذا نجد فى هذه التصورات ، وهى أعلى ما وصل إليه الفكر البشرى فى تصور كمال الله وتنزيهه ـ إلهًا من « صنع » الفكر البشرى ! إلهاً لا وجود له فى عالم الحقيقة والواقع ! لأن صفاته وخصائصه منتزعة من فروض عقلية مجردة ، لا من النظر فى واقع الوجود ، وما يوحى به من صفات الخالق لهذا الوجود . ولا من الوحى الذى يصف الله ـ سبحانه ـ كما هو فى الحقيقة !

ومن ثم تشتط هذه التصورات فى « مثالية » لا رصيد لها من الواقع . لأنها لم تؤخذ من الواقع . إنما أخذت من التجريد العقلى . والفروض العقلية . وتنتهى هذه المثالية إلى نقص وعجز فى تصور الكمال الإلهى ـ كما نرى من المقتبسات السابقة ـ فى الوقت الذى تريد أن تبالغ فى تقرير هذا الكمال .

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

(٢) وهو ينفى عن إلهه الصفات . مبالغة فى « أحديته» لأن الصفة إضافة على الذات تخل بالأحدية!!

(٣) المصدر السابق ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

وحين تقاس هذه المحاولات إلى التصور الإسلامي ، يتبين معنى « الواقعية » التي تعنيها . فالحقيقة الإلهّية في التصور الإسلامي ، حقيقة فاعلة في هذا الوجود ، وتلتمس خصائصها وصفاتها في آثارها الواقعية في هذا الوجود . وهذا ما يفصله القرآن الكريم وهو يصف الحقيقة الإلهّية للناس ، وهو يعرّفهم بربهم تعريفاً يسيراً عميقاً واضحاً ، وهو يستشهد بواقع الكون وواقع الناس ، في منطق فطري واقعي جميل .

* * *

بمثل هذه الواقعية يواجه التصور الإسلامي الكون . . فهو يتعامل مع هذا الكون الواقعي الممثل في أجرام وأبعاد . وأشكال وأوضاع ، وحركات وآثار وقوى وطاقات . لامع الكون الذي هو « فكرة » مجردة عن الشكل والقالب . أو الكون الذي هو «إرادة» ممثلة في شكل وقالب . ولامع الكون الذي هو « هيولى » ومادة أولية غير مشكلة ، أو الكون الذي هو « صورة » أو « مثال » في العقل المطلق ! أو الكون الذي هو «الطبيعة » الخالقة ! التي تطبع الحقائق في العقل البشري ! ولامع الكون الذي هو عدم أو شبيه بالعدم . . إلى آخر هذه الأسماء ، التي ليس لها مدلول « واقعي » يتعامل معه « الإنسان » .

الكون هو هذا الخلق ذو الوجود الخارجي الذي يدركه الإنسان ، ويوجه إليه قلبه وعقله في القرآن . هو هذه السماوات والأرض . هذه النجوم والكواكب . . هذه الكائنات الميتة والحية . والظواهر الكونية هي هذه الحياة وهذا الموت . وهذا الليل وهذا النهار . وهذا النور وهذا الظلام . وهذا المطر والبرق والرعد . . وهذا الظل وهذا الحرور . وهذه الأحوال والأطوار ذات الوجود الحقيقي ، وذات الآثار الحقيقية .

وحين يوجه الإسلام الإدراك الإنساني إلى هذا الكون . . كدليل على وجود خالقه ووحدانيته ، وقدرته وإرادته ، وهيمنته وتدبيره ، وعلمه وتقديره . . . فإنه يوجهه إلى هذا الكون ذي الكينونة الواقعية ، والآثار الواقعية . . ولا يوجهه إلى كون هو « فكرة» مضمرة ، أو « إرادة » منفّذة ، ولا يوجهه إلى كون هو صورة في عقل الإلّه ، أو «هيولى» تعارض تلك الصورة ، أو تشوهها عندما تتلبس بها ! ولا يوجهه إلى كون هو

من صنع العقل ، أو إلى كون هو صانع العقل . . إلى آخر هذه التصورات البحتة التى تتعامل مع نفسها ، ولا تتعامل مع الواقع الكونى إطلاقا !

الكون فى التصور الإسلامى هو هذه الخلائق التى أبدعها الله ، وقال لها : كونى فكانت ، والتى نسقها الله بحيث لا تتعارض ولا تتصادم ، والتى هى خاضعة لله ، عابدة له ، مسخرة لأمره ، مؤدية لما أراده منها ، ولما سخرها له ، على أحسن وجه من الأداء :

« الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور . ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » .

(الأنعام : ١)

« إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، أفلا تذكرون ؟» . . . « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورًا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى اختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون » .

(يونس : ٣ ـ ٦)

« الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارًا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يُغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

(الرعد : ٢ ـ ٤)

« ولقد جعلنا فى السماء بروجًا وزيناها للناظرين » . . . « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له

برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ، وما أنتم له بخازنين . وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون » .

(الحجر : ١٦ ـ ٢٣)

« والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا » .

(النحل : ٨١)

« أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي . أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجًا سبلاً لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفاً محفوظًا ، وهم عن آياتها معرضون. وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون» .

(الأنبياء : ٣٠ ـ ٣٣)

« وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربَت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق . وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » .

(الحج : ٥ ـ ٧)

« ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ، والفلك تجرى فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ؟ إن الله بالناس لرؤوف رحيم . وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم . إن الإنسان لكفور » .

(الحج : ٦٥ ـ ٦٦)

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ، وما كنا عن الخلق غافلين ، وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنّاه فى الأرض ، وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات ونخيل وأعناب ، لكم فيها فواكه كثيرة ، ومنها تأكلون » .

(المؤمنون : ١٧ ـ ١٩)

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود . ومن الناس والدواب

والأنعام مختلف ألوانه ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » .

(فاطر : ٢٧ ـ ٢٨)

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج . والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركًا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقًا للعباد وأحيينا به بلدة ميتًا . كذلك الخروج » . .

(ق : ٦ ـ ١١)

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سماوات طباقًا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر . هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئًا ، وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجومًا للشياطين » .

(الملك : ١ ـ ٥)

« ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ؟ ولو شاء لجعله ساكنًا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسًا والنوم سباتًا ، وجعل النهار نشورًا . وهو الذى أرسل الرياح بشرًا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورًا . لنحيى به بلدة ميتًا ، ونسقيه مما خلقنا أنعامًا وأناسىّ كثيرًا » .

(الفرقان : ٤٥ ـ ٤٩)

وهكذا يتعامل التصور الإسلامى مع كون له وجود واقعى . يختلف بطبيعة الحال عن « وجود الله » سبحانه . ولكنه وجود له خصائص مدركه من واقع هذا العالم ، وليست منتزعة من تصورات ذهنية مجردة ، ولا من دعاوى يمليها الهوى من غير دليل !

وتتضح واقعية هذا الكون فى التصور الإسلامى ، حين نستعرض ـ على سبيل المثال ـ تصور « البراهمية » . واعتبارها أن الوجود الواحد هو وجود « براهما » ـ الإلّه الأعظم ـ أما هذا الكون المادى فهو « عدم » محض يقابل ذلك « الوجود » . . غير أن « الوجود » حلّ فى « العدم » ومن ثم وجد الشر فى العالم . لأن الوجود خير محض

وكمال محض . أما العدم ، فهو شر محض أو نقص محض . وخطة الإنسان للتخلص من الشر ـ وهو كل ما له جسم ـ تنحصر من هذا الجسم ، لكى يعود «الوجود » الذى فيه إلى وصفه المطلق . وينطلق من إسار هذا « العدم » الناقص الشرير الذى حل فيه ! .

كذلك تتضح واقعية الكون فى التصور الإسلامى ، حين نراجع تصور أفلاطون لهذا الوجود المادى . وأنه مجرد ظل لعالم المُثُل . فالشجرة التى تراها هى ظل لمثال الشجرة المكنون فى العقل المطلق ! وهو ناقص لا يمثل كمال المثال الذى هو فى عقل الإله و « النفس الكلية » ـ التى هى من عالم المثل ـ هى الصلة بين الأشياء « المثالية » كما هى فى العقل المطلق ، والأشياء الصورية ظلال المثل ـ غير الحقيقية ـ التى هى فى عالم المادة ، الذى نلمسه ونراه !

وأفلوطين ـ كما تقدم ـ يرى أن هناك « الأحد » وهو الإله . وقد صدر عنه «العقل» وعن العقل صدرت الروح أو « النفس الكلية » وهذه أوجدت العالم المحسوس نيابة عن العقل ! ـ وهذا العالم المحسوس أصله المادة . وهى أحط الموجودات . وهى « ظلام » ! وهى شر وفساد !

. . . إلخ . . . إلخ .

وحين توازن هذه التصورات المنتزعة من لا شيء ! إلا من خيالات العقل البشرى وتأويلاته ، دون تلبس بواقعيات هذا الكون وحقائقه الموضوعية . . حين توازن هذه التصورات بالتصور الإسلامى ، كما تمثله تلك النصوص القرآنية التى سردناها ـ ووراءها فى القرآن كثير ـ يتبين معنى « الواقعية » الذى نعنيه فى التصور الإسلامى .

* * *

كذلك يتعامل التصور الإسلامى مع الإنسان . . مع هذا الإنسان الواقعى ، الممثل فى هؤلاء البشر كما هم ، بحقيقتهم الموجودة ! . مع هذا الإنسان ذى التركيب الخاص ، والكينونة الخاصة . الإنسان من لحم ودم وأعصاب . وعقل ونفس وروح ، الإنسان ذى النوازع والأشواق ، والرغائب والضرورات . الإنسان الذى يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . ويحيا ويموت . ويبدأ وينتهى . ويؤثر ويتأثر .

ويحب ويكره . ويرجو ويخاف . ويطمع وييأس . ويعلو وينحط . ويؤمن ويكفر. ويهتدى ويضل . ويعمر الأرض أو يفسد فيها ويقتل الحرث والنسل . . . إلى آخر سمات الإنسان الواقعى ، وصفاته المميزة :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبًا » .

(النساء : ١)

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

(الحجرات : ١٣)

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون» .

(يس : ٣٦)

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظامًا ، فكسونا العظام لحمًا . ثم أنشأناه خلقًا آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين » .

(المؤمنون : ١٢ ـ ١٤)

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا . إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا » .

(الإنسان : ١ ـ ٣)

« قتل الإنسان ! ما أكفره ! من أى شىء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره » .

(عبسى : ١٧ ـ ٢٢)

« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائمًا . فلما كشفنا عنه ضره مرّ

كأن لم يدعنا إلى ضر مسه . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » .

(يونس : ١٢)

« وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا . قل الله أسرع مكرًا . إن رسلنا يكتبون ما تمكرون » .

(يونس : ٢١)

« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ، ثم نزعناها ، إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ، ليقولن : ذهب السيئات عنى . إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

(هود : ٩ ـ ١١)

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » . . . « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رؤوف بالعباد » . . .

(البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٧)

وهكذا يتعامل التصور الإسلامى مع « الإنسان » الذى هو كائن واقعى ، له خصائصه ، وله مشخصاته وله فاعليته وله انفعاله ، وله تأثره وله تأثيراته . . لا مع معنى مجر د ، أو فرض من الفروض لا رصيد له من الواقع .

إنه لا يتعامل مع « الإنسانية » كمعنى مجرد ، ولا يتخذها إلهًا يتوجه إليه بالعبادة[1] بينما هذا المعنى المجرد لا وجود له ، أو لا ضابط له ، فى عالم الواقع . . . ولا يتعامل مع « العقل المطلق »[2] . ككائن مشخص ، لأن العقل المطلق ليست له كينونة واقعية . إنما هناك العقل المفرد ، فى كل فرد على حدة . ومن ثم فليس هو الذى يخلق الكون أو يخلق الروح[3] .

إنه يختلف عن « المثالية العقلية » التى تتعامل مع مقولات عقلية بحتة ، لا صلة لها بالموجودات المؤثرة والمتأثرة فى الكون والحياة .

---

(١) كما يرى فيرباخ من فلاسفة المذهب الوضع

(٢) كما يرى نتشه من فلاسفة المثالية العقلية .

(٣) كما يرى أفلوطين زعيم الأفلاطونية الحديثة

وفى الوقت نفسه يفترق عن « الوضعية الحسية » التى تتخذ من الطبيعة إلها يخلق العقل ! ويخلق المدركات العقلية ! فالله ـ فى التصور الإسلامى ـ هو خالق « الطبيعة» وخالق « الإنسان » ! والعقل الإنسانى يدرك نواميس الطبيعة ، ويتعلم قوانينها ، ويتعرف إلى طاقاتها ومدخراتها ، ويؤثر فيها تأثيرًا إيجابيا ، ويتأثر بها تأثرًا حسيا وعقليا . . فى توازن واعتدال .

وكأنما كان الإسلام ـ بل هو كان ـ ينظر من وراء القرون إلى هذه اللوثات التى ستصيب البشرية ، على أيدى « الفلاسفة » و« المفكرين » المحدثين . . . من « مثالية عقلية » إلى « وضعية حسية » إلى « مادية جدلية » . . . فصاغ تصوره فى هذا التوازن العجيب . الشامل المتكامل . ليستقر منه الضمير البشرى على قرار ثابت . وليعود إليه الإدراك الفصل . ويجد عنده الهدى والنور فى متاهات العقول والأهواء ؟

وصدق الله العظيم :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » (الإسراء : ٩)

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحًا ، وقال : إننى من المسلمين».

(فصلت : ٣٣)

* * *

فأما المدلول الثانى للواقعية فى التصور الإسلامى ، فيتعلق بطبيعة المنهج الذى يقدمه للحياة البشرية . وواقعية هذا المنهج ، مع طبيعة الإنسان ، وطبيعة الظروف التى تحيط بحياته فى الكون ، ومدى طاقاته الواقعية الحقيقية :

إن « الإنسان » ـ فى التصور الإسلامى ـ هو هذا « الإنسان » الذى نعهده . هذا الإنسان بقوته وضعفه . بنوازعه وأشواقه . بلحمه ودمه وأعصابه ، بجسمه وعقله وروحه . . . إنه ليس الإنسان كما يريده خيال جامح ، أو كما يتمناه حلم سابح مع قضايا ذهنية من قضايا المنطق الشكلى ! كما أنه ليس الإنسان الذى يضعه المنطق الوضعى فى أسفل سافلين ، ويجعله مخلوقًا من مخلوقات هذه « المادة » الصماء ! أو من مخلوقات « الاقتصاد » !

إنه الإنسان الذى خلقه الله ليستخلفه فى هذه الأرض ، فيقوم فيها بالخلافة

الحركية الإيجابية ، التى تنشئ وتبدع فى عالم المادة ما يتم به قدر الله فى الأرض والأحياء والناس .

إنه الإنسان « الواقعى » كما أسلفنا . ومن ثم فإن المنهج الذى يرسمه له الإسلام منهج واقعى كذلك . منهج حركى . تنطبق حدوده على حدود طاقات الإنسان ، وتكوينه وواقعية لحمه ودمه وأعصابه ، وجسمه وعقله وروحه . الممتزجة فى ذلك الكيان .

والمنهج الإسلامى للحياة ـ على كل رفعته ونظافته وربانيته ومثاليته ـ هو فى الوقت ذاته منهج لهذا الإنسان ـ فى حدود طاقاته الواقعية ـ ونظام لحياة هذا الكائن البشرى الذى يعيش على هذه الأرض . ويأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، ويتزوج ويتناسل ويحب ويكره ، ويرجو ويخاف ، ويزاول كل خصائص الإنسان الواقعى كما خلقه الله .

وهو يأخذ فى اعتباره فطرة هذا الإنسان ، وطاقاته واستعداداته ، وفضائله ورذائله وقوته وضعفه . . . فلا يسوء ظنه بهذا الكائن ، ولا يحتقر دوره فى الأرض ، ولا يهدر قيمته فى صورة ما من صور حياته . كما أنه لا يرفع هذا الإنسان إلى مقام الألوهية ، ولا يخلع عليه شيئًا من خصائصها . كذلك لا يتصوره ملكاً نورانياً شفيفاً لا يتلبس بمقتضيات التكوين المادى ، ومن ثم لا يستقذر دوافع فطرته ومقتضيات هذا التكوين الفطرى .

ومع اعتبار المنهج الإسلامى لإنسانية الإنسان من جميع الوجوه فهو وحده الذى يملك أن يصل به إلى أرفع مستوى ، وأكمل وضع ، يبلغ إليه الإنسان ، فى أى زمان وفى أى مكان .

وليس هنا مكان تفصيل هذه الحقيقة . فسيجيء موضعها فى القسم الثانى من هذا البحث عند الكلام عن حقيقة الإنسان . . فنكتفى هنا بهذا القدر . لنخلص منه إلى بعض النصوص ، التى تصور واقعية المنهج الإسلامى ، وانطباقها على واقعية الكائن الإنسانى ، مع الهتاف له دائماً بالرفعة والطهارة ، وبلوغ أقصى كماله المقدر له فى حدود فطرته .

« وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل إليه

ملك ، فيكون معه نذيرًا ! أو يلقى إليه كنز ! أو تكون له جنة يأكل منها ؟ وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورًا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ، فلايستطيعون سبيلا . تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرًا من ذلك : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورًا » .

(الفرقان : ٧ ـ ١٠)

« وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب . فتفجر الأنهار خلالها تفجيرًا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً . أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف . أو ترقى فى السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ! قل : سبحان ربى ! هل كنت إلا بشرًا رسولا ؟ » .

(الإسراء : ٩٠ ـ ٩٣)

« لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . .

(البقرة : ٢٨٦)

« ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى . فاعتزلوا النساء فى المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله ، واعلموا أنكم ملاقوه ، وبشر المؤمنين » .

(البقرة : ٢٢٢ ـ ٢٢٣)

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

(البقرة : ٢١٦)

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة : والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى

من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهره ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد » .

(آل عمران : ١٤ ـ ١٥)

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ـ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون : أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين » .

(آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٦)

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم . فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن الله كان عليا كبيرا » .

(النساء : ٣٤)

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا : ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيراً . الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » .

(النساء : ٧٤ ـ ٧٦)

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » .

(المائدة : ٨)

« يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، إنه

لايحب المسرفين . قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل: هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل : إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانًا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » .
(الأعراف : ٣١ـ٣٣)

وكلما مضينا هكذا مع النصوص القرآنية التى تقرر تكاليف الحياة الإسلامية ، وتضع حدود المنهج الإسلامى للحياة ، لاحظنا « الواقعية » فى هذا المنهج وانطباقها على واقعية الفطرة الإنسانية ، وحدود طاقاتها الموهوبة لها ، وحدود الاستعدادات المهيأة للعمل والنشاط . بحيث لا تكبت طاقة واحدة ، ولا تكف عن العمل ، وبحيث لا تكلف كذلك أكبر من وسعها ، ولا تكلف ماليس من طبعها وفطرتها .

وتتجلى هذه الواقعية بوضوح حين ننظر مثلا فيما تتطلبه العقيدة البراهمية من معتنقيها وحين نراها تطلب إليهم الكف عن كل ما ينمى أو يصون تكوينهم الجسدى ، وذلك كى تسارع أرواحهم فى الانطلاق من قيد الجسد ، والخلاص من هذا « العدم » المظلم الناقص الشرير ، والعودة إلى « الوجود » الكامل الخير المنير !

كذلك حين ننظر إلى التصورات الكنسية التى اصطبغت بها النصرانية ، ونراها تعامل التكوين الإنسانى ـ المؤلف من المادة والروح ـ فى حالة ازدواج مركب كامل ـ كما لو كان غلطة منكرة ! يجب التخلص منها ، والتطلع إلى هذا الخلاص فى انفصال عالم الروح عن عالم الجسد ، وفى استقذار كل ماهو جسدى على الإطلاق . فضلا على تكليف الإنسان ما لا يطاق . . على سبيل المثال ، معاشرة زوجة لا يطيق عشرتها . أو الانفصال عنها ـ دون طلاق ـ مع عدم معاشرة زوجة أخرى بعدها ! . . وغير هذا كثير فى التصورات الكنسية ، التى تصادم فطرة الإنسان وتكوينه الواقعى !

* * *

إن الإسلام دين للواقع . دين للحياة . دين للحركة . دين للعمل والنتاج والنماء دين تطابق تكاليفه للإنسان فطرة هذا الإنسان . بحيث تعمل جميع الطاقات الإنسانية عملها الذى خلقت من أجله . وفى الوقت ذاته يبلغ الإنسان أقصى كماله

الإنسانى المقدر له ، عن طريق العمل والحركة ، وتلبية الطاقات والأشواق ، لا كبتها أو كفها عن العمل ، ولا إهدار قيمتها واستقذار دوافعها . .

ومن ثم تتحقق صفة « الواقعية » للمنهج الإسلامى الموضوع للحياة البشرية ، تحققها للتصور الإسلامى ذاته عن الله والكون والحياة والإنسان . ويتطابق التصور الاعتقادى والنهج العملى فى هذا الدين تطابقاً لا تفاوت فيه .

ومن ثم ينطلق الإنسان بكل طاقاته ، يعمّر فى هذه الأرض ويغير ، وينمى فى موجوداتها ويطوّر ، ويبدع فى عالم المادة ماشاء الله له أن يبدع . لا يقف فى وجهه حاجز من التصور الاعتقادى ، ولا من المنهج العملى . فكلاهما « واقعى » مطابق لواقعية الكينونة الإنسانية وللظروف الحقيقية المحيطة بها فى هذا الكون من حولها . وكلاهما صادر من الجهة التى صدر عنها الإنسان ، والتى زودته بطاقاته واستعداداته .

ومن ثم يتسنى للإنسان ، المؤمن بهذه العقيدة ، المدرك لحقيقة التصور الإسلامى ، وللمنهج الإسلامى المنبثق منه ، أن ينشئ من الآثار الواقعية فى هذه الأرض ، وأن يحقق من الإبداع المادى فيها ، وفاق ما ينشئه من الصلاح الأخلاقى ، وكفاء ما يحققه من الرفعة والتطهر . فى تناسق وتوازن وشمول و إيجابية وواقعية :

« فطرة الله التى فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

(الروم : ٣٠)

التوحيد

« ومَا أرسَلنَا من قَبْلكَ من رَسُولٍ إلاَّ نوحيَ
إليه أنّهُ لا إلٰهَ إلاَّ أنا فاعْبُدُونِ »

التوحيد هو المقوّم الأول للتصور الإسلامى ، بما أنه هو الحقيقة الأساسية فى العقيدة الإسلامية ، ولكنه كذلك هو إحدى خصائص هذا التصور ، بما أن التصور الإسلامى يتفرد بهذه الصورة الخالصة من التوحيد ، من بين سائر التصورات الاعتقادية والفلسفية السائدة فى الأرض جميعاً . . وبهذا الاعتبار نتحدث هنا عن « التوحيد » ضمن « خصائص التصور الإسلامى » كما سنتحدث عنه فى القسم الثانى من هذا البحث ، ضمن « مقومات التصور الإسلامى » . .

نتحدث عنه هنا ضمن الخصائص ، لنبين نوع تفرد التصور الإسلامى بهذه الخاصية ، من بين سائر التصورات الاعتقادية والفلسفية السائدة فى جنبات الأرض .

ونبادر فنقرر أن « التوحيد » كان هو « الخاصية » البارزة فى كل دين جاء به من عند الله رسول . كما أنه كان « المقوّم الأول » فى دين الله كله . . وأن « الإسلام » ـ على إطلاقه ـ كان هو الدين الذى جاء به كل رسول . بما أن الدين هو إسلام الوجه لله وحده ، واتباع منهج الله ـ وحده ـ فى كل شؤون الحياة ، والتلقى من الله ـ وحده ـ فى هذه الشؤون كلها ، والعبودية لله وحده بطاعة منهجه وشريعته ونظامه ، والعبادة لله وحده سواء فى الشعائر التعبدية أو فى نظام الحياة الواقعية . . ولكن التحريفات والانحرافات التى وقعت فى تصورات أتباع الرسل ، إلى جانب طغيان الجاهليات على الديانات ، لم تبق فى الأرض كلها من تصور دينى صحيح ، إلا التصور الذى جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحفظ الله أصوله ، فلم تمتد إليها يد

التحريف ، ولم تطمسها كذلك الجاهليات التى طغت على حياة الناس . . ومن ثم أصبح « التوحيد » خاصية من خصائص هذا الدين .

هنالك اعتبار آخر يجعل من حقنا أن نقرر هذه الحقيقة . . حقيقة أن التوحيد خاصية لهذا التصور . وهو المساحة التى تشملها حقيقة التوحيد فى العقيدة الإسلامية ، والجوانب التى تمتد إليها فى هذا التصور ، وفيما يقوم على هذا التصور من مشاعر وأخلاق وسلوك وتنظيم لجوانب الحياة الواقعية . . فقد امتدت هذه الحقيقة إلى تصور المسلم للكون كله ، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فيه ، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فى حياته هو بحذافيرها . كما امتدت إلى تنظيم جوانب الحياة الإنسانية كلها : خافيها وظاهرها . صغيرها وكبيرها . حقيرها وجليلها . شعائرها وشرائعها . اعتقاديها وعمليها . فرديها وجماعيها . دنيويها وأخرويها . . بحيث لاتفلت ذرة واحدة منها من عقيدة التوحيد الشاملة . . كما سبق أن بينا فى خاصية « الشمول» . . وكما سنبين بالتفصيل فى القسم الثانى من هذا البحث عند الكلام عن « حقيقة الألوهية » .

* * *

يقوم التصور الإسلامى على أساس أن هناك ألوهية وعبودية . . ألوهية يتفرد بها الله سبحانه . وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه . . وكما يتفرد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية ، كذلك « يتفرد » ـ تبعا لهذا ـ بكل خصائص الألوهية . . وكما يشترك كل حى وكل شىء ـ بعد ذلك ـ فى العبودية ، كذلك يتجرد كل حى وكل شىء من خصائص الألوهية . . فهناك إذن وجودان متميزان . وجود الله ووجود ما عداه من عبيد الله . والعلاقة بين الوجودين هى علاقة الخالق بالمخلوق ، والإله بالعبيد . .

هذه هى القاعدة الأولى فى التصور الإسلامى . . ومنها تنبثق وعليها تقوم سائر القواعد الأخرى . . . وقيام التصور الإسلامى على هذه القاعدة الأساسية هو الذى يجعلها إحدى خصائصه كما أسلفنا .

ولقد سبق القول بأن « التوحيد » كان هو قاعدة كل ديانة جاء بها من عند الله

رسول . والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة ، ويؤكدها ، ويكررها فى قصة كل رسول ، كما يقررها إجمالا على وجه القطع واليقين :

« لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .

(الأعراف : ٥٩)

« وإلى عاد أخاهم هودًا . قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره أفلا تتقون؟» .

(الأعراف : ٦٥)

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً . قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم . . . » .

(الأعراف : ٧٣)

« وإلى مدين أخاهم شعيباً . قال : ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم . . . » .

(الأعراف : ٨٥)

« وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا ، فقال لأهله : امكثوا إنى آنست نارًا ، لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى : يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » .

(طه : ٩ ـ ١٤)

« وإذ قال الله : يا عيسى ابن مريم . أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ! مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته . تعلم ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك . إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به . أن اعبدوا الله ربى وربكم . وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم . فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

(المائدة : ١١٦ ـ ١١٨)

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ، إلا نوحى إليه : أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون » .
(الأنبياء : ٢٥)

ولكن هذا التوحيد الذى جاء به الرسل جميعًا ، حرف ودخلت فيه الأساطير فى شتى المعتقدات . سواء فى الديانات التى تنسب إلى السماء ، أو فى الوثنيات التى اختلطت فيها بقايا الديانات السماوية بالأساطير فى شتى الأزمان . والتى ذكرنا طرفًا منها فى فصل « تيه وركام » . . وأطرافاً أخرى فى بعض الفصول السابقة من هذا البحث .

* * *

ولكى ندرك حقيقة أن التوحيد خاصية من خصائص التصور الإسلامى ـ وقبل أن نعرض المساحة التى تشغلها حقيقة التوحيد فى هذا التصور ـ يحسن أن نلم ببعض التصورات الأخرى فيما يختص بتصور الألوهية والعبودية . . . وبخاصة بعض التصورات التى اشتملت على تصور وجودين متميزين ، أو على نوع من التوحيد للإلّه :

الهندوكية مثلا اعترفت بواحد هو وحده « الموجود » وهو « براهما » وجعلت من صفاته : التفرد بالكمال ، والتفرد بالخير ، والتفرد بالدوام ، والتفرد بالأزلية . .

وجعلت ما عدا هذا الواحد الموجود « عدما » لا وجود له . . فهذه الأكوان وما فيها عدم !

ولكنها من جانب آخر جعلت « الوجود » الذى هو الخير والكمال يحل فى «العدم» الذى هو الشر والنقص . . فبراهما حالٌ فى كل جزء من أجزاء هذا العالم ـ الذى هو عدم ـ فكل جزء من أجزاء هذا العالم ـ بما فى ذلك الإنسان ـ مؤلف إذن من وجود وعدم . من خير وشر . من كمال ونقص . من بقاء وفناء !

ومهمة الهندوكى المؤمن إذن هى المحاولة المستمرة لتخليص الوجود والخير والكمال والبقاء الذى فى كيانه ، من العدم والشر والنقص والفناء ، « ليصير » براهما . . ومن هنا حرصه على إفناء جسمه ـ الذى هو العدم ـ لينطلق « الوجود » الحالّ فيه ، ويصبح طليقًا . . وهذه هى درجة « النرفانا » وهى تمثل الخلاص والعودة «براهما » !

ومع ذلك فقد شاب هذا التوحيد ـ على ما به من حلول ـ شائبة من «التثليث» . . إذ اعتبر « براهما » صورة من صور ثلاث للإله الواحد : الإله « براهما » فى صورة الخالق . والإله « فشنو » فى صورة الحافظ . والإله « سيفا » فى صورة الهادم .

ثم جعلوا « الكارما » هى « القدر » الغالب على الآلهة وعلى الأفلاك . وهو الذى يكرر على العالم دورات الخلق والفناء . . فلم تسلم عقيدة التوحيد حتى فى صورتها تلك المليئة بالإحالات !

واشتملت ديانة أخناتون على لون من التوحيد . إذ وصف أخناتون إلهه « أتون » بأوصاف الوحدانية ، والفاعلية ، ومنها خلق هذا الكون وحفظه وتدبيره . وكان هذا أعلى تصور عرفته البشرية فى غير الديانات السماوية ـ وإن كان ينبغى ألا تغفل أثر الديانات السماوية فى عقيدة أخناتون هذه ـ ولكن مع ذلك شابتها شائبة من عقائد الوثنية . إذ جعل هذه الشمس المادية رمزًا لإلهه ، وجعل اسمها مرادفا لاسمه . فاختلطت عقيدة التوحيد بهذا الأثر الوثنى الغريب !

وفرق أرسطو بين إله « واجب الوجود » وكون « ممكن الوجود » . . غير أنه جعل إلهه هذا الواحد ، سلبيا تجاه الكون . فهو أولا لم يخلق الكون . ولا علاقة له بتدبيره . إنما هذا الكون يتحرك بشوق كامن فيه إلى واجب الوجود ، تقل من حالة « مكان الوجود » إلى حالة « الوجود » .

وكان التوحيد ديانة إبراهيم عليه السلام ، ووصى به إسماعيل وإسحاق . وكان يعقوب ابن إسحاق يدين بالتوحيد ، ووصى به بنيه كذلك فى ساعة موته ، كما يحكى ذلك القرآن الكريم :

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه : أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ : يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . إذ قال لبنيه : ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ـ إلها واحدًا ـ

ونحن له مسلمون » . (البقرة : ١٣٠ ـ ١٣٣)

فلما جاء موسى رسولا لبنى إسرائيل جاء بالتوحيد ـ وما تزال اليهودية تعتبر ديانة توحيد ـ إلا أن بنى إسرائيل من قبل موسى ومن بعده ، شوهوا هذا التوحيد ، وحرفوا الكلم عن مواضعه . فجعلوا إلهًا خاصا لبنى إسرائيل وحدوه . ولكنهم جعلوه إلها قوميا ينصرهم على أصحاب الآلهة الآخرين ! وذلك فوق ما افتروا على « إله إسرائيل» ذاته فقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه . وهو لا يعذبنا بذنوبنا ، وقالوا : « عزير ابن الله » وقالوا عنه : إن له أبناء تزاوجوا مع بنات الناس فولدوا العمالقة ، الذين خاف الإله منهم أن يصبحوا آلهة مثله ، فنزل وبلبل ألسنتهم ! وقالوا : إن يعقوب صارع هذا الإله مرة ، وضربه فخلع حقوه ! وقالوا عنه : إنه يتمشى فى ظلال الحديقة ويتبرد بهوائها ، وقالوا عنه : إنه يحب ريح الشواء . . . إلى آخر هذه الأساطير التى شوهت وطمست عقيدة التوحيد .

وجاء عيسى عليه السلام بالتوحيد . . ثم انتهت عقائد النصارى إلى التثليث ، الذى يحاولون أن يصفوه بالتوحيد ، بين الأقاليم الثلاثة : الأب ، والابن ، والروح القدس . مع الاختلاف على طبيعة الأقنوم الابن ومشيئته . . مما يجعل « التوحيد » فى هذه الديانة ، كما تفرقت بها الطوائف ، دعوى لا حقيقة لها من واقع التصورات المتنوعة للكنائس المتعددة[1] . .

* * *

وهكذا نستطيع أن نقول باطمئنان : إن التصور الإسلامى هو التصور الوحيد الذى بقى قائمًا على أساس التوحيد الكامل الخالص . وإن التوحيد خاصية من خصائص هذا التصور ، تفرده وتميزه من بين سائر المعتقدات السائدة فى الأرض كلها على العموم .

والآن ـ بعد هذا البيان ـ نستطيع أن نبين ـ فى اختصار ـ طبيعة وحدود هذا التوحيد .

تقرر العقيدة الإسلامية ـ كما تقدم ـ أن هناك ألوهية وعبودية . ألوهية يتفرد بها الله ـ سبحانه ـ ويشترك فيها كل حى وكل شىء . كما تقرر تفرد الله ـ سبحانه ـ

---

(١) يراجع فصل تيه وركام من هذا البحث .

بخصائص الألوهية ، وتجرد العبيد من هذه الخصائص . . ومن ثم ترتب على هذا التصور كل مقتضياته وكل نتائجه فى الحياة الإنسانية . .

فالله ـ سبحانه ـ واحد فى ذاته ، متفرد فى كل خصائصه .

« قل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ، ولم يولد . ولم يكن له كفوًا أحد » .

(سورة الإخلاص)

« ليس كمثله شىء » (الشورى : ١١)

« فلا تضربوا لله الأمثال » . (النحل : ٧٤)

والله ـ سبحانه ـ خالق كل شىء :

« ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء . فاعبدوه . وهو على كل شىء وكيل » .

(الأنعام : ١٠٢)

« وخلق كل شىء فقدره تقديرًا » . (الفرقان : ٢)

« قل : أرأيتم ما تدعون من دون الله . أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السماوات ! ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » .

(الأحقاف : ٤)

والله ـ سبحانه ـ هو مالك كل شىء :

« قل : لمن ما فى السماوات والأرض ؟ قل لله » . (لأنعام : ١٢)

« ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما » . (المائدة : ١٧)

« الذى له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك فى الملك » .

(الفرقان : ٢)

والله ـ سبحانه ـ هو الرازق لكل من خلق وكل ما خلق :

« يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم . هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون ؟ » .

(فاطر : ٣)

« وكأى من دابة لا تحمل رزقها . الله يرزقها وإياكم » .

(العنكبوت : ٦٠)

« وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها » .

(هود : ٦)

والله ـ سبحانه ـ هو مدبر كل شىء ، ومصرف كل شىء ، وحافظ كل شىء :

«إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » . (فاطر : ٤١)

« ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره » . (الروم : ٢٥)

« وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » . (يس : ١٢)

والله ـ سبحانه ـ هو صاحب السلطان المسيطر القاهر على كل شىء :

« وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » .

(الأنعام : ٦١ ـ ٦٢)

« قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض » . (الأنعام : ٦٥)

« قل : أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به » ؟ (الأنعام : ٤٦)

وكل خلائق الله ـ سبحانه ـ تقر له بالعبودية والطاعة والقنوت :

« . . . ثم استوى إلى السماء وهى دخان . فقال لها وللأرض : ائتيا طوعًا أو كرهًا . قالتا أتينا طائعين » . (فصلت : ١١)

« ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره . ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السماوات والأرض . كل له قانتون » .

(الروم : ٢٥ ـ ٢٦)

« ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون» .

(النحل : ٤٩)

« وإن من شىء إلا يسبح بحمده » . (الإسراء : ٤٤)

❋ ❋ ❋

ونكتفى بهذا القدر من مجالات التوحيد فى التصور الإسلامى ، حيث يتبين منها إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية ، وتقرير عبودية كل من عدا الله وكل ما عداه لألوهيته . وقيام العلاقات بين الخلق والخالق على أساس العبودية وحدها . لا على أساس نسب ولا صهر . ولا مشاركة ولا مشابهة ، فى ذات ولا فى صفة ولا فى اختصاص . . . وهذا القدر يكفى فى بيان أن التوحيد خاصية من خصائص التصور الإسلامى . وهى الحقيقة التى نريد تقريرها فى هذا القسم الأول من البحث . أما تفصيل هذه الحقيقة فموضعه فى القسم الثانى عند الكلام عن « حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية » .

غير أن الحديث عن خاصية التوحيد لا يتم حتى نشير كذلك ـ بمثل هذا الاختصار ـ إلى مقتضيات هذا التوحيد المطلق الكامل الشامل الحاسم الدقيق ، فى الحياة الإنسانية . . . وهذه المقتضيات تمثل كذلك كيف أن التوحيد خاصية من خصائص التصور الإسلامى :

إن من مقتضيات توحيد الألوهية ـ فى التصور الإسلامى ـ إفراد الله ـ سبحانه ـ بخصائص الألوهية فى تصريف حياة البشر ، كإفراده ـ سبحانه ـ بخصائص الألوهية فى اعتقادهم وتصورهم ، وفى ضمائرهم وشعائرهم على السواء .

وكما أن المسلم يعتقد أن لا إله إلا الله ، وأن لا معبود إلا الله ، وأن لا خالق إلا الله ، وأن لا رازق إلا الله ، وأن لا نافع أو ضار إلا الله ، وأن لا متصرف فى شأنه ـ وفى شأن الكون كله ـ إلا الله . . فيتوجه لله وحده بالشعائر التعبدية ، ويتوجه لله وحده بالطلب والرجاء ، ويتوجه لله وحده بالخشية والتقوى . .

كذلك يعتقد المسلم أن لا حاكم إلا الله ، وأن لا مشرع إلا الله ، وأن لا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالأحياء وببنى الإنسان من جنسه إلا الله . . فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع ، ومنهج الحياة ، ونظام المعيشة ، وقواعد الارتباطات ، وميزان القيم والاعتبارات . . سواء . .

فالتوجه إلى الله وحده بالشعائر التعبدية ، والطلب والرجاء والخشية والتقوى ، كالتلقى من الله وحده فى التشريع والتوجيه ، ومنهج الحياة ونظام المعيشة ، وقواعد

الارتباطات وميزان القيم والاعتبارات . . كلاهما من مقتضيات التوحيد ـ كما هو فى التصور الإسلامى ـ وكلاهما يصور المساحة التى تشملها حقيقة التوحيد فى ضمير المسلم وفى حياته على السواء . .

والقرآن الكريم يربط بين عقيدة التوحيد وبين مقتضياتها فى الضمير وفى الحياة ربطاً وثيقاً ، ويرتب على وحدانية الألوهية والربوبية ووحدانية الفاعلية والسلطان فى هذا الوجود ، كل ما يكلفه المسلم : سواء ما يكلفه من شعور فى الضمير ، أو ما يكلفه من شعائر فى العبادة ، أو مايكلفه من التزام فى الشريعة . . وفى السياق الواحد يرد ذكر التوحيد ، وآثار الفاعلية والسلطان ، فى الكون وفى الحياة الدنيا والآخرة ، ويكرر معها الأمر باتباع شريعة الله ، باعتباره مقتضى توحيد الألوهية والسلطان :

« وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . . . إن فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون . . . ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله . . . ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتَّبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ! كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار . . . يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ، ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون . وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون . . . يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ،

فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » . . .

(البقرة : ١٦٣ ـ ١٧٢)

وبالتأمل فى هذا السياق القرآنى نجد أنه بدأ بتقرير وحدانية الله ، ووحدة الألوهية . ثم أتبع هذا التقرير بعرض المشاهد الكونية التى تتجلى فيها القدرة الإلهَية . ثم أعقبها بعرض مشاهد القيامة التى يتجلى فيها السلطان الذى لا سلطان غيره . . . فلما انتهى من ذلك كله أمر الناس باتباع شريعة الله فى التحليل والتحريم، ونهاهم عن اتباع الشيطان ، وندد بمن يتلقون فى هذا الشأن عن عرف الجاهلية ، حيث لا يجوز التلقى فيه إلا من الله . ثم أمر الذين آمنوا أن يأكلوا من الطيبات التى شرع الله حلها . إن كانوا يعبدون الله وحده ـ وبين لهم ما شرع لهم حرمته ، لأنه هو وحده الذى يحلل ويحرم كما أنه هو وحده الذى يعبد ، وهو وحده الذى يصرف هذا الكون ، وهو وحده صاحب السلطان يوم القيامة . وتوحيده ـ سبحانه ـ لا يتم حتى يتجلى فى الشعائر وفى الشرائع وفى الدينونة سواء .

ومثل هذا السياق القرآنى المتماسك المتشابك يرد كثيراً فى القرآن للدلالة على معنى « التوحيد » ومجاله . ولعله يحسن أن نذكر هنا مثالاً آخر يزيد الأمر جلاء ، ويبين كذلك طريقة القرآن فى عرض « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » عرضاً شاملاً متكاملاً :

« وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون مالهم من ولى ولا نصير . . . أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ فالله هو الولى ، وهو يحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير . . . . وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربى عليه توكلت و إليه أنيب . . . فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم . . . شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى :

أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ـ بغيا بينهم ـ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . . . فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، وإليه المصير » . . . . (الشورى : ٧ ـ ١٥)

وبالتأمل فى هذا السياق نجد أنه بدأ بتقرير الوحى والرسالة ، لينذر الرسول بيوم الجمع والدينونة فى الآخرة. واختلاف مصائر المؤمنين والظالمين فى الآخرة وفاقًا لاختلاف طرائقهم فى الدنيا . وإعلان وحدانية السلطان فى يوم الحساب . ثم أتبع ذلك ببيان وحدة الولاية ووحدة القدرة المتجلية فى إحياء الموتى . ثم أعقب هذا بتقرير وحدة الحاكمية وقصرها على الله ـ سبحانه ـ كما أن عليه وحده يكون التوكل ، وإليه وحده تكون الإنابة . ثم عرض مظاهر قدرته فى فطر السماوات والأرض وخلق الناس أزواجاً والأنعام ، مع تفرده سبحانه . « ليس كمثله شىء » . . . وتفرد سلطانه « له مقاليد السماوات والأرض » وتفرده بالرزق : « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » . . . ثم عقب على هذا التفرد فى الذات والصفات والفاعلية والسلطان بأنه هو وحده الشارع لا منذ هذه الرسالة ولكن منذ فجر الرسالة : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » ونص على أن الشرع هو الدين والاستقامة عليه ونهاه عن اتباع أهواء الناس . وقرن إقراره بالإيمان إلى أمره بالعدل ـ وهو الحكم بين الناس وفق ما شرع الله ـ وأنهى السياق بالمفاصلة الكاملة بين المؤمنين الحاكمين بما شرع الله من الدين وغيرهم ، والرجعة فى النهاية إلى الله الذى إليه المصير . . .

ونحسب أن فى هذين النموذجين الكفاية لبيان ذلك الارتباط الكامل فى التصور الإسلامى بين توحيد الألوهية والحاكمية ، ولبيان معنى التوحيد ومجاله فى الحياة الإنسانية ، ولتقرير أن « التوحيد » بهذا المعنى وفى هذا المجال خاصية من خصائص التصور الإسلامى .

ويبقى بعد هذا البيان لمعنى التوحيد فى التصور الإسلامى ولمجاله فى الحياة الإنسانية أن نقول : إن هذا التصور ينشئ فى العقل والقلب آثاراً متفردة ، لا ينشئها تصور آخر ، كما أنه ينشئ فى الحياة الإنسانية مثل هذه الآثار كذلك .

إنه ينشئ فى القلب والعقل حالة من « الانضباط » لاتتأرجح معها الصور ، ولا تهتز معها القيم ، ولا يتميع فيها التصور ولا السلوك .

فالذى يتصور الألوهية على هذا النحو ، ويدرك حدود العبودية كذلك ، يتحدد اتجاهه ، كما يتحدد سلوكه ، ويعرف على وجه الضبط والدقة : من هو ؟ وما غاية وجوده ؟ وما حدود سلطاته ؟ كما يدرك حقيقة كل شىء فى هذا الكون ، وحقيقة القوة الفاعلة فيه . ومن ثم يتصور الأشياء ويتعامل معها فى حدود مضبوطة ، لا تميع فيها ولا تأرجح . وانضباط التصور ينشئ انضباطاً فى طبيعة العقل وموازينه ، وانضباطاً فى طبيعة القلب وقيمه . والتعامل مع سنن الله بعد ذلك والتلقى عنها يزيد هذا الانضباط ويحكمه ويقويه .

ندرك هذا حين نوازن بين المسلم الذى يتعامل مع ربه الواحد الخالق الرازق القادر القاهر المدبر المتصرف ، وبين غيره من أصحاب التصورات التى أشرنا إليها . سواء من يتعامل مع إلهين متضادين : إله للخير وإله للشر ! ومن يتعامل مع إله موجود ولكنه حالٌّ فى العدم ! ومن يتعامل مع إله لا يعنيه من أمره ولا من أمر هذا الكون شىء ! ومن يتعامل مع إله (المادة) الذى لا يسمع ولا يبصر ولا يثبت على حال ! إلى آخر الركام الذى لا يستقر العقل أو القلب منه على قرار .

* * *

وإن هذا التصور لينشئ فى القلب والعقل « الاستقامة» . . . فالإنسان الذى يدرك من حقيقة ربه ومن صفاته ومن علاقته به ذلك القدر « المضبوط » لا شك يستقيم فى التعامل معه بقلبه وعقله ، ولا يضطرب ولا يطيش !

والمسلم يعرف من تصوره لربه ، وعلاقته به ، ما يحب ربه وما يكره منه ، ويستيقن أن لا سبيل له إلى رضاه إلا الإيمان به ، ومعرفته بصفاته ، والاستقامة على منهجه وطريقه . فهو لا يمت إليه ـ سبحانه ـ ببنوة ولا قرابة ، ولا يتقرب إليه

بتعويذة ولا شفاعة ، ولا يعبده إلا بامتثال أمره ونهيه . واتباع شرعه وحكمه .

ومن شأن هذه المعرفة أن تنشئ الاستقامة فى قلبه وعقله . الاستقامة باستقامة التصور . والاستقامة باستقامة السلوك .

ذلك إلى الوضوح والبساطة واليسر فى التصور وفى السلوك . . يدرك هذا كله من يوازن بين التصور الإسلامى القائم على التوحيد ـ بمعناه هذا ومجاله ـ وبين التصور الكنسى للأقانيم الثلاثة للإله الواحد . والبنوة التى لاسبيل للنجاة إلا بالاتحاد بها . والخطيئة الموروثة التى لايغفرها إلا الاتحاد بالابن الذى هو المسيح عليه السلام ! . . . إلى آخر هذه المعميات فى هذه الدروب !

مثل هذا يقال عمن يتعامل مع « الطبيعة ! » التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تنهى ولا تأمر ، ولا تطالب عبادها بفضيلة ولا عمل ، ولا تنهاهم عن رذيلة ولا خلق ! فأنى يستقيم هؤلاء العباد على منهج أو طريق ؟ وأنى يستقيم لهم عقل أو قلب ، وهم لا يعلمون من حقيقة إلهَهم ذاك شيئاً مستقيناً على الإطلاق ، وهم كل يوم على موعد لكشف شيء عنه جديد ، ولمعرفة صفة أو طبع لم يكونوا يعرفونه . ولا يعرفونه إلا بالمصادفة أو بالتجريب !

وعلى هذا النحو نستطيع أن نمضى فى استعراض الحال مع سائر التصورات التى سبق لنا عرضها فى فصل ، « تيه وركام » فى أول هذا البحث ، وفى الفصول المتفرقة بعد ذلك . وكلها لا يمكن أن توحى لأصحابها بضبط ولا استقامة فى تصور أو فى سلوك . كما أنها جميعاً تتسم بالغموض والتعقيد والتخليط .

ومن ثم كان أول ما يستشعره القلب والعقل أمام العقيدة الإسلامية ، هو الاستقامة والبساطة والوضوح . . وهذه هى السمة التى تجتذب الأفراد الذين يدخلون فى هذا الدين من الأوربيين والأمريكيين المعاصرين ، فيتحدثون عنها ، بوصفها أول ما طرق حسهم من هذا الدين . وهى ذاتها السمة التى تجتذب البدائيين فى أفريقيا وآسيا فى القديم والحديث . . لأنها سمة الفطرة التى يشترك فيها الناس أجمعين متحضرين وبدائيين .

* * *

وإن هذا التصور ليكفل تجمع الشخصية والطاقة فى كيان المسلم الفرد والجماعة ، وينفى التمزق والانفصام والتبدد ، التى تسببها العقائد والتصورات الأخرى . .

فالكينونة الإنسانية ـ التى هى وحدة فى أصل خلقتها ـ تواجه ألوهية واحدة تتعامل معها فى كل نشاط لها . تتعامل مع هذه الألوهية اعتقاداً وشعورًا . وتتعامل معها عبادة واتجاهاً . وتتعامل معها تشريعًا ونظاماً . . وتتعامل معها فى الدنيا والآخرة أيضًا . .

إنها لا تتوزع فى الاعتقاد بآلهة مختلفة . أو بعناصر مختلفة فى الألوهية الواحدة ! أو بقوى مختلفة بعضها داخل فى حوزة الإله وبعضها خارج عليه مضاد له ! أو بعوامل مختلفة فيها ما يقهر الإله ذاته ، وليس لها هى قانون يعرف فيتفاهم معه ! أو بقوى «الطبيعة » التى ليس لها كيان محدد ولا ناموس مفهوم !

وهى لا تتوزع فى التوجه بالاعتقاد والشعور والعبادة إلى جهة . والتلقى فى نظام الحياة الواقعية من جهة أخرى . إنما هى تتلقى من مصدر واحد فى هذا وذلك ، وتتبع ناموسًا واحدًا يحكم الضمير والشعور ، كما يحكم الحركة والعمل . . وهو ناموس لا يحكم الكينونة الإنساتية وحدها ، إنما يحكم الكون كله كذلك . . فالكينونة الإنسانية حينما تتعامل مع هذا الكون تتعامل معه فى ظل هذا الناموس الواحد ، بلا توزع ولا تمزق كذلك فى هذا المجال .

وهذا التجمع ينشئ طاقة هائلة ، لا يقف فى وجهها شىء . وهذا بعض أسرار الخوارق التى أنشأتها العقيدة الإسلامية فى الحياة والتاريخ البشرى . فمن هذا التصور انبثقت تلك الطاقة الموحدة . التى صنعت هذه الخوارق . . الطاقة المتجمعة فى ذاتها، المتجمعة كذلك مع الطاقات الكونية المتصالحة معها ، لأنها تتجمع وإياها فى الناموس الواحد ، المتجه إلى الألوهية الواحدة . كما بينا من قبل فى الحديث عن خاصية الشمول .

* * *

ثم نجىء إلى الأثر المتفرد الذى ينشئه التصور الإسلامى فى ضمير المسلم وفى حياته ، وفى كيان المجتمع المسلم وفى نشاطه بخاصية التوحيد التى يتضمنها ويقوم عليها . .

إنه . . تحرير الإنسان . . أو هو بتعبير آخر . . ميلاد الإنسان . .

إن توحد الألوهية وتفردها بخصائص الألوهية ، واشتراك ما عدا الله ومن عداه فى العبودية وتجردهم من خصائص الألوهية . . إن هذا معناه ومقتضاه : ألا يتلقى الناس الشرائع فى أمور حياتهم إلا من الله . كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر إلا لله . توحيدًا للسلطان الذى هو أخص خصائص الألوهية . والذى لا ينازع الله فيه مؤمن ، ولا يجترئ عليه إلا كافر . .

والنصوص القرآنية تؤكد هذا المعنى وتحدده وتجرده . بما لا يدع مجالا لشك فيه أو جدال :

« إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إيّاه . ذلك الدين القيم » .

(يوسف : ٤٠)

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ؟ » . (الشورى : ٢١)

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (المائدة : ٤٤)

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . (النساء : ٦٥)

ولا يفرق التصور الإسلامى ـ كما أسلفنا ـ بين التوجه لله بالشعائر ، والتلقى منه فى الشرائع . . لا يفرق بينهما بوصفهما من مقتضيات توحيد الله ، وإفراده ـ سبحانه ـ بالألوهية . كما أنه لا يفرق بينهما فى أن الحيدة عن أى منهما تخرج الذى يحيد من الإيمان والإسلام قطعًا . كما رأينا فى النصوص السابقة . . وكما يثبته نص قرآنى يجمع بين المعنيين وتفسير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذا النص :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ـ والمسيح ابن مريم ـ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » .

(التوبة : ٣١)

فأهل الكتاب الذين تتحدث عنهم هذه الآية ، اتخذوا المسيح ابن مريم ربا بمعنى ربوبية العبادة والشعائر . واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا ـ لا بهذا المعنى ولكن بمعنى التلقى عنهم فى الشرائع والأوامر ـ ولكن الآية جمعت بين اتخاذهم

المسيح ربا واتخاذهم الأحبار والرهبان أربابًا . وقررت أن هذا كله مخالف لما أمروا به من عبادة إله واحد . ودمغتهم بالشرك بسبب اتخاذهم الأحبار والرهبان أربابًا للتشريع . . ولهذا دلالته التى لا تقبل الجدال .

ثم جاء تفسير الرسول - صلى الله عليه وسلم - للآية قاطعاً فى هذا الاعتبار وفوق كل جدال :

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير - من طرق - عن عدى بن حاتم - رضى الله عنه - أنه لما بلغته دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فر إلى الشام . وكان قد تنصر فى الجاهلية . فَأُسِرت أخته وجماعة من قومه . ثم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أخته وأعطاها . فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول - صلى الله عليه وسلم - فقدم عدى إلى المدينة - وكان رئيسا فى قومه طيئ - فتحدث الناس بقدومه . فدخل على رسول الله - صلى عليه وسلم - وفى عنقه (أى عدى) صليب من فضة . وهو (أى النبى صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه الآية : «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » . . قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : « بلى ! إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم » . .

وقال السدى فى تفسير ذلك : استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا » أى : الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ . .

والتصور الإسلامى بهذا القطع الحاسم فى هذه المسألة يعلن « تحرير الإنسان » بل يعلن . . ميلاد الإنسان . .

إنه بهذا الإعلان يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . « والإنسان » بمعناه الكامل لا يوجد فى الأرض ، إلا يوم تتحرر رقبته ، وتتحرر حياته ، من سلطان العباد - فى أية صورة من الصور - كما يتحرر ضميره واعتقاده من هذا السلطان سواء .

والإسلام - وحده - يرد أمر التشريع والحاكمية لله وحده - هو الذى يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .

إن الناس فى جميع الأنظمة التى يتولى التشريع والحاكمية فيها البشر ـ فى صورة من الصور ـ يقعون فى عبودية العباد . . وفى الإسلام ـ وحده ـ يتحررون من هذه العبودية للعباد بعبوديتهم لله وحده .

وهذا هو « تحرير الإنسان » فى حقيقته الكبيرة . . وهذا ـ من ثم ـ هو « ميلاد الإنسان » . . فقبل ذلك لا يكون للإنسان وجوده « الإنسانى » الكامل ، بمعناه الكبير ، الوحيد . .

. . وهذه هى الهدية الربانية التى يهديها للناس فى الأرض بعقيدة التوحيد . . .

وهذه هى النعمة الإلهية التى يمن الله بها على عباده وهو يقول لهم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » . .

وهذه هى الهدية التى يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يهدوها ـ بدورهم ـ للبشرية كلها . وهذه هى النعمة التى يملكون أن يفيضوا منها على الناس ، بعد أن يفيضوها على أنفسهم ، ويرضوا منها ما رضيه الله لهم .

وهذا هو الجديد الذى يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يتقدموا به للبشرية اليوم ، كما تقدم به أسلافهم بالأمس فتلقته البشرية يومها كما تتلقى الجديد . ولم تستطع أن تقاوم جاذبيته لأنه يمنحها ما لا تملك ، فهو شىء آخر غير كل مالديها من تصورات وعقائد ، وأفكار وفلسفات ، وأنظمة وأوضاع . . بكل تأكيد . .

لقد قال ربعى بن عامر رسول جيش المسلمين إلى رستم قائد الفرس ، وهو يسأله ماالذى جاء بكم ؟ كلمات قلائل تصور طبيعة هذه العقيدة ، وطبيعة الحركة الإسلامية التى انبثقت منها ، كما تصور طبيعة تصور أهلها لها ، وإدراكهم لحقيقة دورهم بها . .

قال له : « الله ابتعثنا ، لنخرج من شاء ، من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

وفى هذه الكلمات القلائل تتركز قاعدة هذه العقيدة ، وتتجلى طبيعة الحركة الإسلامية التى انبثقت منها ، وانطلقت بها . . .

إنها إخراج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . . . ورد أمرهم إلى الله ـ وحده ـ فى المحيا والممات ، فى الدنيا والآخرة . وإفراد الله سبحانه بالألوهية

وبخصائص الألوهية ـ والسلطان والحاكمية والتشريع ، هى أولى هذه الخصائص التى لا ينازع الله فيها مؤمن ، ولا يجرؤ على منازعته إياها إلا كافر ـ ولا توجد حرية للإنسان ، بل لا يوجد « الإنسان » ذاته ، إلا بخلوصها لله

وأصحاب عقيدة التوحيد ـ حين يفيئون اليوم إليها ، وحين يرفعون رايتها وحدها ـ يملكون أن يقولوا للبشرية كلها ماقاله ربعىء بن عامر . فالبشرية ـ من هذه الناحية ـ اليوم كما كانت يوم قال ربعى بن عامر كلمته . . إنها كلها غارقة فى عبادة العباد . والتوحيد ـ بمعناه الشامل ـ هو الذى يخرج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وبذلك وحده « يتحرر الإنسان » بل « يولد الإنسان » .

وأصحاب عقيدة التوحيد ـ حين يفيئون إلى منهج الله الذى من به عليهم وينادون به ـ يملكون أن يتقدموا للبشرية بالشىء الذى تفقده جميع المناهج والمذاهب والأنظمة والأوضاع فى الأرض كلها بلا استثناء . ومن ثم يكون لهم اليوم وغدًا دور جديد ، دور عالمى إنسانى كبير . ودور قيادى أصيل فى التيارات العالمية الإنسانية . دور يمنحهم سببًا وجيهًا للوجود العالمى الإنسانى ـ كالدور الذى منح العرب الأميين فى الجزيرة العربية ، سببًا وجيهًا للوجود العالمى الإنسانى ، وللقيادة العالمية الإنسانية .

إنهم لا يملكون أن يقدموا للبشرية اليوم أمجادًا علمية ، ولا فتوحات حضارية ، يبلغ من ضخامتها أن تتفوق تفوقًا ساحقًا على كل مالدى البشرية منها . . ولكنهم يملكون أن يقدموا لها شيئًا آخر . شيئًا أعظم من كل الأمجاد العلمية ، والفتوحات الحضارية . إنهم يقدمون « تحرير الإنسان » بل «ميلاد الإنسان » . .

وهم حين يقدمون للبشرية هذه الهدية يقدمون معها منهجاً كاملا للحياة منهجاً يقوم على تكريم الإنسان ، وعلى إطلاق يده وعقله وضميره وروحه من كل عبودية إطلاقه بكل طاقاته لينهض بالخلافة وهو حر كريم ، يملك إذن أن يقدّم وأن يقوم الأمجاد العلمية ، والفتوحات الحضارية ، وهو فى أوج حريته ، وفى أوج كرامته ، فلا يكون عبدًا للآلة ، ولا عبدا للبشر . . على السواء .

ألهمنا الله السداد .

والحمد لله رب العالمين .

الفهـــرس

الموضوع

الصفحة

رقم الإيداع : ٨٨/٧٦٣٢

ترقيم دولى : ٧ ـ ٢٨٠ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)